

رواية

راقص الساتن

محمد سالم

دار المصري للنشر

المصري للنشر والتوزيع

محمد سالم

رواية

راقص التانجو

راقص التانجو

اسم الكتاب: راقص التانجو

رواية

اسم المؤلف: محمد سالم

رقم الإيداع: ٢٠١١ / ١٠٤٧٩

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-6378-33-9

تصميم الغلاف: كريم آدم

تصحيح لغوي: حسام مصطفى إبراهيم

المدير العام: يوسف ناصف

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١١م

دار المصري للنشر والتوزيع

١٨ عمارات العرائس من شارع ٣٠٦ - المعادي الجديدة -

القاهرة

ت: ٠١٨٢٣٤٢٨٧٩

٠١٤٦٣٣٥٠٩٨

Email: elmasrypublishing@gmail.com



راقص التانجو

محمد سالم



إهداء

إلى والدي..

إلى سارة وعبد الله إخوتي الصغار.. بل أبنائي.

إلى أصدقائي الذين آمنوا بي، ودفعوني إلى الأمام: عبد الرحمن عبد السلام،

محمد فوزي، أحمد التيمومي، أحمد علي، أحمد إبراهيم، أحمد محمد،

د. عبد الوهاب مرزوق، أحمد هشام، إسلام سند.

وغيرهم كثيرون لم يسعني المقام للاعتراف بجميلهم.. وذكرى لبعضهم

ليس حصراً لهم..

أما إهدائي الخاص فهو لأستاذي الفاضل: د. علاء الأسواني.

رُويَت هذه القصة في تسعينيات القرن الماضي،

لكن لم يُسمع بنشرها إلا الآن،

لدواعٍ أمنية !



منذ دخولي السجن يا دكتور علي، لم أشعر يوماً بالذنب تجاه ما اقترفت يداي طوال حياتي .. فدايماً كان لكل شيء تبريره الجاهز بعقلي .. حتى دخل الزنزانة قبلك بشهرين شيخ أزهري اسمه جابر عبد الصمد، تم اعتقاله بالخطأ، واقتادوه إلى هنا لعدم وجود متسع بالسجون والمعتقلات! .. بعد تعرفي عليه حاولت استشارته ضد الحكومة كما تعلمت من شيوخ الجماعة، إلا أنه لم يوافقني على أي مما قلته، وتجادلنا طويلاً حول الحاكمية والتكفير، وغيرها من الأمور، فتيّنت إلى أي مدى كنتُ مُضلاً جاهلاً .. وبعد الإفراج عنه، بدأت تردد بين جدران رأسي أسئلة لا أجد لها جواباً: ماذا سيكون عقابي عند الله جرّاء ما ارتكبت يداي؟ وهل ستقبل توبتي أم لا؟ ثم تضاعفت الأسئلة في رأسي لتشمل كل سبب أودى بي إلى ما أنا فيه، فكنت أسأل نفسي: ماذا كان سيحدث لي لو لم يقابل والذي صديقه سعد مشاري، أو تصادق والدتي سيلين الفرنسية؟ وماذا لو لم يسافر أبي إلى أفغانستان وأمي إلى فرنسا وظلا إلى جانبي؟ وماذا لو لم يتم اعتقالي حينما رجعت إلى مصر؟ وماذا لو غادرت إلى أوروبا كما كان مخططاً؟ وماذا لو لم أقابل عمر؟

بالتأكيد كان حالي سيكون غير الحال .. قد تكون وجهتي المغيرة أقل شططاً أو أكثر انزلاقاً إلا أنها بالتأكيد لن تكون كما هي الآن ..

- هل تسمح لي بسؤال يا سليم؟

- تفضّل يا دكتور علي ..

- هل قرأت القرآن من قبل؟!

- قرأته مئات المرات ..

- وكيف لم تقرأ قوله تعالى (لَا يَنْهَكُوكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا كُفْرَهُمْ فِي الَّذِينَ وَلَّوْا بِخُرُوجِهِمْ مِّنْ دِينِكُمْ أَنَّ يَبْزُوهُمْ وَيَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .. وقوله (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) .. وقوله (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) .. إنها آيات مشهورة يكاد لا يخلو جوف مسلم من حفظها أو فهمها!

استقرت نظرات سليم على الأرض، وكأنها لف به قبح الشنار .. ساكت لا ينطق .. ثم رزح الصمت بيننا .. فقال متوجعاً:

- آه يا دكتور علي .. لقد ذبحتني من جديد .. لا أعرف إذا كنت ستصدقني أم لا .. لكنني ما عرفت تلك الآيات إلا قبل شهرين .. فقد كنا لا نتوقف أمام أي آية، إلا التي يتوقف عندها الأمير .. ولا نؤمن بمعنى غير الذي يفسره لنا!!

١

هاأنذا في تلك اللحظات العاتمة البائسة أعيش آخر أنفاسي .. أجلس مطرق الرأس بين صفتي الحيوان .. الدنيا والآخرة .. مستظراً اللحظة التي أتسربل فيها رداء الموت، فيحلق بي في لحظات إلى الملكوت .. يخطفني في حنو أو في قسوة من فوضى الوجود إلى سكينة الخلود، مخلفاً ورائي لحماً ودماً يقتات عليهما دود الأرض، فيدعو الله لي بالرحمة شاكراً أو يكون جاحداً فينصرف عن ذكرني

أنا لا أحتقر الموت ولا أجله .. لا أخشاه ولا أحبه .. فالموت قدر حتمي على كل ما خلق ربي من أنفُس .. مرحلة معينة يمر بها الإنسان مثل مراحل عدة في حياته كالطفولة والصبا .. كالكهولة والشيخوخة .. كالبعث والنشور .. لكنه الحلقة الأقوى في سلسلة العجز المقيدة للبشر .. الحلقة التي يدرك فيها الإنسان ضعفه وقلة حيلته بمعناها الحقيقي ..

ها هي الحياة تعجّ من حولي بقطوف المرح والنشاط والاستمرارية .. الوقت ليس له ثمن للعديدين .. فالماكرون كثر والراحلون قلة .. وكلّ قد ذهب يعدّ نفسه للجدید في خوف ورجاء .. فهما رفيقا الإنسان من مهدد إلى لحد .. لا تفارقه ولا يمل المرء منها فهما دائماً التشكل والتغير والانبعاث .. لكنهما في النهاية نفس الاسم والمعنى .. خوف ورجاء ..

شريط الذكريات يمر بتؤدة على الحواس .. وينعكس على مرآيا المخ بكل وضوح، لا تشوبه غائمة .. فتبدأ عيناى برؤية ما أحببت أو كرهت دائماً مشاهدته .. وتلتقط

أذناي أصواتاً لها أثر دفين في أعماقي .. وتشم أنفي روائح متناقضة بترتيب عجيب .. ويلوك فمي فراغاً له مذاق غريب .. الأحاسيس بالفعل غير مألوفة .. وهل يوجد مألوف لمن ينتظر الموت؟!

لا أعرف لم لا أضمر في تلك اللحظة أي ضغينة لمن ظلموني .. أجدني متسحماً معهم بشكل غير مفهوم .. أهذه الدرجة ندرك قيمة الحياة عند فراقها؟! .. الآن فقط فهمت آخر ما لفظه جدي حين احتضاره إذ قال لوالدي أنه يسامحه على كل شيء .. والآن فقط فهمت ما كرره والدي على مسامعي حيناً أوصاني بصلة إخوانه الذين تركوه في أشد لحظات حياته حرجاً وبؤساً .. الآن أدركت تماماً معنى التسامح ..

التسامح والرضا .. ثمرتان إذا أكلت منهما في حياتك لن تجوع .. وإذا أكلت ما دونها من كل شيء لن تشبع .. فالنفس الأتارة بالسوء من العسير ترويضها .. وإذا كبحت جماحها فإنها ستزوم وتحوم للخروج من قمقمها حتى تقتادك ذليلاً لها مرة أخرى .. عبداً للشر المخلوق داخلك، لصيقاً بنطفة الخير ..

لذا أنا أسامحك يا رجاء وأسامحك يا رجب .. سأقهر رغبات نفسي بالانتقام وأعفو عنكما .. ولا تظناه ضعفاً .. فعلى الرغم من كوني حبيساً في زنزانة عفنة، فإنني أقرب للمولى منكما .. فأنا مظلوم على شفير الموت راح يشق طريقه نحو ربه في هدوء وسكينة ..

الغريب أنني لا أخشى نهشات الموت ولا سكراته .. ولا أفكر فيها وراء جدران الدنيا .. ولا يشغل عقلي تخمين تفاصيل أول وجه سأراه عند احتضاري الذي لن يمكث سوى بضع لحظات على جبل المشنقة .. كل ما يحرك فصوص عقلي ويستحوذ عليه هو شخص واحد .. سليم باهر الشاذلي .. ذاك الشاب الذي لم تدم معرفتي به سوى ثلاثين يوماً، والذي امتطى صهوة الأيام زمناً ليس بالقليل في حياته القصيرة .. فتسبب أحداثها في الخفاء وراقب أفعالها في دهاء .. فكانت له كلمة مُطاعة عليها مما أشبع كبرياء نفسه ووسوسات طموحه ..

يا الله .. كم أتوق لمعرفة مآل ذلك الشاب أكثر من رغبتني في معرفة مآلي .. هل إلى الجنة سفته يا ربي كما رجلك، أم إلى الجحيم بسبب أفعاله؟ .. كم أتذكر صفحة وجهه وهو يودعني للذهاب إلى ما انتهت إليه .. إلى السجن الانفرادي انتظاراً للإعدام .. كم أشتاق إلى حديثه الممتع .. وأنسه لي في أحلك ليالٍ .. إلى حكاوي ترحاله الصاحب في كنف الأيام والتي كانت مليئة بما يستوجب الإنصات والتأمل .. يا لقساوة الدنيا .. ألا يكفيها ما انتهت إليه حياتي فحرمتمني من رفقته إلى آخر أيامي!

لقد فكرت كثيراً .. واهتدت نفسي إلى حكي ما دار بيننا .. فقد يجد غيري في حياته ما لمسته أنا فيها .. فيفهم مبتغاها ويتحصن بما يستقيه منها من حكم .. لن أدع قلة الحيلة وضعف الوسيلة يمنعني من قصّ ما سمعته من سليم .. ولن أدع أسوار السجن الراسخة تحجب عن الناس معرفة ما علمته منه .. لعل ما جال بحياته يعكس صده في نفوسهم مثلاً فعل معي فيتعظ الحكماء وينصرف البلهاء ..

الآن سأستحضر كل ما دار بيننا في قصته من كلام وهمهمات .. من بكاء وضحكات .. من إيباءات وحركات .. من نزوات وفلتات .. ولأقذف بذكرياتي الخاصة إلى ما تستحقه من فناء، لتسبقني إلى قبري .. لن يشغل بالي شيء سوى قصّ ما سرده لي سليم ..

ها هو الملازم أول سعيد رمضان الشاب الطيب الذي وعدني بالجلوس أمامي كل يوم في الزنزانة، وكتابة ما سأمليه عليه، لأنه ممنوع عليّ إمساك القلم خشية انتحاري به .. وها هي ذكرياتك يا سليم قد تراصت أمامي مذعنة بكامل أحشائها ..

لا تخش شيئاً .. فأنا لن أنسى حرفاً مما قلت أو أدون عن حياتك كذباً .. لأنني عما قريب سألقاك ولا أريد مواجعتك بفعلة أستحي منك بسببها .. لكم أتمنى يا صديقي أن يكون قد تغمدك الله برحمته وأن يتغمدني مثلك كي نكمل حديثنا بالجنة .. متكئين على سرر متقابلين .. غملاً وجوهنا الابتسامات وأذهاننا الصفاء ..

أرجو من الله يا سليم أن يمنحني وافر الوقت كي أقص كل شيء .. وألا يقتادوني إلى جبل المشقة دون اكتمال آخر كلمة فيما عزمت على إخباره إلى آخر حروفها ..

• • •

نحن الآن في السابع من سبتمبر عام ١٩٩٥، أي قبل عام ونصف من لحظتي هذه .. إنه العام الذي شُغل فيه المصريون بشيئين لا ثالث لهما، أولهما المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابا عاصمة أثيوبيا .. وثانيهما هو مدى استعداد المنتخب الوطني لكرة القدم لبطولة كأس الأمم الإفريقية بجنوب إفريقيا لعام ١٩٩٦، تحت قيادة المدرب الهولندي رود كرول، الذي علفت عليه آمال نحو آثار إخفاقات عديدة ولّت .. لكن الحدث الأكبر الذي جهل الناس معرفة قيمته هو الحكم بالإعدام على سليم الشافلي .. وتلك هي مهمتي الآن في الكشف عن نقاب لطالما لثم حياته فحجب ما فيها عن الغير ..

قبل ثلاثة شهور من سبتمبر عام ١٩٩٥، رُج بي إلى سجن استئناف باب الخلق عقب صدور حكم في حقي بالسجن المؤبد، والذي سرعان ما تقدمت بالاستئناف فيه، كي يتم تخفيفه عني أو منحي البراءة .. لذا تم اقتيادي إلى ذاك السجن حتى يفصل القضاء في أمر كان مفصولاً!

كم أتذكر أول خطواتي وأنا أسير في ممر العنابر بقلب واجف وروح ترتعش وقدم خائرة .. لا تفك نظارتي عن الانزلاق من على أنفي، فألح من جانبي عيني وجوه سمجة ترمقني باستعداد غير مبرر ..

كان الشاويش صاحب الشارب الضخم والجسد النحيل الناشف يجري من ذراعي وهو يشعر بما في نفسي من خوف، فيستلذ به، بينما يسوقني إلى زنزاتي التي ما إن رأها حتى لكزني إلى داخلها بدفعة قوية كادت تسقطني على وجهي، لتعالى شتمات بعض المساجين يتندرون عليّ هاتفين في سخرية: (اسم الله عليك) .. (يا أرض احفظي ما عليك) ..

في أول لحظاتي بالسجن غزت أنفي رائحة عطنة لا تطاق .. وعفت عيني عن النظر إلى وجوه المساجين الكريمة التي حُطت فيها كل أنواع الرذائل .. لذا كانت رأسي منخفضة ونفسي متوجسة وعقلي مشوش .. لا يدور في خلدي سوى رجاء واحد، الخروج من تلك الخرابة مهما كان الثمن .. وما أجمع تلك الأمانى في رأسي هو ما كان يحدث في ليالي السجن .. عندما كنت أصحو فزعاً من غفوتي على صراخ سجين ما يُلْتَقَط من الزنزانة كما تُلتَقَط الدجاجة من عشتها بواسطة اثنين من الحراس الشداد (حكام الليل الفعليين في السجن) يعتلونهم إلى أحد عتاة المجرمين في زنزانة أخرى كي يغتصبه هو وزمرته من الأوباش، مقابل علبة سجائر كليوباترا إذا كان المُتَهَك عرضه عادي الهيئة .. أما إذا كان وسيماً، فإن ثمنه لن يقل عن خمسة جنيهات تُدفع إلى كل حارس من الحراس الذين اقتادوه ..

نصف ساعة من الصرخات الرهيبة توخز مسامعي فتجعلني أجد رعباً في سريري وترتجف أوصالي خوفاً من أن يكون دوري هو التالي .. فأدعو الله بما أحفظه من المأثورات أن يقيني شر أولئك وشر ما يفعلوه .. ثم يعود السجن إلى حالته الأولى من السكون الباهت، لا يتخلله سوى هينة الراقيدين بالعنابر من أحاديث تافهة وأمنيات ساذجة وشكاوي بائسة .. وأعود أنا إلى براغيث فراشي كي تكمل لدغها لي بمساعدة ومباركة من غطائي الرمادي الشائك ..

لكنني في كل ليلة كان يتنامى إلى مسامعي مهمة خافتة من السجين النائم بجانبني .. كلمات بالفرنسية استعجبت كثيراً أن تتلى في هذا المكان الذي لا يسكنه سوى الجهلة والحثالة .. كنت أمعن في الإنصات إليه حتى تلتقط أذناي ما يقوله بالضبط .. فكان لي ذلك على مراحل .. حيث إني في كل ليلة كنت ألتقط بضع كلمات مما يقوله، وفي الليلة التي تليها ألتقط أخرى .. حتى اكتملت في مسامعي كلماته وتراپطت في جُمل مفهومة ..

كان ذاك السجين هو الأغرب على الإطلاق في الزنزانة .. وما زاد من غرابته هو

اللقب الذي أطلقه المساجين عليه "المارد"، وذلك يعود إلى طوله الفارع .. وعضلاته المفتولة المصقولة .. وبنائه القوي .. لكن هذا ليس كل شيء .. فالسبب الحقيقي في تسميته بذلك الاسم هو التشوّهات البشعة الموجودة على جانبي وجهه، والجزء العلوي من صدره وذراعيه .. حتى رأسه لم يسلم، فيهبأ لك من تبعثر شعره أنه مصاب بالثعلبة .. مما جعل شكله أقرب للمسوخ منه إلى الإنسان .. وكحال كل المساجين كنت أتجنب النظر إليه أو الاقتراب منه .. وذلك ما فطرت عليه النفس البشرية .. الهروب من كل قبيح والفرار من كل مخيف ..

كان شاباً صموتاً مطوقاً بالهدوء .. حركته أقل من حركة دب في يياته الشتوي .. لا يقوم من مكانه إلا للصلاة في وقتها، أو إلى وجبته الوحيدة التي يأكلها يومياً، ولا يتغذى على غيرها، أو إلى دورة المياه ليقضي حاجته ويتوضأ، ثم يظل على طهوره حتى اليوم التالي .. دائم البعد عن ضوء الشمس لأن ما بوجهه وصدره حروق وليست تشوهات تُخلق بها فيما يبدو.. وبعد أدائه لصلاة العصر يجلس مربعاً على فراشه، يتلو القرآن حتى العشاء، لا يقاطعه في ذلك سوى قيامه لصلاة المغرب ..

حينما فككت شفرة ما يتمتم به في كل ليلة بالفرنسية، استغربت من حاله .. حيث كان يدعو في خفوت قاتلاً:

اللهم مالك الملك .. جبار السموات والأرض .. لذت إليك يا خالقي بعد ما جمحت بي دروب الدنيا إلى غير رضاك .. وتلاطمت بي بحار الأيام إلى غير مبتغاك .. ربي لقد بختت نفسي المموم .. وأضتها ما اقترفته من ذنوب .. وليس لي رب سواك ..

اللهم أنت تعلم سريرة نفسي .. وصدق نيتي .. وتدمي الشديد .. هاأنذا يا مولاي سدمان آسف أصبح معلناً في رحب ملكوتك بأنه لو عادت بي مراكب الحياة أدراجها، ما عدت قط إلى ما فعلته .. أعلم بأن حجم جرمي كبير .. وذنبي ليس ببسير .. لكنه رجاء فيمن لا ينقطع فيه الرجاء .. أن ترحمني وتغفر لي ..

اللهم إني في هذا المكان المظلم المكفهر يحيط بي شرار خلقك .. فلا تؤاخذني بأنفاسهم المدنسة لدعائي الصاعد إليك .. ولا تحكم عليّ بذنوبهم .. فيكفيني ما مضى من أفعالي الموردة إلى مصارع التهلكة .. أنا لا ألقى بشروري على كاهل أحد لينوب عني في حملها .. فأنا كنت الضال المضل الذي لم يدع إثماً إلا واقترفه وحرّض عليه .. لكنني أبرأ إليك من كل ذنب ليس لي يد فيه ..

اللهم اقبل توبتي ولا تلقي بها إلى قيعان الهلاك مثلما فعلت مع عبدك الطاغية فرعون حين غرقه .. واعف عني وجنّبي درك جنهم الأسفل وشجر الزقوم .. وأغدق عليّ برحمة أخفق بها في فردوس لا يطالني فيه بؤس ولا شجون ..

وبعد أن ينتهي من دعائه هذا تأخذه رجفة صاعقة .. يرتعش فيها جسده كله .. ويخفق الفراش من حوله .. تنكمش أطرافه وتنثني ركبته إلى بطنه .. ثم تتملكه نوبة بكاء هادرة .. فيجهش بها لدقائق طويلة، حتى يخطفه النوم إلى غياهبه .. وأمكث أنا بعدها أفكر طويلاً في دعائه .. وتطن في رأسي أسئلة لم أعرف حينها لها جواباً ..

لم يبتهل إلى الله بالفرنسية؟!

هل هو فرنسي .. وساقه القدر إلى سجون المحروسة؟!

ما الجرم الذي اقترفه .. والذي يجعله يتلو دعاءه في نبرة يأسها مفضوح من الإجابة؟!

ولم لا يحاول مخالطة الناس .. هل يحتقر منظره أم أنه قد فطن إلى مخاوف السجناء من شكله فامتنع عن مجالسة الآخرين؟!

ولم في ذلك الوقت بالتحديد من كل ليلة يتلو هذا الدعاء دون تغيير في كلمة أو حرف؟!

٢

لا أعرف لمَ اشتد فضولي نحو ذلك الشاب .. ونازعني شغف جِدِّي لمعرفة ما يخفيه في أغوار نفسه .. هل لفرنسيته التي كان يتمتم بها بطلاقة .. أم لشهوات وجهه وما تثيره في النفوس من تساؤلات؟ هممت عدة مرات بمخاطبته لكنني كنت أعدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة، إما لتقرزي منه أو بسبب لفظة مفاجئة بجيده تجاهي وأنا اقترب ناحيته، يدعوني فيها بنظره الحاد إلى الابتعاد عن جواره .. أو بسبب عزوفي عنه بالانشغال في التفكير في بلائي .. لكنني في صباح السابع من سبتمبر عام ١٩٩٥، نهضت مبكراً من فراشي على ثرثرة المساجين الصاخبة .. كان أول وجه تفتحت عليه عيناى هو وجه ذاك الشاب .. فحدقت فيه زمناً .. وتنقلت مقلتاى في ربوع ملاحه بتأني .. اختلطت أنفاسى بزفيره وتعانق ما بيننا من أثر .. لكنه فجأة فتح عينيه الحادثين فرآني .. وكأن هاجساً ما أيقظه فزعاً من سباته ليحدجني بنظراته اللائمة .. نهض بعدها من فراشه مضطرباً ورتبه بانفعال .. وكذلك فعلت مثلما فعل .. فانتبه إليّ ولفت نظره تقليدي له في الحركات .. لكن حركاتى التي جاءت مماثلة لحركاته، لم تأتِ سخرية منه، وإنما بسبب التوتر الذي أصابني من صحوه المفاجئ ونظراته الحادة المنقّرة .. فاستجمعت جرأتى ودفعته نحو قلبي لتمحو ما فيه من وجل .. ودارت تساؤلات تعجبية في بالى للحظات: لمَ لا أكلمه؟! .. هل سيقتلع لساني من حلقي أم يدب قبضته في قفصي الصدري ويقتلع قلبي من مكانه؟! .. هل هو سريع الغضب أم عصبي المزاج؟ .. لكنني لن أقول ما يستثير غضبه أو آتى على فعلٍ يفجر استهجانه ..

التفتُ إليه بحركة خاطفة من عنقي .. وابتسمتُ في وجهه قائلاً:

- صباح الخير ..

استمر في ترتيب فراشه دون أن يلقي بالاً لتحيتي .. وقبل أن يجلس القرفصاء ويضع رأسه بين فخذه كعادته في كل صباح حتى الظهيرة، باغته بسؤال أطلقته بالفرنسية وأنا أدنو منه:

- تُدخن؟

رفع عينيه نحوي ورمقني بنظرة تحمل تعجباً من لكتي الفرنسية التي حاولت تجويدها قدر المستطاع قبل أن أسأله .. لكن سرعان ما خف ذلك التعجب وتحولت نظراته إلى نظرات مرتابة من أي قد سمعت وفهمت ما يناجي به ربه كل ليلة .. ثم دار بوجهه عني ووضع رأسه بين فخذه غير مبالي ..

لم أرخص بتلك الإجابة منه .. فأسندت ظهري إلى الحائط قربه .. وأشعلت سيجارتي ثم قلت له بالفرنسية:

- حدثك بالعربية فلم تجبني .. حدثك بالفرنسية التي أسمعك تدعو بها كل ليلة فلم تجبني .. فهل لك لغة ثالثة تتحدث بها أم ماذا؟!

رفع رأسه من بين فخذه ونظر إلى وجهي ملياً .. ثم سألني بالعربية:

- ماذا تريد؟!

شعرت بأني أنجزت شيئاً عظيماً إذ حملته على الحديث وهو الصنم الذي لا ينطق أبداً .. فقلت له بنبرة ودود:

- إذن أنت مصري .. هيا يا رجل نحن في سجن .. وكما ترى فلا يوجد تلفاز أو مذياع .. وليس لنا في أيامنا الكثيرة هذه سوى الكلام كي نحرق أوقاتنا ..

فعاد برأسه إلى ما بين فخذه قائلاً بالفرنسية في حزم:

- لا أريد الكلام .. دعني وشأني ..

استدركته بالفرنسية قائلاً في استغراب:

- عليك الحديث مع الآخرين حتى تخفف عن نفسك ..

حينها رفع يده مشيراً بظاهاها إلى وجهي بدعوني فيها إلى الكف عن الكلام .. ثم ثابها وفردا مرتين متتاليتين بإشارة مفهومة وواضحة يطلب بها مني الذهاب من جانبه ..

اغظت من أسلوبه المتعالي في رفضه لقربي منه .. واحتقنت نفسي أياً احتقان .. حتى إنني رحت أسبه في داخلي بالمسخ الدميم .. اللقيط القذر .. وغيرها من الألفاظ التي تدافعت في رأسي كرصاصات الغدر لكي تخفف عني وطأة الحرج الذي تعرّضت له .. فنهضت من جواره رافساً الهواء بقدمي وزلت كلمة غاضبة من فمي قلتها له بالفرنسية:

- فلتحترق هنا وحيداً أكثر مما أنت محترق ..

وبعد أن قلتها خفت من انتقامه .. لذا تلّقت ورائي بضع مرات وأنا أذهب إلى خارج الزنزانة متوجساً من أي حركة مباغته عنيفة تصدر منه، عقاباً لي على ما قلته في حقه .. لكنه لم يرفع وجهه من بين فخذيه، وكأنها حط الطير على رأسه .. فظل ساكناً كأنه ارتضى ما قلته له!

ظلمت وقتاً طويلاً أتجنب قربه أو النظر إليه لعله يعتذر عما بدر منه تجاهي، أو حتى أمهل نفسي وقتاً كافياً لإعادة المحاولة معه مرة أخرى .. وفي أحد الأيام حينما جنّ علينا الليل بظلمته الكاحلة، لذتُ بعالم النوم هارباً إليه مما يحيط بي مثلما أفعل كل ليلة .. لكن في تلك الليلة حدث ما كنت أخشاه منذ لحظة دخولي السجن .. حينما أحسست بأنفاس ساخنة كريهة تلمح قفاي، وحركة خفيفة تحوم حولي، تهمس في خبث قائلة: (الليلة ليلتك يا جميل) .. ففزعت من منامي ورحت أصبح بكل قوتي

لعل أحدا ما ينجدي بيننا أدرك في قرارة ذاتي أن أحداً لن ينجدي مثلاً لم ينج من سبقوني إلى ذاك المصير ..

انقض عليّ الشاويش وزميلاه فأمسك أحدهما قدمي محاولاً حلي، وأطبق الآخر يده على فمي، يقول لي:

- اهدأ قليلاً أيها اللعين .. ولا تحدث جلبة ستدفع ثمنها وحدك ..

عندئذٍ أيقنت أنني هالك لا محالة .. وأن معاد سلخي وإذلال نفسي قد حان وسط همهمات النائمين بالزنزانة المشفقين عليّ، أو ضحكات بعض الخبثاء الشامتين بي .. فتملكني الوهن على الرغم من أن كل جسمي كان يتفرض في حركة لا إرادية مفصولة تماماً عن أوامر عقلي .. لكن فجأة حدث ما لم أكن أتوقعه، عندما انهالت قبضة أحدهم على فك الشاويش الذي كان يضع يده على فمي فطرحته أرضاً بعيداً عني .. ثم ركل الاثنين الآخرين في بطونهما بكلتا قدميه في آن واحد .. فقام أحدهما بفتح مصباح يده على وجهه من ضربهم، يزفر هائجاً، فوجدوه "المارد" .. حينها جبنوا أن يردوا عليه، ووقفوا في مكانهم حائقين عازمين على الانتقام، لكنهم لا يدرون كيف!

- لو قمتم أيها الملاعين بتكرار فعلتكم هذه في الزنزانة التي أنا فيها، فلا تلو من إلا أنفسكم .. أنا على أتم الاستعداد لقتل ثلاثة خنازير دون أن يرتجف لي جفن .. ولن يلومني القاضي على ذلك أو يعذبني الله بذنبكم .. هل كلامي واضح؟

هكذا حدثهم بصوته الأجلش المخيف، وهو يحدهم بنظراته الحادة التي شقت ستائر الليل إلى قلوبهم القذرة المريضة فألقت فيها رعباً وذلة .. لذا تركوني وهم يزجرون ساخطين من ضياع ورقة الخمسة جنيهاً منهم، ليس باعتباري وسيئاً لكن باعتباري من الفئة النظيفة التي تثنى جيداً هنا .. وسرعان ما عاد السكون إلى الزنزانة فقد انتهى الصخب الذي تعود المساجين كل ليلة، بينما أنا غارق في حالة ذهول مفاجئة مما أصابني .. فقد كنت قاب قوسين أو أدنى من أن يلغ في جسدي كلاب السجن ويدنسوه ..

ظللت على تلك الحال حتى شروق الشمس، ولم تغمض لي عين خوفاً من عودتهم مرة أخرى .. لم أنتبه من ذلك الاستغراق الذي غاصت فيه نفسي طوال الليل إلا بحركات "المارد" وهو يرتب فراشه في الصباح .. حينها انساب أول دمعة من عيني .. دمعة أمسكتها حبيسة في جفوني منذ دخولي إلى السجن لثلا يظنني الآخرون ضعيفاً فيتخذونني سخرياً .. لكنني في ذاك الصباح تركتها تتسرب دون قيد، حتى يحيف ينبوع الأسى والانكسار بداخلي .. فالتفت إلى المارد قائلاً بالفرنسية:

- دع دموعك تطفر من عينيك ولا تكبلها .. فالدموع تغسل الذنب وتطهر القلب ..

درت برأسي إليه بطيئاً .. وقلت له بنبرة تمزج بين الذل والامتنان:

- أشكرك على ما فعلته لي بالأمس .. فلولاك لكنت الآن مسوماً بالعار إلى آخر أيامي ..

لم يعر ردي اهتماماً وجلس جلسته المعتادة واضعاً رأسه بين فخذه .. لكنني لم أتركه ودنوت منه بعد أن هدأت نفسي .. وألصقت كفتي بكفته ..

- هلا تخبرني قصتك .. فأنا لم أصادف مثل حالتك غربة طيلة عمري!

- وكم عمرك؟

هكذا سألني وهو دافن رأسه إلى الأسفل .. فأجبته على الفور:

- اثنان وأربعون عاماً ..

- اثنان وأربعون عاماً ولم تصادف مثل حالتي .. يبدو أن حياتك كانت فارغة!

تعجبت من رده المتعجرف .. وساورتني الظنون بأنه شخص كريبه بغیض يسعى إلى تغفير الآخرين منه أكثر من سعي الصالحين إلى رضا الرب .. فرددت عليه بحنق:

- إن وجودنا بالسجن هو دليل على أن كل واحد منا قد أصابه ابتلاء جلل

وظلم عظيم .. أو أنه ارتكب فعلة شنعاء استحققت وجوده هنا .. لذا لا داعي أن تحقر من شأني ولا شأن غيري .. فكلنا في الهم سواء ..

رفع بصره ناحيتي وعيناه الزرقاوان تحملان أسفاً لما بدر منه ..

- معك حتى .. لا تؤاخذني بما قلت .. أنا آسف .. يبدو أن آفة الكبر مازلت تسري في دمي ولم تخلصني منها ليالي السجن الطويلة ..

- لا داعي للاعتذار .. فنحن إخوة ..

استغلّيت حالة الرقة التي تسللت إلى نفسه الصارمة، ووضعت يدي على كتفه مرتباً بحنو .. وقلت له:

- يبدو أن قلبك يحمل أسمى بالغاً .. ثق أنك لست وحدك في ذلك فكلنا مثلك .. سأبدأ أنا يا سيدي بقص حكايتي عليك حتى تعلم أنك في نعمة كبيرة عن غيرك ..

لم أنل أي رد منه أو حتى إلباءة يسمح لي فيها بالحديث معه، أو الامتناع عن ذلك .. لكنني استرسلت حاكياً:

- اسمي علي سليمان الرفاعي .. دكتور في الأدب الفرنسي بكلية الآداب جامعة عين شمس .. عندي اثنان وأربعون سنة، كما أخبرتك من قبل .. ولدت بحي السيدة زينب بالقاهرة لأبوين فقيرين معدمين .. حيث كانت والدتي أمية تبيع الجرجير، والوالدي بائع سجائر لا يقرأ سوى بضع الكلمات، بالإضافة إلى اسمه .. استفدت كغيري من أبناء جيلي من مجانية التعليم التي منحها عبد الناصر كأمل براق لعموم فقراء مصر .. فانشغلت بدروسي واجتهدت فوق طاقتي محارباً فقري لأنفوق على أقراني، ثم تغلبت على محنة وفاة والدي اللذين انتقلا إلى الرفيق الأعلى في آخر ستين بدراستي بالكلية على التوالي، حتى أكون ذا شأن .. وكان لي ما أردت عندما بلغت الثامنة والعشرين من عمري، حيث حصلت على الدكتوراه، وأتاح لي القدر عدة فرص ذهبية منحتني أموالاً وفيرة في وقت قصير .. فعملت كمترجم خاص للسفير

الفرنسي بالقاهرة بالإضافة إلى عملي في الجامعة .. وتحللت ذلك عدة أشياء شغلتهما كي أنكسب مالا أكثر مثل ترجمة الكتب لدور النشر، والمشاركة في فريق إعداد نشرة الأخبار التي يبثها التلفزيون المصري .. حتى الدروس الخصوصية لتلامذة الثانوية العامة قمت بها .. كل ذلك فعلته كي أختصر طريق مستقبلي، وأصل إلى القمة التي حلمت بها طويلاً .. أو كي ألحق بآخر عربة من قطار شبابي الذي مر دوننا أتلدذ بليلة واحدة من لياليه .. فتركت الخرابة التي كنت أعيش بها في شارع الحنفي بالسيدة زينب، وابتعت شقة فسيحة في شارع الطيران بمدينة نصر، وجهزتها بأفضل ما يكون استعداداً لاستقبال نصفي الآخر الذي شاء القدر أن أتعرف إليها في حفل أقيم بالسفارة الفرنسية، حضره لفيق من صفوة المجتمع كانت هي زهرة حضوره .. رجاء النجار ابنة المستشار السابق وعضو مجلس الشعب الحالي عن دائرة الهرم رجب النجار .. والتي دفعت فيها كل ما جمعه من مال في أعوام العمل الشاق .. لكنني دفعته عن طيب خاطر لما تمتلكه من جمال أخاذ وحسب ونسب رفيعين، حتى تم زفافي عليها وأنا في سن الخامسة والثلاثين، بينما كانت هي في ربيعها الثالث والعشرين .. عشت معها شهوراً قليلة كأني بالجنة ثم تحول ولعي بها إلى عبودية، فكنت أرضخ لأي مطلب لها حتى لو كلفني فوق مقدرتي .. لا أنكر أنني استفدت من زواجي منها عن طريق والدها النائب الذي عمل على ترقيتي بالجامعة والتلفزيون وضاعف راتبي .. لكن ما كنت أحصل عليه باليمين تأخذه رجاء أضعافاً باليسار .. كانت حياتي معها جيدة إلى حد كبير لا ينقصها سوى إنجاب طفل يحمل اسمي، وأعرض به ما حرمت منه في صغري، لكنها أصرت على رفض الإنجاب بحجة أنها صغيرة وتريد التمتع بحياتها معي قدر الإمكان قبل أن تضئها مشقة الحمل وتربية الأطفال .. أكرهت على الرضا برغبتها لأنها كانت تتحكم بي وحياتنا كيفما شئت .. وبعد خمس سنوات من زواجي انطفأ ولعي بها تماماً، وارتضيت بخنوع أن تصبح حياتي معها بلا هدف أسعى له ولا غاية أتوق لتحقيقها .. وقبل عام تقريباً من لحظتي المشئومة هذه، سكن بالشقة المقابلة لي مدرب آيروبكس اسمه سامر .. شاب

وسيم منطلق لا يمتهن سوى المتعة في حياته غير عابى حدود .. من خلال بعض تصرفاته ساورني شك ناحيته بأنه يغازل زوجتي، وزاد ذلك الشك المؤلم داخلي حينما لاحظتها تبادل الإعجاب ببعض إيباءات ونظرات رغبة .. تجاهلت ذلك الإحساس لفترة طويلة مدعياً أنه مجرد وهم ناتج عن حياتي الفاترة، لكن الشك استحوذ على عقلي تجاهها حتى اتحد مع كل جزء في جسدي وصار يقيناً موجعاً لم المس عليه حينها دليلاً مادياً، فأهملت عملي وتفرغت لمراقبتها .. وفي يوم من أيام مراقبتي لها حدث ما كنت أتخوف منه، عندما لم أجد سامر ينطلق إلى عمله باكراً كما تعودت منه .. فهاجمني بغثة إحساس مرعب بأنه سيرتكب ما يذبحني .. فعدت عاجلاً على غير عادي إلى البيت في الساعة الحادية عشر صباحاً، متعللاً إذا ما خاب وسواسي بجلب حقيتي الشخصية التي لم أنسها قط من قبل .. وفتحت باب الشقة بهدوء حتى لا يتمكن الآثان من التحسب لمجيئي .. خطوت بضع خطوات نحو الصالة وبدأت تبلغ مسامعي تأوهات جاححة للذة متقدة .. كلمات عشق تردد بصخب في غرفة النوم تحالطها ضحكات رقيقة .. لم أستوعب للحظات ما سمعت من رفث، بينما كانت قدماي تتحركان بترو ناحية باب الغرفة .. وعندما فتحته شاهدت ما خرق فؤادي وجرح كبريائي ووأد شرفي .. شاهدت رجاء تجلس عارية على خصر رجل غيري في فراشي تشهق من علو شهوتها وتسقيه من فنتها .. حينما رأي سامر القدر دفعها وانطلق يهرول من الغرفة حاملاً بنطاله وقميصه بينما انطلقت هي إلى ثيابها لتداري سوء جرمها .. حدثت بها فترة غير مديدة في ذهول شديد، وتطايير من عيني لوم عَطُود .. فبادرت بالبكاء لتستعطفني وانهالت على قدمي تقبلها كي أسامحها .. لكن دون دراية مني جذبتها من شعرها وجررتها على الأرض نحو السرير الذي احتضن إثمها زمناً .. كنت في كل خطوة أخطوها تشتعل في روحي براكين الغضب وتدنق شياطين الانتقام على رأسي، حتى بلغت ذروة انفعالي، فحملتها وقذفنها من الشباك .. ولم تبرد ناري حتى سمعت صيحات الناس في الشارع وهم يتبادلون النظر بين جثتها وشرفة غرفتنا قائلين: لقد ماتت، إنا لله وإنا إليه راجعون .. وسرعان ما جاءت

الشرطة وتم اقتيادي إلى القسم، فحكيت لهم عما حدث وسُجل محضر بالواقعة .. لكن المحضر مزق ودُوّن مكانه أي قتلها طمعاً في مصوغاتها بعد أن بددتُ مالي على المخدرات .. طبعاً المحضر تم استبداله بمعرفة أبيها النائب وأخيها ماجد النجار رائد المباحث خوفاً من الفضيحة التي ستمس وظائفهم الحساسة .. وبما أنه ليس لي ظهر أرزي إليه فقد ألْبسوني التهمة بعد أن جعلوا زملائي يشهدون ضدي بأني مدمن وسكير .. وأن زوجتي كانت طيبة شريفة عفيفة .. وهكذا حُكم عليّ بالمؤبد لكن أملي في الله كبير أن أحصل على براءة في الاستئناف ..

- إذن أنت دكتور في الأدب الفرنسي .. لذا فهمت ما كنت أغمغم به في الليل!

كان هذا أول تعليق له بعد سردي لحكايتي .. فأثار ذاك تعجبي .. مما دفعني لأن أجزم بأنه لم يسمع ما قلته .. لكنه لمح ذاك الاستغراب في عيني فاستطرد بهدوء قائلاً:
- لا تقلق .. سوف ينصرك الله على من ظلموك .. فدعوة المظلوم لا ترد، وقد أقسم المولى بعزته وجلاله أن ينصرها ولو بعد حين ..

اعتدلت في جلستي وقابلت رأسي ركبتيه .. قائلاً بمودة:

- هذه هي حكايتي يا عمي من طقطع إلى السلام عليكم .. فما هي حكايتك إذن؟

- أليس من باب أولى أن تعلم اسمي قبل حكايتي .. أم أنك اعتقدت بأن ما يلقبونني به هنا هو اسمي الحقيقي؟!

- تخرجت بعض الشيء .. فقلت له بمرح:

- لا بالطبع .. لم أعتقد أن المارد هو اسمك .. لكن تستطيع القول إن ما أثار انتباهي إليك هو صمتك الدائم وهمك الذي لا يزول من وجهك .. فحاولت معرفة ما تخفيه داخلك ..

- على العموم اسمي هو سليم .. سليم باهر الشاذلي ..

- وحكايتك؟

- غداً إن شاء الله أقصّها عليك ..

فداعبته قائلاً:

- هل ستقصّها بالفرنسية أم بالعربية .. ها ها ها ..

أجابني بهدوء بالغ:

- أفضل أن أحكيها بالفرنسية .. كي نستطيع الحصول على بعض الخصوصية من الأذان المتلصصة هنا .. فإذا كنت غير ضليع بها فجنبني عناء القص وجنب نفسك عناء الاستماع ..

مرة أخرى وجدته يكيّل لي عبارة مستفزة .. فقلت له بحزم وغيظ:

- أقول لك دكتور في الأدب الفرنسي والمترجم الخاص للسفير الفرنسي وتقول لي إذا كنت غير ضليع .. ما هذا الذي تقوله؟!

ارتسمت على شفثيه ابتسامة باهتة لم تتضح معالمها في وجهه الشائه .. لمحت فيها بعض التعالي وقليلاً من الأسف ..

- أعتذر إذا كان كلامي قد تسبب بضيق لك .. لكنني أحبيت الاتفاق معك قبل أن أسرد عليك حكايتي وما فيها .. والتي أراك شغوفاً لمعرفتها منذ لحظة دخورك السجن .. الآن قد أذن الظهر .. بعد إذنك سأقوم إلى الصلاة ..

- هل أصليها معك جماعة ونأخذ الثواب؟

- كما تحب ..

وبينما نحن نصلي، استسلم عقلي لتهكمات حانقة عليه، فشغلّنتني عن الخشوع في الصلاة .. حيث كان وسواس نفسي يقول لي: ما باله يعطي قيمة لحكايته أكثر مما ينبغي .. هل هو أنور السادات وأنا لا أدري؟! .. اتفاق .. وفرنسية .. وحتى لا يسمعنا الآخرون .. على العموم قد هانت .. كلها يوم وأعرف حكايته التي أذلتني نفسي الفضولية لمحاولة معرفتها ..

٣

ما أشد كرهى لأيام السجن وما أطول لياليها .. الزمن يتحرك فيها حول محوره
 معيداً نفس الأحداث يومياً .. لا يختلف شيء بين الساعات سوى انتقال الشمس
 والقمر عن مواضعها .. غير ذلك كل شيء يتم في نفس الترتيب المجدول ..
 المساجين دائماً ما يتشوقون إلى الجديد .. إلى سماع طرفة مضحكة أو رؤية وجه نزيل
 آخر .. أو حتى مشاهدة مشاجرة دموية تلبى توق أنفسهم إلى التغيير .. قد يكون
 ذلك هو سبب شغفى لسماع ما يكتمه سليم في صدره والذي ما إن استيقظ في
 الصباح حتى وجدني رابضاً أمامه، راسماً على شفاهي بسمه بلهاء ووجهي متشح
 بفرحة طفولية، كأني أنتظر العيديه من والذي .. فلمح سليم ما تضرمه نفسي من
 رغبة ملحة في سماع ما لديه ..

- يبدو أنك لم تنسَ ما دار بيننا في الأمس ..

هذا ما قاله لي بصوت رزين وهو يرتب فراشه .. فحاولت كبت مشاعري عن
 وجهي، والتي فضحت توقى الهائل لسماع حكايته، لثلا يتحول إلى ما يشبه التاجر
 اللثيم الذي ما إن يرى اللهفة تلمع في عين زبون ما، أخذ يتمنع ويغالي ويباطل ..
 - كما قلت لك سابقاً .. نحن في السجن حيث لا شيء نفعله سوى الإصغاء
 لبعضنا بعضاً ..

- وماذا ستفعل بعدما تعلم حكايتي؟!

- عمم .. إن لكل قصة عبرة إذا لامست ما بين سطورها فقد انتقيت لنفسك

حكمة تعينك على قضاء أيامك دون تعب ومشاكل ..

- وما تنفيذ الحكمة في السجن؟!

بدأت أتملأ من تباطئه في قص ما لديه، لذا باغته بجملة حاسمة وضعت أمام طريق وحيد لا مهرب منه:

- لم لا تقص ما لديك .. وتدع عنك تدبر كيفية الاستفادة مما فيها .. ويا سيدي ما على الرسول إلا البلاغ؟

- حسناً .. كما تريد .. ولكن من أين تريدني أن أبدأ؟ .. هل أبدأ بكيف انتهى الحال بي إلى هنا .. أم بكيفية انتهاء الحال بي إلى هنا؟
- وما الفارق؟!

- لكل طريق نهاية .. فإذا أحببت أن تعرف النهاية فعليك بالكيف .. وإذا أحببت معرفة الطريق حتى النهاية فعليك بالكيفية ..

لم أحتَرَّ في الاختيار .. فيما أُنِي في السجن فسأختار الأطول بين القصتين والتي هي بالطبع "الكيفية" لذا أجبته بحزم:

- الكيفية ..

- إذن أعد نفسك لطريق طويل أوله معلوم وآخره لا يعلمه إلا الله ..

• • •

سحب شهيقاً واسعاً وأطلق زفيراً طويلاً، وهو يطيل النظر بعينه الزرقاوين أمامه، يشع منها نور جريح كأنها يشق بمخيلته سحب الزمن، كي يقتاد أولها إلى أمامه ويعصر ما فيها .. ثم أراح ظهره إلى الحائط، ومدد قدميه كأنها قد افترش تحته بساط الذكريات، واستعد لفض مغزله المحكم ..

- حينما خرج والذي المعيد في هندسة البترول باهر الشاذلي من المعتقل في أكتوبر عام ١٩٦٧، والذي كان دخوله إليه بسبب مشاركته في مظاهرة طلابية حاشدة بجامعة القاهرة، طالبت بمقاضاة المسؤولين عن نكسة ٦٧ التي أذلت شعبنا بأكمله .. كان أول شيء يدور في باله هو الخروج من مصر بأي شكل .. فهو لم يعد يطيق لها ذرعاً، ولم يعد يحتمل ما عانتة نفسه الحرة فيها من مهانة .. لم يحاول اللحاق بأخيه الأكبر سليمان الذي كان يكمل دراسته العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه يمقت الرأسمالية الأمريكية ويغضها من كل قلبه، وذلك بسبب إيمانه التام بمبادئ الشيوعية، وانبهاره الفائق بالاتحاد السوفيتي وأدابه وفنونه ولغته، وكل ما يمت له بصلة .. كان التضيق الأمني عليه قاسياً ولم يجعل أمامه أي سبيل للعمل في مصر، لذا فكر في ترك بلده بعض الوقت حتى يتغير الوضع القائم .. وكان له ما أراد عندما تقدم على طلب وظيفة لم يكن أمامه غيرها في شركة أرامكو بالمملكة العربية السعودية وتم قبوله .. وعلى الرغم من حالة العداء المستمرة بين المملكة ومصر آنذاك، والنظام الديني المتحكم بها، فإن المهندس باهر تجاهل ذلك لأنه كان مؤمناً بالقومية العربية، ولا يرى في العالم غير شر واحد هو أمريكا ومن ورائها إسرائيل، أما ما دون ذلك فيمكن التعامل معه مهما بلغت حدة اختلافه .. لم يكن والد أبي على قيد الحياة حينما قرر السفر، ولم يكن له أحد في مصر إلا خال يعمل موظفاً في السد العالي بأسوان، يوده بين فترة وفترة .. لذا فإن قرار والذي بترك مصر لم يكن مكتظاً بالحمول الأسرية التي تثقل كاهل أي راغب بالهجرة عن وطنه .. عانى والذي كثيراً في السعودية لأنه لم يعتد تلك البيئة الصحراوية القاحلة، ولم يألف سكانها من البدو البداء .. فهو الوسيم المثقف الحالم الذي يقدر ملذات الحياة وينهل عليها دون تردد متى رغب في ذلك .. لكن في مدينة بقيق الوضع مختلف .. حيث حمارة قيط النهار بالصيف وصبابة برد الليل بالشتاء والرمال الصفراء الممتدة على الأرض الجذباء هو كل شيء يستطيع الحصول عليه من حضان الدنيا .. كثيراً ما راودته أمان شيطانية بأن يُهدى له كأس خمر يتجرعها فتنسيه السأم الذي يعيشه .. أو مشاهدة فيلم في السينما

لسعاد حسني وهي تهول بوله تجاه أحد مظهر بينما هو جالس في الصف الخلفي يحتضن إحدى صديقاته الفاتنات ويهمس في أذنها بكلام فاحش .. أو التنزه في شارع تظلل الأشجار وتزدحم فيه النسائم المنعشة .. أو الجلوس مع أحد أصدقاء الجامعة يتجادلان في تفسيراتها لرؤى كارل ماركس وآرائه .. لكنه بالطبع لا مكان لتلك الرغبات في صحارى جزيرة العرب .. وفي يوم ما من أيام أغسطس عام ١٩٦٨، سقط باهر على قدمه والتوى كاحله في العمل، فأله ذلك بشدة مما أجبره على الذهاب إلى مستشفى الدمام المركزي .. وحينما وصل إلى هناك شغلته أوجاعه عن التركيز في اللوحات الإرشادية في المستشفى، فدخل إلى قسم النساء والولادة بدلاً من قسم العظام .. وهناك لمح أمي الطيبة الجزائرية الحسنة ذات العينين الزرقاوين والبياض الناصع والشعر الأشقر والملامح الخلابة، وهي جالسة على مكتبها تثرثر مع إحدى زميلاتها وتتبادلان الضحك .. رأى في وجهها الصورة الخيالية للمرأة، والمطبوعة في ذهنه من أشعار بوشكين أو ليرمنتوف اللذين دائماً ما كان يطرب وتسمو مشاعره المرهفة عند القراءة لهما .. لم يشعر والدي حينها بقدمه .. فدخل إلى غرفتها وسط استغراب المحيطين .. ثم قال لها بوله وهو يحدق بعينه الواسعتين في وجهها النضر: تزوجيني .. لو كان ما فعله أبي مع واحدة أخرى غير أمي لكانت عاقبتة وخيمة .. إلا أن حظه أوقعه في امرأة أكثر جنوناً وشاعرية منه فوافقته بإيلاء من رأسها، بينما كان وجهها مشدوهاً وقلبها يرقص على مرقده .. أمي هي أميمة فاخر بن رحال .. ولدت في شرشال غرب الجزائر العاصمة من أم فرنسية كانت تعمل طبيبة وصاحبة أفكار تحررية ومن أشد المناهضين للأعمال الوحشية للاستعمار الفرنسي بالجزائر .. وأب جزائري كان يعمل عازفاً للكيان .. توفيا في أحداث ثورة الجزائر، فعاشت بعدهما أمي وحيدة وبالأخص حينما هاجرت أختها الكبرى إلى فرنسا .. لذا سافرت إلى السعودية كي تجمع بعض المال ليعينها على بناء حياة جيدة في فرنسا حينما تهاجر إليها، حتى لا يقع لها مثلاً وقع لأختها الكبرى سعاد التي تعاني في حياتها هناك من صعوبة حصولها على عمل لأنها جزائرية .. تزوج والداي بعد تلك الحادثة بأسبوع

واحد، ثم مرّت سنة جئت أنا على إثرها كثرة لولعها وعشقها المتقد .. كانا بالفعل زوجين مثاليين يتعاطفان ولا يتشاحان .. حبهما الجارف لبعضهما بعضا كان يزيد بشكل جنوني كل يوم عن الذي قبله، حتى إن والدي أحياناً ما كان يتهامس لثلاثهما يذهب إلى عمله ويمكث في حضن أمي لتسقيه من عذوبتها فلا يرتوي .. خلقا حولهما عالماً خاصاً وجنة مزدانة عزلتهما عن كل ما يحيط بهما من قبح الصحراء وقسوة أهلها .. كم أتذكر تلك الليالي التي كان يحتضنها إلى جواره كي يُسمعها ما كتبه فيها من شعر .. وعندما ينتهي من إلقاء قصيدته، كانت تفاجئه بلوحة رسمتها له، فيتهيجان ويمزجان في كلمات الحب لبعضهما .. كانا يُلهمان ويُفجران مكان من الأحاسيس في قلوبهما بدلالتها وأنوثتها الفاتنة ورجولته ووسامته الساحرة .. حتى إنها كانا ينشغلان ببعضهما أكثر من اهتمامهما وتدليلهما لي .. استمرا على ذلك الحال البديع ثلاث عشرة سنة كاملة .. حتى تعرف أبي على سعد مشاري المحاسب السعودي الجديد في شركته .. وتعرفت أمي على سيلين زوجة المهندس الفرنسي فيليب صديق والدي بالعمل .. حينها انقلبت الحياة الهانئة التي عاشها إلى خلافات ومشاكل خانقة .. سعد مشاري شاب سعودي صاحب جسم هزيل ووجه بدوي جامد ولحية سوداء كثة، تعرف على والدي من خلال عمله بالشركة وأخذ يستميله إلى طريق الهداية والصلاة والتمسك بالعبادات والفروض، بعدما رأى الانفلات في تصرفات أبي عن شرع الله .. كان صوته الرخيم وأسلوبه الهادئ اللطيف يسحر والدي، ويلجم شيعيته المدفونة في أعماق نفسه من الخروج عن تابوتها، وهو الذي كان يسحل أي معترض من زملائه على مبادئ الشيوعية وفكرها .. حقيقة لا أعرف كيف تسلل سعد إلى رأس أبي وأمسك بزمام عقله، فالأن نفسه وشكلها كيفما شاء إلى ما أراد .. راح أبي يستشير في كل أموره وكل شيء عن حياته، ودائماً ما تكون مشورة سعد أوامر واجبة التنفيذ، وبعد مرور شهرين على بداية علاقتهم أَعفَى والدي لحيته وقصّر كل سراويله، وحافظ على أداء الصلوات في المسجد محاولاً بكامل عزيمته أن يصبح صورة من صديقه المتدين سعد، كي ينال رضا الله ويكفّر

عن ذنوب الماضي .. أما سيلين، تلك الفرنسية صاحبة العيون الخضراء والقوام المترهل السمين والشعر البني القصير، فأحييت على لسان أمي الفرنسية التي كادت تنساها .. وجذبتها بأحاديثها العذبة إلى فرنسا مرة أخرى بعد أن أهملتها .. كانت سيلين تتحدث عن قيم فرنسا والحريات وحقوق المرأة والفن، وغيرها من الأشياء التي دائماً ما بهرت أمي بفرنسا وكأنها كشفت بعينيها الدقيقتين عن حجاب قلب أمي، وعرفت خباياه فاستارتها وحرصتها على حياتها في بقيق .. فتشقت الأرض التي جمعت والديّ زمناً وكشفت عن هوة سحيقة راحت تسع على مر الأيام، وتلبّد بيتنا بسحب المشاكل والمشادات وخبت شذرات الهوى الذي أحاط بهما .. وحينما حل عام ١٩٨٥ بلغت حياتهما الحضيض، واستحالت العيشة بينهما .. فكل منهما قد اتخذ طريقاً وأراد من الآخر مرافقته عنوة .. فأبي يريد من أمي الانتقاب والالتزام بتعاليم الإسلام كما ينبغي، أو كما أشار عليه سعد .. وأمّي تريد من أبي تقديم استقالته من عمله كي يذهب معاً للعيش في فرنسا، والتمتع بحياتها هناك .. لذا وصل بهما الشقاق إلى الانفصال عن بعضهما بعضاً .. فمكثت أنا مع أبي، بينما هاجرت أمي وحدها إلى فرنسا .. كثيراً ما أشفقت على والدي المفوود في معشوقته التي لطالما أحبها من صميم وجدانه حينما كنت أسمعته يئن في ظلام الليالي حزناً على فراقها، ويطم الجوى بقلبه حتى يكاد يزهق روحه .. لكن سعد لم يتركه .. فداًئماً ما كان يزوره ويشد على يديه مذكراً إياه بأن تطليقه لأمي مرضاة الله، لأنها امرأة عاصية لا يجب على المؤمن التقي الندم على تركها .. بل تعدى ذلك وسعى إلى تزويج أبي .. لكن والدي رفض فكرة الزواج مرة أخرى بحجة رغبته الانشغال بطاعة الله وتربيته فقط .. وأنه لا مكان في قلبه أو حياته يتسع لامرأة جديدة .. الآن قد أذن الظهر .. أرجو أن تكمل حديثنا في الغدا يا دكتور علي .. إذا كنت بالطبع ترغب في ذلك ..

- هلا أكملناه بعد الصلاة .. فأننا لم أعرف شيئاً بعد!

- الوقت أماننا فسيح .. لا تتعجل .. هيا قم معي لنصلي جماعة ..

- حسناً .. كما تريد ..

كان حديثي الأول مع سليم ممتعاً للدرجة لم أكن أتخيلها .. فلغته الفرنسية المتقنة وإحاطته الفريدة بمفرداتها واططلاعه بفنونها جعلته أقرب في نظري إلى الأدباء والشعراء .. استطاع أن يعيدني إلى يهجة أيامي الماضية، حينما كنت أنكب على روائع الأدب الفرنسي في دراستي للماجستير والدكتوراه وأتّنعّم بها ..



لم أعلم أن الحب يوجع القلوب إلى تلك الدرجة .. ولم أكن أبجل قوته أو أؤمن بها قبل رؤيتي لحال أبي بعد تطبيقه لأمي .. فلعام كامل يا دكتور علي ظل والذي يصارع ما بداخله من وجد .. ويشتد عليه في الليالي السهد .. حتى هزل جسده وشحب وجهه وضاق حلمه فأصبح عصبي المزاج مع كل زملائه في العمل .. لا يخرج من البيت إلا للصلاة أو لمقابلة سعد مشاري والبكاء بين يديه .. حينها كرهت أمي من كل قلبي .. وغميت من داخلي أن تتعذب مثلما يُعذب أبي .. فهي تعيش في فرنسا الحياة المنعمة التي تمتتها على أنقاض الروح التي بين جنبي أبي .. آه، كم أتذكر تلك النظرة في عينيه حينما كان يضع كفيه على وجهي ويتأمل في عيني اللتين تذكرانه بعيني أمي .. فيسيل الدمع على وجهه وترتجف ربوع قلبه .. ثم يصرخ صرخة ملتاعة تهز جسمي كله وتدفعني للبكاء على حاله .. قائلاً:

- أميمة .. أميمة ..

كان لوالدي مهندس مصري صديق له اسمه حسين الخولي، أشار عليه مراراً بعد أن رأى الحال قد اشتدت عليه بالعودة إلى وطنه .. وسوف يساعده على الحصول على عمل بمصر لما له من علاقات هناك .. فتغير الأجواء التي عاش بها أبي لفترة طويلة هو ما سيخفف عليه وطأة الذكريات وعذاباتها .. وبالطبع قام والذي باستشارة سعد مشاري الذي ظل يسفّه ما يمر به أبي ويدعوه إلى اللجوء إلى الصلاة والاستغفار فهما اللذان سيخففان عنه ولا داعي للسفر وخلافه .. لكن مع إلحاح أبي في تكرار تلك الرغبة أمام سعد كأنه يستأذنه ويرجوه الموافقة، لأن سعد لمطلبه وباركه بالدعاء له

بأن يسر الله له أمره .. وكانت تلك هي الإشارة التي انتظرها والذي مدة طويلة للهروب من جتته المنكوبة، إلى حياة أخرى قد يجد فيها راحة قلبه واتزان عقله ..

وفي صيف عام ١٩٨٦ عدنا إلى القاهرة .. أو بمعنى أدق عاد أبي إليها، فأنا لم آتها من قبل حتى أعود إليها .. لأن والدي دائماً ما كانا يسافران في إجازتهما السنوية إلى الجزائر، وبالطبع كنت أذهب معها ..

وللهولمة الأولى عند خروجنا من المطار .. شعرت أن أبي قد بدأ بالفعل في انتزاع شوكة حزنه من ظهره .. فنظراته المشتاقة للشوارع والمنسابة من حنينه لأيام الماضي .. وابتسامته المتوهجة على شفثيه ونحن راكبان التاكسي ذاهبان إلى بيته في مصر الجديدة .. جعلاني أبتهج وأفشاء بعض الشيء، بأن أيام بؤسه قد ولت، وأنا مقبلان على مرحلة طيبة في حياتنا ستتشاطر أفراحها سوياً، دون النظر إلى ما وراء ظهرنا نحو ما يحزننا ..

توقفت بنا سيارة الأجرة في شارع متفرع من شارع صلاح سالم أمام أحد المباني القديمة خلف مباني عظمة تسمى عارات العبور .. فحاسب والدي السائق وأنزل الحقائق من على ظهر السيارة .. ثم رفع بصره تجاه البناية .. قائلاً بصوت دافئ عميق: - هنا يا سليم عشت أجمل أيام حياتي .. ولولا ما حدث لي قديماً ما كنت تركت منزلي هذا أبداً ..

حلنا الحقائق واتجهنا إلى الدور الأول حيث شقتنا .. وعندما فتحناها وجدنا كمية من الغبار تكفي لردم مدينة بقيق بكاملها .. وبان لنا وسط الظلام ظرف أبيض ملقى قرب عتبة الباب .. فتحه والذي ليجده رسالة من أخيه الأكبر سليمان، أرسلت قبل خمس سنوات يخبره فيها بأنه أصبح الآن جراحاً كبيراً في جراحة القلب، ويعمل في كبرى مستشفيات لوس أنجلوس .. وأنه تزوج من امرأة أمريكية اسمها سثيا، وأنجب منها ولدين سمى أحدهما بيتر تيمناً باسم والد زوجته، والثاني باهر تيمناً باسم أبي .. حينها خفض والذي الرسالة من أمام وجهه ليتذكر تلك اللحظات

الجميلة بينه وبين أخيه، وبالأخص عندما كانا يتسكعان في وسط البلد وهما يرتديان الملابس الأنيقة ليتصيدا الفاتنات، ثم يكملا سهرتهما في أحد البارات ويسكران حتى مطلع الفجر .. لكنه أفاق فجأة من تذكر ماضيها بطريقة مضطربة اغتالت تلك الابتسامة الخافتة التي حلفت بوجهه للحظات وكأن شيئاً ما قد وخزه في صدره .. فقال بصوت محتقن:

- اللعنة على أمريكا .. لقد أنست الرجل دينه، وجعلته يسمي ابنه بيتر!
فسألته ببراءة ساذجة:

- هل ستقوم بالرد عليه يا أبي؟ .. بالتأكيد يتوق عمي لمعرفة أخبارك بعد كل تلك السنين الطوال من الفراق ..
- لا .. لن أرد على ذاك السفیه ..

هكذا قالها بغیظ هادر وكراهية ملتهبة لم أتفهمها في تلك اللحظة وهو يلقي بالرسالة في سلة القمامة القريبة من باب المنزل ..

• • •

بالطبع كان يومنا الأول بالشقة مرهقاً جداً .. فطوال ذاك اليوم كنا ننظف البيت ونهدم شبّاك العنكبوت .. نزيل الأتربة المتجلطة على النوافذ والجدران، ونلقي بزجاجات البيرة الفارغة إلى الخارج والتي كان يحملها أبي خجلاً مني .. حتى الكتب الروسية التي كان يحتفظ بها في مكتبته الضخمة جمعها كلها ورمّاها في سلة المهملات دون أن تهتز في رأسه شعرة .. وسرعان ما عاد البيت إلى حلة نظيفة .. لكنها جديدة عليه بعد أن بُترت من أوصاله كثير من طقوس الماضي الشقية التي ظللت فيها نزوات أبي ورافقته زمناً ..

كانت عودة أبي إلى مصر هي خير دواء له من حب أمي والتفكير فيها .. فعاد الضحك إلى ثغره والصفاء إلى ذهنه .. لم يحاول الالتحاق بالعمل الذي وعده سابقاً

بالتوسط فيه صديقه حسين لأنه رغب بقدر كبير من أيام الخلوة حتى تتزن روحه من جديد .. وفي شهر يوليو عام ١٩٨٦ قدم والدي أوراق التحاق بمدرسة سانت فاتيا بالعباسية على الرغم من استيائه الأقرب للبغض من اسم تلك المدرسة ونمط تعليمها المختلط .. إلا أنه لم يجد أمامه سيلاً آخر وذلك بسبب قرب المدرسة من البيت .. بالإضافة إلى أنها مدرسة للغات .. سعرها جيد .. وتعليمها كفء إلى حد معقول بالمقارنة بمدارس كثيرة في مصر ..

• • •

في تلك الفترة وعلى جانب بعيد من أرض مصر اشتد العدوان السوفيتي على أفغانستان بشكل لم يسبقه في أعوامه الستة السابقة .. حيث كان تدافع المجاهدين العرب بأموالهم وأنفسهم على أفغانستان عاملاً مؤثراً في تكبيد السوفييت المزيد من الخسائر، مما أشعل غضب الدب الروسي ودفعه للانتقام بشكل بشع .. فانبرت معظم منابر مصر للدعاء المستغيث لإخواننا المسلمين في أفغانستان والدعوة لمساندتهم بالمال والسلاح والأنفس ..

في الجمعة الأولى من شهر أغسطس عام ١٩٨٦، ذهبت أنا والدي كالعادة مبكراً لصلاة الجمعة في المسجد المجاور للبيت .. وبعد انتهاء كل منا من قراءة ما تيسر له من القرآن الكريم، صعد المنبر شاب أسمر له لحية خفيفة ويرتدي ثوباً أبيض يكاد يصل إلى ثلثي ساقيه .. فألقى السلام على المصلين وخطب بعد الأذان خطبة ارتجفت لها أركان قلوبنا مثلما اهتز المنبر تحت قدميه .. واقترحت كلماته الحماسية تبلد أحاسيسنا، واصطفت تلك مدارات عقولنا .. فأجهشت الوجوه بالبكاء، وتصاعدت الأنات بالأجواء .. حتى بلغ بنا الغضب عظمتة والسخط قوته على السوفييت ومن والاهم .. وبالأخص عندما كان يعلو بصوته الصاخب المشروخ إلى حده الأقصى قائلاً:

- وإسلاماه .. أين رجال الإسلام وحماة الدم؟!

كانت لتلك الخطبة الأثر الساحق في نفس أبي .. فحزبه ما بالأفغان من حال واهتم لأمرهم .. واعتدت بعدها على رؤيته دائماً مقطباً مهموماً .. وبالأخص بعد نشرات الأخبار التي كان يشاهد فيها جثث الأطفال والعجائز ممزقة بوحشية وغلظة، فيشتد كدره وقامة نفسه .. وهكذا ناور الحزن حول فؤاد أبي فاستطاع دغره مرة أخرى بحجة أخرى بعد ما تناسى فراق أمي وبُعداها عنه ..

وفي يوم من الأيام اللاحقة لتلك الخطبة، اتصل أبي على سعد مشاري صديقه السعودي الذي اشتاق لأنسه وطلاوة حديثه .. فأخبره بما يزعجه ويؤرق مضجعه من مشاهد المذابح التي يتعرض لها المسلمون في أفغانستان، لعل سعدا بحكمته الموثوق فيها يخبره بما يجب فعله ..

- لقد عزمت يا باهر على الجهاد في أفغانستان .. وسأسافر بعد أسبوعين ريثما أنتهي من بعض الأمور هنا ..

هكذا أطلقها سعد مدوية في أذن أبي .. فألجمه الذهول قليلاً قبل أن يرد عليه والذي بلهفة:

- كيف يا سعد .. كيف!؟

- إنه أمر ليس بالهين ويطول شرحه .. آه، لكم أتمنى يا باهر أن تكون رفيقي في الجهاد .. فتتوج صداقتنا بشهادة تدخلنا الجنة ..

بعد تلك المكالمات ظل أبي صامتاً شاردًا لمدة أسبوع .. إذا أدخل لقمة في فمه لا يمضغها لدقائق عدة حتى تذوب وتهوي إلى داخل معدته .. وإذا همَّ بالحديث معي لا ينطق سوى أول حرفين من اسمي ثم يلوذ بالسكوت مرة أخرى!

وفي صبيحة الثالث من سبتمبر عام ١٩٨٦ استيقظت من نومي ونهضت من فراشي .. توضأت لأصلي الضحى ثم أنزل بعدها لشراء الفطور .. لم يريني هدوء البيت فقد تعودته منذ مكالمات سعد مع أبي، لذا قمت بفعل ما تعودت فعله كل صباح

بالترتيب .. وعند ارتدائي لنعلي وجدت بجانب الباب رسالة ملقاة على الأرض، اعتقدت في لحظتها أنها من عمي المقيم في أمريكا .. لكنني عندما التقطتها وجدت أنها دون عنوان من الخارج أو أي طابع بريدي ملصق بأحد أركانها الأربعة .. ففتحتها وقرأت ما فيها:

بني الحبيب وفلذة كبدي .. سليم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

لعلك عند قراءتك لما هو مكتوب في تلك الرسالة، قد استيقظت من نومك وأدبت فرضك تجاه ربك .. فإن لم تكن قد فعلت، اذهب وصلِّ ثم عد لقراءة ما دونته .. ففرض الله لا يؤخر ولا يهمل ..

بني الحبيب .. لقد وُضعت موضع اختبارات الأنبياء من عظم الابتلاء .. فما أجدني اخترت إلا ما اختاروه .. وما عزمت إلا على ما فعلوه .. فلا تلمني كما لم يلم نبي الله إسماعيل والده الخليل إبراهيم حينما تركه رضيعاً مع أمه هاجر في وادٍ غير ذي زرع حيناً من الزمان مليباً أمر ربه ..

بني الحبيب .. لقد نويت الجهاد في أفغانستان إلى جانب أخي سعد مشاري وغيره من الإخوة الأتقياء، الذين انصرفوا عن ملذات الدنيا وشهواتها ولم يرضوا بالعودة في ديارهم ينتظرون نجدهم كالبعير، إنما اختاروا الفردوس الأعلى وشدوا الرحال لها ..

بني الحبيب .. أشهد الله أن فراقك أشد وطأة على نفسي من خروج الروح من جسدي .. وتركك لك في هذه السن وحيداً هو ما يوغر الألم في صدري .. لكنني استخرت تاريخ السلف فوجدتهم فعلوا مثلي وأكثر .. فها هو الصديق أبو بكر حينما أقبلت غزوة بدر لم يخلف في أهله لا نفسه ولا ماله وترك الدنيا كلها من أجل الظفر بالمنزلة العليا عند الرفيق الأعلى .. وها هو عمر يفعل مثله وعثمان وعلي عليهم رضوان الله جميعاً ..

أنت الآن يا سليم في السابعة عشر من عمرك .. أي أصغر بعام من الصحابي
الجليل أسامة بن زيد حينما تولى قيادة جيوش المسلمين .. فأضحى بذلك أصغر قائد
جيش في تاريخ الإسلام إن لم يكن بالبشرية على الإطلاق .. لذا يا ولدي لا تحب
رجائي فيك ولا تحجلني بأفعالك في الآخرة إذا ما قبلني الله شهيداً بين عباده
وُسُفِّعت فيك ..

بني الحبيب إني موصيك فاستوص .. اعلم أن أعداءك في الدنيا ثلاث .. شهوة
فرجك ورغبات قلبك وعدو دينك .. فلا تُفَضِّضْ لما بين فخذيك إلا في الحلال ..
وروض قلبك على حب ما أحبه الله وكره ما كرهه .. أما عدو دينك فاحذر منه ..
فقد قال المولى عز وجل فيهم (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ وَبِيعَهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلْ
إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) فلا تواهم وعادهم دائماً في السلم والحرب .. واعلم أن صلاحك
بالدنيا في ثلاث .. زوجة مؤمنة وصديق تقي وعلم نافع .. فالزوجة المؤمنة تعينك
على مرضات ربك وتكون سيفاً مسلطاً على اعوجاجك .. والصاحب التقي هو
كبايع المسك كما قال عنه الرسول الكريم فلا يصيبك منه سوى كل خير .. أما العلم
النافع فهو علم شرعي وعلم دنيوي .. فلا أنفع لك من كلام الله وشرعه كما أنه لا
أنفع لأمتنا غير رجل عالم تقي يجمع في جوفه علوم الدنيا بعد أن استأثر بها الكفار
وتركها المسلمون لانصرافهم إلى الملذات الفانية .. فاجمع بُني بين حسني العلوم،
علم الدين وعلم الدنيا .. فأصحاب ذلك هم أعظم المراتب عند الله .. لذا أدعوك
بعد الانتهاء من دراستك في المدرسة بالسفر إلى أمك كي تكمل دراستك عندها، ولا
تعد من هناك إلا وأنت حامل لأعلى الشهادات وأرفعها مقاماً ..

بني الحبيب .. لقد وجدت فيك طيلة عمري الوجه الوسيم الذي أخشى عليك
منه .. وفي عقلك ذكاء عظيم أسألك استغلاله وتسخيره لطاعة الله .. واعلم بني أن
العقل السليم في الجسم السليم .. فألزم الرياضة وحافظ على بدنك من ترهلات

الكسل وهزال الجوع حتى إذا ما حانت ساعتك للجهاد في سبيل الله، وجدت جسداً قادراً على النيل من أعداء دينك ..

بني الحبيب .. أوصيك بالحفاظ على فروضك والإكثار من نوافلك .. ولا تدع في قلبك ثغرة ينفذ منها الشيطان فيعبث به ويتلاعب بك .. وكن دائماً يقظاً .. فحيل الشيطان عديدة ودرويه متشابكة .. ولا تقنت من رحمة ربك أبداً ولا تتذمر من ابتلائه ..

بقي لي أن أخبرك بأننا قد لا نلتقي في الدنيا مرة أخرى .. وقد لا نلتقي في الآخرة إذا ما حاد أحدنا عن دروب الطاعة .. لذا احفظ ما كتبت لك واعمل به .. لعلنا نجتمع في الآخرة في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

ملاحظة:

ستجد في درج المكتبة الكبير مبلغ أربعة آلاف جنيه، أظن أنها ستكفيك حتى ستك الدراسة الأخيرة .. هذا غير عشرة آلاف جنيه أودعتها في حساب خاص باسمك في بنك فيصل الإسلامي لحالة الطوارئ .. وهذان المبلغان هما كل ما أملكه، بعد أن خلعت عن نفسي رداء الدنيا وابتعت الآخرة .. فأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه .. وهو المستعان على قضاء الحوائج ..

والدك الذي يحبك أكثر من نفسه / باهر الشاذلي ...

• • •

وها هو باهر الشاذلي الذي كان قبل بضع سنوات يتعبد بآراء فريدريك إنجلز .. ويتهجد بأفكار فلاديمير لينين .. ويروح عن نفسه بكتابات نيكولاى بوخارين .. انقلب عليهم كلهم وذهب لقتالهم وهدر دمائهم .. تركني وحيداً لا أعرف ما أفعل دونه .. حتى إنه لم يمنحني عناق وداع يحفظ به ما بيننا في أحضان الذكريات من تصاريف الزمان ..

شعرت بعد قراءتي لتلك الرسالة بدوار مربك .. وراح ذهني يتخيل ردة فعلي عند سماع خبر موته .. ويردد أسئلة خفيفة عما سأفعله من دونه .. أو ما هو مصيري وأنا في تلك السن لا حول لي ولا قوة .. مكثت على تلك الحال جامداً ساعات وساعات أعيد قراءة ما كُتِب في الرسالة، أحاول عبثاً إقناع نفسي أنه كابوس وسيتهي .. أو أن أبي سيعدل عما نواه ويعود إليّ ليحتضنني معتذراً عن فراقه المفاجئ لي ..

لازمت الشقة أسبوعاً بأكمله لا أخرج أبداً حتى إذا ما عاد والدي يجديني في انتظاره مرحباً لا لائماً .. أو حتى إذا ما اتصل بي ليُسمعنني صوته ويطمئن عليّ أكون متواجداً .. لكنه لم يفعل .. حينها أدركت أنه ذهب ولن يعود .. وأنه ماضٍ إلى ما عزم عليه ..

لم أحقد على والدي أو أسخط عليه .. لم ألمه كما طلب مني أو أغضب منه .. بل على التقيض من ذلك تمنيت أن ينال ما يريد ويحقق ما يبتغي .. وصبيت جام كراهيته على أمي التي لولا تركها له لما حدث كل ذلك .. وقبل يوم من بدء الدراسة لعامي الأخير في الثانوية العامة .. أخرجت الرسالة من جيبِي وقرأتها بتأنٍ لأستخلص منها الدستور الذي سألتزم به وأتعهد بتنفيذه إرضاءً لوالدي .. وأخذت أردد أمام نفسي:

- نعم يا أبي .. سألتزم بفروض ديني كما رغبت .. وسأكون عالماً كبيراً كما تمنيت .. لن أهادن كافراً قط .. ولن أصادق فاسقاً قط .. وسأحارب أهل المعصية دائماً .. وسأحافظ على بدني قوياً طاهراً حتى إذا ما حانت ساعتِي أبلّيت في أعداء الله البلاء الحسن .. وسأكون سيفاً للإسلام لا سيفاً عليه ..

• • •

في يومي المدرسي الأول ارتديت بنطالي الكحلي وقميصي الأزرق الذي كان مطبوعاً على جيبه العلوي اسم مدرستي وشعارها، مما جعلني أتقزز منه كما تقزز أبي .. وعند دخولي الفصل لاحظت نظرات الفتيات تجاهي بوله وإعجابهن الفائق

وتبسمهن اللات في وجهي .. حينها أدركت أني أحمل كتراً لم أكن أدرك قيمته في السابق بسبب عيشي في بقيق طيلة حياتي حيث لا يوجد اختلاط في مدارسها ولا مجال لخليلة تعرفها .. لكنني سرعان ما تذكرت ما أوصاني به أبي، فغضضت بصري عنهن واتجهت إلى مقعدي كي أنهل من العلم الذي شدد عليّ والذي فيه..

تقرب مني فتیان الفصل وأقبلوا على صداقتي كي يناهم بعض مما أناله من نظرات تحمل دعوات خفية لتبادل الحب من أجل فتيات المدرسة وقبيحاتها .. وحاموا حولي يوسوسون بالشرور كما يفعل الأشقياء حول رؤوس الصالحين، وبالأخص عندما علموا بأنني أعيش في شقتي وحدي .. لكنني كنت متشبهاً بعهدي مع أبي كرسوخ الطود في باطن الأرض ..

حقيقة لم تكن تشغل بالي تلك الأشياء ولا تستثيرني، فقد غدوت مشغولاً بدروسي وما كنت أزيد على نفسي من مجهود .. حيث كنت أدرس الفرنسية بتعمق وأحفظ في اليوم الواحد أكثر من أربعين كلمة، وبالأخص في مجال الكيمياء الذي أحبيته منذ صغري لسببين، أولهما ميولي إلى ذاك المجال وسهولة فهمه بالنسبة لي .. وثانيهما هو ما كانت تحكيه بتفاخر سيلين تلك اللعينة التي خربت عقل أُمي عن عالم الكيمياء الفرنسي لويس باستور الذي اكتشف الجراثيم وغيّر نظرة العالم نحو الأمراض وفهمها والتعامل معها .. حيث اعتقد العلماء قديماً أن الأمراض تتولد من جسم المريض ذاتياً أو تسببها كائنات دقيقة ما، لكنهم لم يستطيعوا التأكد من وجودها حتى جاء لويس باستور فقلّب تلك القاعدة باكتشافاته التي لم تنحصر في الجراثيم الضارة فقط، بل والنافع منها أيضاً ليستخدمه في صناعات مفيدة مثل صنع الجبن .. أما أكثر ما أعجبني فيه فهو أنه لم يكن ملحداً مثل معظم علماء العصر الحالي الذين يفتنون بعبقريتهم فينكرون وجود إله للكون أو قدر .. بل كان رجلاً مؤمناً يذهب للكنيسة في كل صباح حتى تصفو روحه لمواجهة أعباء يومه .. لذا وضعت ذاك الرجل كمثلي العلمي الأعلى الذي يجب أن أحذو حذوه .. أو أنخطئه لأكون أفضل منه ..

وفي السابع عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٨٦، قررت الاتصال بوالدي التي لم أسمع صوتها أو أرّ وجهها منذ طلاقها .. كأنها قد تخلّصت من عبء ثقيل عليها حينما تركتنا .. عرفت رقم هاتفها في باريس من سيلين .. فهي لم تعطني الرقم قبل سفرها وإنما أملتة لرفيقتها التي فيما بدا أحببتها أكثر مني .. على كل حال، قمت بكبت مشاعري ناحيتها وفضلت مصلحتي على عتابها عند اتصالي بها .. ومع كل رنة من رنات الهاتف الطويلة كنت أتخيل ردة فعلها عندما تسمع صوتي .. هل ستجيبني بشغف أم بفتور .. هل ستهال عليّ بكلمات الاشتياق أم تحدّثني كأن ما بينا هو ماضٍ فاني .. وبعد طول انتظار أجابت على الهاتف بصوت خامل وكأنها كانت تغط في نوم عميق قائلة بالفرنسية:

- بنجور .. وي ..

- أنا سليم يا أماه ..

حينما سمعت صوتي أصابتها للجلة في حلقها .. واضطراب في صوتها .. تسألني بفرح مبالغ:

- سليم .. ابني؟!

في تلك اللحظة استحضرت نفسي ما فعلته في أبي وتركها لي وله دون أي شفقة ولا تردد .. لكنني كتمت ذلك في قلبي وأجبتها باتزان:

- نعم ..

- حبيبي، كيف حالك .. كيف هي صحتك .. طمّنتي عليك؟

- أنا بخير .. لقد تركنا السعودية منذ بضعة شهور .. وأنا الآن أدرس في مصر ..

- مصر؟!

- نعم ..

- وكيف حال مدرستك .. إياك أن تخبرني بأنك تراجعت عن المركز الأول الذي عهدتك فيه دائماً ..
- الأمور تسير بشكل طيب ..
- ثم أردفت بالبوح لها عن سر اتصالي كي أنهي تلك المكالمة الثقيلة على قلبي في أسرع وقت قائلاً:
- كنت أريد منك أن تقدمي لي في أي كلية علوم بأي جامعة عندك بفرنسا بعد انتهائي من الثانوية العامة ..
- أها .. أراك مازلت معجباً بلويس باستور كما كنت!
- نعم .. وأريد منك مساعدتي كي أصبح مثله ..
- ولم لا تنضم لجامعة لويس باستور نفسها؟! نالتي دهشة مبهجة .. فأجبته بشغف:
- وهل توجد جامعة باسمه؟! نعم .. في ستراسبورج .. وبها كلية متخصصة في الكيمياء أيضاً .. المجال الذي تحبه ..
- حقاً؟! .. يا الله كم هذا رائع ..
- انتهت لإفراطي في الفرحه .. فكبحت جراح نفسي كي لا أشعرها بأن ما تفعله ذو قيمة أو سينسني إهمالها لي تلك الفترة الماضية .. فاستطردت قائلاً بهدوء:
- إذن عليّ الاجتهاد في دراستي هنا .. وعليك ترتيب أمر دخولي إلى جامعة لويس باستور هناك ..
- حسناً يا حبيبي .. يا الله كم أنا سعيدة باتصالك .. أخبرني عن حالك وحال أبيك ..

فضلت إخفاء سفر أبي وما نوى فعله عنها .. كي لا تصيبه بكلمة حمقاء تدفعني إلى صب غضبي عليها، فأفسد مستقبل بقطع علاقتي بها .. أو كي لا تدغدغها غريزة الأمومة التي جفت في صدرها وتأتي لتعيش معي في مصر، فتفسد عليّ حياتي بالبقاء مع من أبغض .. وبعد طول صمت أجبتها مُطمئناً:

- أنا بخير .. والدي أيضاً بخير .. إنه في المطبخ يعد لنا العشاء ..

- هل مازال يجب أكل الشكشوكة في الليل؟

هكذا سألتني بحنين عميق، شعرت فيه بلمسة حب وعشق لم يستطع ما حدث بينهما إزالته .. وقبل أن تترسل في الحديث وتكتشف ما لا أريد لها معرفته، أخبرتها بأن هناك أحداً ما عند باب الشقة ويجب عليّ الذهاب .. وحينما هممت بغلق سماعة الهاتف سمعتها تسألني عن رقم هاتفنا في مصر كي تتصل للاطمئنان عليّ بين الحين والآخر .. لكنني ادعيت أنني لم أسمع كلامها وأغلقت السماعة بسرعة ..

• • •

صارت حياتي الجديدة مألوفة بالنسبة لي، واعتدت نمطها الهادئ .. فتلاشت من رأسي المخاوف وأضحى ما هولته على نفسي في البداية هيناً .. كان كل شيء يسير بانتظام أحببته .. ففي الصباح أذهب إلى المدرسة وعندما أعود أنام ساعة وأستذكر دروسي ساعتين ثم أنكب على حفظ المفردات الفرنسية ساعتين آخرين .. وفي الليل أذهب إلى صالة رفع الأثقال التي التحقت بها كي يصبح بدني قوياً .. فأمارس فيها التمارين القاسية ساعة، وأعود بعدها إلى فراشي متعباً منهكاً كي أنام ..

سار كل شيء كما رغبت وخططت .. إلا شيئاً واحداً فقط لم أستطع السيطرة عليه كما ينبغي .. وسامتي التي كانت تدفع الفتيات إلى محاولة التقرب مني بجميع السبل والأشكال والطرق، الذكية تارة والسمجة تارة أخرى .. فمثلاً تجد إحداهن تأتيني لتعرض عليّ تصوير كشكول دروسها الخصوصية في أي مادة أشاء .. وأخرى تريد

مني مرافقتها إلى منزلها القريب بحجة حمايتها من معاكسات الشباب .. وغيرها
تسألني بعض المال سلفاً كي تتخذ ذلك ذريعة لمحدثتي يوماً بعد آخر ..

كل ذلك كنت أتعامل معه بصرامة .. وأحياناً بغلظة، كي يتعدن عن طريقي ..
وبالفعل نجحت في ذلك، ويشت كل بنات الفصل مني إلا اثنتان، هما أمينة عبد
الحليم وكريستين وصفي .. الفتاتان الأجل في المدرسة كلها، وليس في فصلي فقط،
كما أنها يتيمين لعائلتين ثريتين .. فأمينة هي ابنة عبد الحليم نور صاحب مصانع
البلاستيك الشهير .. والأخرى ابنة زكريا وصفي أكبر تاجر مصوغات في القاهرة
كلها ..

هاتان الفتاتان كانتا لحوجتين ولجوجتين بشكل لا يوصف .. حتى إني كدت
أضربهما كي أتخلص من مطاردتهما الدائمة لي .. فهما لا يأسان ولا يملان من صدي
لهما .. والأغرب أنها لم تكتفيا بمحاولاتهما الفاشلة للتقرب مني، بل كانتا تدفعان إليّ
بعض فتيان الفصل كي يقنعوني بصدق حبهما لي، ونيتهما المخلصة في العيش بقربي ..

في بادئ الأمر استخففت بتلك التصرفات المراهقة التافهة .. لكن مع مرور
الوقت أصبح الوضع لا يطاق .. وفي يوم من أيام فبراير عام ١٩٨٧، ومع بدء
الفصل الدراسي الثاني.. عدت إلى المدرسة بعد نصف ساعة من انتهاء الدوام
المدرسي بسبب نسياني لكتاب اللغة الإنجليزية في الفصل .. فلمحت كريستين واقفة
في ساحة المدرسة تنتظر سائق والدها .. فأكملت طريقي متحاشياً إياها، لكنها حينما
رأنتني لحقتني إلى الفصل .. واستغلت عدم وجود أحد غيرنا فأصمقت الباب وراءها
واقتربت مني ترمقني بعين أضناها الحب، لكنني تجاهلتها بلامبالاة التي اعتدت
معاملتها بها هي وأمينة، فتجاوزتها لأفتح باب الفصل وأخرج منه لكنها جذبتني من
ذراعي قائلة بعصبية وانفعال:

- لو خرجت من الفصل الآن دون أن تكلمني سأصرخ عالياً وأقول إنك
حاولت اغتصابي..

هشم رأسي الذهول من كلامها .. وارتعبت من جديتها .. فتلعثم لساني بسؤالها خائفاً:

- ماذا تريدين؟!

- ماذا أريد؟! .. ألا تعرف ماذا أريد؟! .. حرام عليك .. ألا تحس بما في قلبي .. ألم يبلغوك بما أكنه لك من عشق جارف .. ألا ترى حالي كلما رأيته واقتربت منك؟! هذا ما قالته وهي تتشجج في كلامها .. ويتطاير الدمع من عينيها بحركات رأسها المختلة .. لكنني كنت جامداً في مكاني أخشى الفرار من أمامها فتنفذ تهديدها .. كما كنت أخشى ما ستحملة لحظاتي القادمة معها .. فاقتربت مني وهي تتحدث بطريقة مجنونة ..

- اليوم سأتيك إلى بيتك .. وإن لم تفتح لي الباب .. سأقول غداً إنك حاولت نزع ملابسني واغتصابي .. ها، ما قولك؟

شردت مذهولاً بضع ثوانٍ .. ثم أفلُتُ معصمي من يدها بحركة يائسة دلت على إذعاني مرغماً بالموافقة على طلبها، لثلا تتسبب في أي مشاكل تدمرها مستقبلتي .. ففي بلادنا المرأة دائماً على حق وأي كلام قد أقوله لن يبرأني إذا ما اتهمتني زوراً بمحاولة اغتصابها .. وعندما عدت إلى البيت أخذت أفكر منهمكاً فيما يجب عليّ فعله .. فأحضرت الرسالة التي كتبها لي أبي قبل سفره لعلني أجدها فيها حلاً لمشكلتي .. وفي أثناء قراءتي المتكررة لها نقر في رأسي الجزء الخاص من كلامه حول عدو ديني .. فقلت ساخطاً في نفسي: صدقت يا أبي .. فهذا كريسطين وصفي .. الفتاة المسيحية الكافرة تحاول بكل خبثها إفساد حياة شاب مسلم تقي بالاعيةها القذرة، التي دفعها إليها حقدها على ديننا .. حسناً يا كريسطين .. تريدني تدميري .. سنرى .. لكن لا تلومي إلا نفسك بعدما أنتهي منك ..

وجاء الليل بما يحمله من مفاجآت ليُقرع باب الشقة مرتين متتاليتين في الساعة

السابعة .. فاتجهت ناحيته وأنا مدرك تماماً ما أنا مقدم عليه، وخططت له جيداً في بواطن عقلي .. فتحت الباب ورأيت كريستين كأنها قد أينعت بين ساعة وضحاها وأصبحت شابة لا يتقصها المزيد من الأنوثة .. فبدت في فستانها القصير الذي كشف عن سر مفاتها وشعرها البني المموج وشفاها المكنتزة كأنها إحدى فئات السينما المصرية .. لم تدعني أتأمل في منظرها سوى بضع لحظات قبل أن تنقض عليّ وتحضني بذراعيها البيضاء وهي تهمس ملتصقة بصدري بصوت ملتهب خافت:

- أحبك يا سليم .. أحبك أكثر من أي شيء تتصوره ..

انتبهت للباب الذي تركته مفتوحاً فسارعت بغلقه قبل أن يلاحظ أحد من الجيران ما يحدث .. ثم عدت ناحيتها عازماً على بدء ما نويت فعله بها .. فنظرت لها بعين تجمع بين اللوم والساح ..

- وهل من يجب أحد يهدده بالفضيحة وتدمير مستقبله؟!

فأمسكتني من قبضتي بيديها الصغيرتين وجذبتني نحو الأريكة .. أجلسني وجلست بجانبني ثانية ساقها اليمنى تحتها والساق الأخرى أحاطت بها خصري .. ثم وضعت كفها على خدي وهي ترميني بنظرات الوله قائلة بنبرة مخبولة:

- أنا أحبك يا سليم أكثر مما أحبت أي فتاة بالعالم أي رجل .. لن أدعك تفلت مني أبداً ولن أتركك ترتبط بغيري .. وإذا ما حاولت هجري سوف أقتلك وأقتل نفسي ..

حقيقة لم أنصت لباقي كلامها فقد انشغلت بساقها التي أحاطتني ويدها التي تلامسني .. فتسللت إلى قلبي شهوة بدت في مهدها عاتية .. لذا دفعته عني بحركة مفاجئة ونهضت من الأريكة قائلاً بعصية:

- أنت مسيحية وأنا مسلم .. لن يرضى أهلك بأن ترتبطي بي كما لن يرضى أهلي ..

- أنا مستعدة للهرب معك إلى أي مكان تريد .. لقد عرفت من باسل أنك تنوي الذهاب إلى فرنسا لإكمال دراستك .. سأسافر معك وأعيش خادمة لك .. لكن أرجوك لا تتركني .. فأنا أحبك ..

عادت إلى عينيها نفس دموع الظهيرة وهي تعتصرني وتدفس وجهها في حضني .. بينما رحت أستعيز بالله من الشيطان الرجيم .. وأركز ذهني على مفهوم واحد وهو أن ما بيني وبينها حرب لا حب .. عدااء لا إعجاب .. وفجأة تفتق ذهني عن الاستفادة من معركتي هذه بأول غنيمة فقلت لها:

- إن أمانة عبد الحليم تضايقني دائماً وأنا لا أحبها ولا أميل ناحيتها .. فهلا أبعدتها عني ..

فأجابني بوجه صارم ممتقع:

- تلك العاهرة اللعينة سأقطع عنقها إذا اقتربت منك مرة أخرى ..

• • •

لا أنكر أنني استفدت جداً من علاقتي بكريستين .. فقد أرهبت فتيات الفصل بمكرها وقوتها لتحفظني من مضايقاتهن، وتلك هي أهم منفعة جاءتني من ورائها .. كما كانت تجلب لي نماذج امتحانات السنين الماضية للثانوية العامة كي أتدرب عليها .. بالإضافة إلى دفاتر دروسها الخصوصية في كل المواد .. وفي الساعة الثامنة أو التاسعة من كل ليلة كانت تأتيني بعد انتهائها من درسها الخصوصي الذي تحضره في بيت إحدى صديقاتها المجاور لي .. فتمكث عندي ساعة أو أقل، تنظف فيها البيت وتطبخ لي الطعام وتغسل ملابسي كإثبات منها على حبها لي، أو على قدرتها على تحمل شتوني بعد الارتباط بي ..

لكنني على الرغم من كل ذلك أمعنت في إذلالها .. وتحقير شأنها بعصية مفتعلة أو زعيق عالٍ .. ثم ألحق ذلك بوضع كلمات ودود تنسيها ما فعلته بها، فتعود راکعة تحت

قدمي أكثر من ذي قبل.. أحياناً كنت أتمادى في إذلالها فأمرها بتغطية الصليب الذي على يدها بأسورة ما .. أو لا تدخل بيتي وهي مرتدية لقلادة الصليب على عنقها .. فتبتلع ذلك بكل خنوع انتظاراً مني لتلك الكلمات اللطيفة التي أقولها لها من وراء قلبي بعد نوبات غضبي المصطنعة والتي فطنت بحدسها الأثوي أنني أرددها دون إحساس، لكنها كانت تصبر على ذلك لعلني أحبها يوماً ما أو على الأقل أحترمها ..

وفي يوم جمعة ما من شهر إبريل عام ١٩٨٧ .. جاءت كريستين كالعادة إلى شقتي كي تتمكث عندي بضع سويعات بعدما تقنع والدتها بجدولها الزمني المزدحم من الدروس الخصوصية .. وكالعادة تركت لها واجبا منزلياً يقصم ظهرها من الغسيل والكي والتنظيف .. لكنها في ذلك اليوم انتهت من تلك المشاغل في ساعة واحدة، ثم دخلت الحمام لتستحم وخرجت منه كوردة بيضاء تفتحت في صدر الصحراء، يكسوها بريقٌ خلّابٌ ألهب شهوتي ..

انجهت ناحيتي بدلال وأنا جالس على الأريكة .. فلم أستطع خفض ناظري عنها وهي مرتدية لثوب النوم الشفاف اللاصق بجسدها بفعل قطرات الماء التي لم تشفها جيداً .. ثم جلست على حجري، وألصقت نهديا الطرين بوجهي .. وقالت لي بعدوية ورقة:

- كلها أربعة أشهر ونغادر تلك البلد إلى عشنا الذهبي في فرنسا ..

تضرج وجهي بالدماء واحمرت أذناي .. حاولت الاستغاثة في أعماقي من تلك القيود الشيطانية المكبلة لجسدي بإحكام .. لكنها لم تدع لي فرصة للخلاص منها .. فدفعته عني إلى الأريكة وانتفضت قائماً .. أقول منتههاً:

- نعم .. نعم .. إن شاء الله ..

- هل أنت شاذ كما يقولون عنك في المدرسة؟!

هكذا سألتني في حدة وغیظ وهي ملقاة على الأريكة لم تعتدل بعد في جلستها ..

فنانني الاستغراب بضع ثواني مما قالته .. ثم انطلقت من جوفي ضحكة ساخرة عالية وأنا أنظر إلى وجهها الحائق ..

- حقاً؟! .. هل هذا ما يقولونه عني في المدرسة؟!

- نعم .. وفي الحقيقة لقد بدأت أشك أيضاً .. فكلما جئت إلى بيتك أراك تلقي عليّ شئون المنزل ولا تلتفت إليّ أبداً .. وإذا اقتربت منك تدفعني عنك كأنك تتخلص من دئب يحاول نهشك .. هل أنت شاذ؟ .. أم أنك لا تجدني جميلة بالدرجة التي تستثير ما خلقه الله بداخلك كرجل ..

سكت لبرهة كي أفكر في إجابة محايدة، تنفي عني تلك التهمة السيئة ولا تحقق لكريستين أيضاً ما تبتغيه مني .. فأجبتها قائلاً:

أنت جميلة الجميلات .. ولست جميلة فقط .. لكنني لا أرغب في انتهاك عذريتك حباً لك واحتراماً لطهرتك في قلبي .. فأنا أريد الحفاظ عليك حتى أتزوجك في فرنسا .. فإذا ما مت قبل ذلك تستطيعين إكمال حياتك بعدي ولا تعيشين باقي عمرك ملثمة بالعار ..

تفتحت في وجهها بسمة هائلة .. وكاد قلبها ينخلع من صدرها اضطراباً من فرط النشوة التي شعرت بها من كلامي .. فوثبت عليّ وأحاطت عنقي بذراعيها، وراحت تمطرني بالقبلات على وجهي .. تردد بوله: (بعد الشر عليك يا حبيبي .. أنا كلي لك) حتى أيقظت شهوتي مرة أخرى، فأنزلتها بحنو من على جسدي .. وقلت لها لائماً:

- ألم أقل لك إنني أريد الحفاظ عليك .. لم تدفعيني لعكس ما أريده لك؟!

- أنا آسفة يا حبيبي .. آسفة .. أعدك بأنني لن أفعل ذلك مرة أخرى ..

وهكذا تغلبت على شيطاني في معركة لم أملك فيها أي سلاح غير وصايا والدي .. فأدركت بداخلي ميزة أخرى غير سامتي، ألا وهي قدرتي على التحكم في نفسي .. والتحكم في النساء كما أريد ..

وبينما نحن كذلك، قرع باب الشقة شخص ما .. فأشرت لكريستين أن تدخل أية غرفة وتغلق بابها عليها .. ثم اتجهت إلى الباب كي أفتحه وأرى من خلفه .. فوجدت كهلاً ذا وجه حنطي سمين بعض الشيء، تثبت على جانبي وجهه لحية مبعثرة .. فبرقت عيناها ودبت لهفة عارمة في جسدي استشعاراً مني بأن ذاك الرجل يحمل معه ما أنتظره ..

- هل هذا بيت الأستاذ سليم باهر الشاذلي؟

- نعم .. وأنا هو سليم باهر الشاذلي ..

تلقت حوله متوجساً ثم أخبرني هامساً:

- أنا أحمل رسالة من والدك .. فهل تسمح لي بالدخول؟

تناسيت تماماً وجود كريستين بالغرفة .. وأدخلت الرجل إلى البيت وأنا مضطرب ومتلهف لما يحمله من أخبار .. أكاد أحلق حوله قافزاً بفرح طفولي وهو يقول لي بصوت رزين:

- لقد وصلت رسالة من والدك إلى الإخوة في مصر .. وهي مرسلة إليك ..

ثم أخرج ظرفاً بنياً باهتاً من جيبه وقال لي:

- هذه هي الرسالة .. اسمح لي بالذهاب الآن .. فأمامي سفر إلى عدة مدن أسلم أهلها الرسائل مثلك ..

فاستوقفته قائلاً:

- إن الرسالة تبدو قديمة ومتهاكة ..

- بالطبع هي قديمة .. فهل تعتقد أن وصول الرسائل من أفغانستان إلى مصر هو أمر هين؟! .. إنها تخرج من أفغانستان إلى باكستان .. ثم تذهب إلى السعودية .. وهناك يتم فرز رسائل المجاهدين كل حسب دولته وبعدها ترسل إلينا مشفرة ولا

يستطيع أحد فك تلك الشفرة إلا اثنان من الإخوة في الجماعة .. وكل هذا يا ولدي يأخذ وقتاً طويلاً ومجهود منهمك ..

- أخبرني كيف حال والدي .. هل هو بخير؟

في الحقيقة أنا لم أر والدك من قبل .. لكن إن شاء الله سيكون بخير .. فلا تحمل هماً .. الآن اعذرني فليس لدي وقت .. لا بد أن أمضي الآن حتى ألحق بالقطار ..

ثم أمسك بمقبض الباب ليفتحه، وخرج منه ماداً خطوته .. ففتحت الظرف بارتباك كي أرى ما فيه .. لكنني تذكرت أن كريستين بالبيت ولا يجب أن تشاهد ذلك .. فأخرجتها من الغرفة وطلبت منها بكل لطف المغادرة .. فانصاعت لرغبتني ومضت إلى حال سبيلها .. ومضيت أنا إلى قراءة ما في الرسالة ..

ولدي الحبيب / سليم

السلام عليكم ورحمة الله وبركات ..

لا أعلم حين يصلك خطابي هذا هل سأكون ساعتها في دار الدنيا أم في دار الخلود .. لكنني سأكتب لك كل ما يجيش بصدري من مشاعر أعجز عن وصفها بالكلمات .. فأنا لا أستطيع أن أصف لك كم أوحشني قربك والنظر إلى وجهك .. كم أشتاق إلى رؤيتك والتمتع بالحديث معك .. كم أفقد براءتك الطاهرة الطيبة واللهو معك ..

لا أعلم إذا ما كنت الآن تكرهني أم تحبني أم لا هذا ولا ذاك .. لكنني أتذكرك في كل لحظة وحين .. أفكر فيك حيناً أتسلق جبال قندهار الصلبة .. وأتوغل في أراضيها الوعرة .. وأندفأ بالخطب في لياليها الباردة .. قد لا تصدقني إذا قلت لك إن وجهك يترأى لي دائماً بين صفحات الماء الذي يندر لقياه .. وفي صحاف الطعام الخالية عادة .. وحيناً أقاتل السوفيت أتخيل أنني أدافع عنك، فتزداد شرستي وتشتعل جذوة الغضب داخلي، فأنال منهم نيلاً عظيماً .. وحيناً ألقي بجسدي إلى مهجعي، أتخيل أنني احتضنك فتسكن نفسي وأخلد للنوم سريعاً ..

أبشرك يا سليم بأن الله قد جعل لي من فساد ماضيّ منفعة أفيد بها الإسلام ..
فمعرفتي باللغة الروسية ساعدتنا بفعالية على تكبيد العدو خسائر طائلة .. لذا فأنا
الآن فخورٌ وسعيدٌ بما أحققه بتلك المعرفة، ولا أشعر بالخزي والعار إذا ما أخبرت
أحدًا عنها وكيفية تعلّمي لها ..

الناس هنا بسطاء وأتقياء لا يستحقون ما يفعله بهم أولئك الشيوعيون الكفار
الملاحدة .. فهم كرماء وطيبون، ويحبون دينهم أكثر منا معشر العرب ..

لقد لقيت هنا شباباً وكهولاً وشيوخاً .. عرباً وعجماً .. جاءوا إلى أفغانستان
للمعبر منها إلى جنة الخلد .. لا يبتغون من جهادهم سوى مرضاة الله ونصرة دينه ..
فتزع وجودهم قربي شظية إحساسي بالذنب تجاهك، لأنهم فعلوا مع ذويهم مثلاً
فعلت معك وأشد .. وأكثر هؤلاء استحقاقاً للتقدير والتبجيل، هو ذاك الشاب
السعودي الذي ترك ملذات الدنيا ونعمها واستبدلها بقحط الحياة وشظف العيش
لينال رضا الله وغفرانه .. أسامة بن محمد بن عوض بن لادن .. أشد المجاهدين
حماسةً وأكثرهم عطاءً في سبيل الله .. وبالطبع لا أستطيع نسيان الشيخ الوقور والعالم
الجليل الدكتور عبد الله عزام، الذي استقبلني بنفسه في باكستان .. فكيف أنسى
صاحب ذاك الوجه الملائكي والقلب الصلب الذي لا يهتز أمام غارات الكفار
ووحشيتهم وهو يقبلني من خدي، عندما علم أنني من مصر بلد الأزهر الشريف
الذي درس فيه ..

لا أعرف هل أبلغك أسفاً أم مهتاً بخبر استشهاد رفيقي وحيبي سعد مشاري في
إحدى معاركنا مع الكفار، بعد وجودنا هنا شهرين فقط .. فتركتني وحيداً دون
أنيس، وذهب هو إلى الفردوس الأعلى .. كم أتذكر وجهه المخضب بالدماء وابتسامة
خافتة لا تغفلها عين مؤمن ولا كافر تنبض فيه.

الكفار يا سليم لا يمتقون فينا سوى حبنا لدينتنا .. ولا يريدون منا سوى اقتلاعه
من صدورنا واستبداله بهرائهم .. لكن سحقاً لهم، سنظل على الصراط ثابتين حتى
نلقى ربنا .. فاحذر يا سليم من الكفار وأغلظ في معاداتهم ..

بقى لي من كلامي يا ولدي، الدعاء لك بأن يثبتك الله على الفلاح ويعينك في دراستك حتى تكون نصرة للإسلام .. فوالله يا سليم ما اشتد بأس الكفار علينا إلا يبعدنا عن ديننا وعن علوم الدنيا.. فاحرص على التمسك بدينك والنهل من علوم الدنيا، حتى نسبقهم فيما برعوا فيه لتسيد الأرض كما كنا .. فنملؤها عدلاً بعد أن ملأها الكفار جوراً ..

والدك المحب / باهر الشاذلي

• • •

بعد ذلك الخطاب تدافع الحماس في لأحق ما يتمناه أبي .. فاستبسلت في استذكار دروسي وحملت نفسي فوق طاقتها من المجهود .. لم تكن كريستين عقبة في طريقي بعدما أقنعتها بعدم زيارتي، كي يتبه كل منا جيداً لدروسه مدعياً أنني أريد لها الحصول على مجموع عالٍ كي تلتحق هي الأخرى بالجامعة معي في فرنسا .. لكنها أبت إلا أن تزورني على الأقل مرة كل أسبوع، فحملت نفسي على موافقتها حتى لا تثير لي المشاكل بجنونها .. لكن في الشهر الأخير من الدراسة كان الأمر لا يحتمل أن تأتيني كريستين أو غير كريستين فيضيع وقتي هباءً .. لذا أرغمتها بصلاية موقفي على عدم المجيء إلى منزلي حتى انتهاء الامتحانات .. فكان لي ما رغبت ..

وفي يونيو عام ١٩٨٧ انتهت من امتحانات الثانوية العامة، بعدما أبلت فيها بلاءً حسناً .. لكن سرعان ما عاد إليّ الكابوس كريستين تلاحقني مرة أخرى .. هممت ذات مرة أن أطردها من منزلي، لكن عقلي أسعفني بالتفكير، وأوعز لي ناصحاً بأنه إذا ما قطعت علاقتي بها فقد تفترني عليّ عند أهلها بأنني اغتصبته وتدمر حياتي .. لذا صبرت عليها حتى أحصل على شهادتي وأسافر ..

وفي شهر يوليو عام ١٩٨٧ ظهرت نتيجة الثانوية العامة، وكانت نتيجتي فيها مذهلة .. فقد حصلت على ثمانية وتسعين وأربعة من عشرة في المائة .. حينها فقط شعرت بأنني لم أخذل أبي، وأنني على الطريق الصحيح لتحقيق أمنيته .. ولكم تمنيت أن

يكون معي في ذاك اليوم ليسعد معي ويشاطرني بهجة النجاح ..

سارعت بعدها بالاتصال بأمي، وإبلاغها بتيجتي، ففرحت جداً وأوصتني بالانتهاء من إعداد أوراقتي وإرساله لها في أقرب وقت، حتى تسجل لي في جامعة لويس باستور .. حلم عمري الذي أعيش له ..

وبقيت أمامي عقبة واحدة وهي كيفية التخلص من كريستين .. التي أصبحت تحاصرني كجلدي حول جسدي .. لكن سرعان ما طرأت لي فكرة جهنمية للتخلص منها .. فاتصلت بزميل لي في الفصل اسمه ناجي .. معروف في المدرسة كلها بأنه لا يكتفم سرّاً ولا يصون عهداً .. أخبرته أنني مسافر بعد ساعة واحدة إلى فرنسا وأحببت الاتصال به كي أودعه قبل سفري ..

لم يُحِب ناجي ظني وسرعان ما أخبر الجميع وأوصل الخبر إلى كريستين كما تمنيت .. فتالت الاتصالات على هاتفي والقرع على باب منزلي .. لكنني بالطبع لم أرد .. وفي أغسطس من نفس العام وبعد انتهائي من شتوني في مصر ووصول الفيزا من فرنسا .. أعددت كل شيء للسفر وتجهزت تماماً للرحيل .. لكنني قبل الذهاب إلى المطار قمت بالاتصال بصديقي تامر الفتى الطيب صاحب الخلق الحسن كي أودعه .. ودار بيننا هذا الحديث القصير ..

- كيف حالك يا تامر؟ .. أنا الآن مسافر إلى فرنسا يا صاحبي .. وأحببت توديعك قبل مغادرتي مصر ..

- سليم الشاذلي! .. ألم تسافر منذ أسبوع؟!

- لا لم أسافر لكنني أشعت ذلك بينكم كي أتمكن من التخلص من كريستين .. تصور أنها كانت تريد الذهاب معي!

- كريستين انتحرت يا سليم ..

٥

لا أعرف لم لم تحتاحني قسوة الشعور بالذنب أو حزن يليق بهول ما تسببت به لكريستين .. بل كانت تتجاذب نفسي أحاسيس غريبة بين الزهو بما أوصلت إليه تلك المسكينة والأسى والشفقة عليها .. تتزاحم في مخيلتي ذكرياتي معها وهي تخدمني بكل رضا، وتتعلق في عنقي بحبب كأنها طفلة رأت والدها بعد طول غياب .. لكن سرعان ما تبددت تلك المشاعر والصور حينما حلقت الطائرة فوق سماء القاهرة، فرحت أتأمل البيوت المتهالكة وهي تتضاءل في حجمها حتى أصبحت كالخصى على الرمال، يتصاعد منها الغبار الهائج ويحوم فوقها وبين ثناياها .. أنظر بتعجب للشوارع التي دائماً ما ضجت براكبيها وهي ساكنة، وما يسري فيها كان أقرب للجمود منه إلى الحركة ..

وبعد أن غاصت الطائرة في بطون السحاب .. غصت أنا أيضاً في غياهب عقلي أنصت له وأتدبر معه الطريقة المناسبة لملاقاة أمي .. فإذا تهللت لرؤياها فبذلك أخون والدي .. وإذا نفرت منها وجاقتها فقد لا تساعدني على دفع مصاريف الجامعة ويخرب مستقبلي .. لذا اخترت الحل الوسط، وهو عدم المبالغة في ابتهاجي حين لقائها .. وكتبت ما في قلبي ناحيتها دون أن أبديه ..

وبعد سويغات قليلة من التحليق العالي، دنت الطائرة من سحب باريس وراحت تشققها ببطء حتى تفتحت الحجب عن ساحرة عواصم العالم .. ملهمة العاشقين وروضة الفنون .. فوجدتني ألصق وجهي بشباك الطائرة ملاحقاً بعيني أطراف المدينة وحواشيها .. كأي أريد إصابة كل ما فيها بنظري من ذاك الارتفاع الشاهق، فأعرف

خباياه قبل ظاهره، وتاريخه مع حاضره .. ثم حطت الطائرة على الأرض وتبعث المسافرين الذين اصطفوا أمامي في ممرها الضيق حتى وصلت إلى شرطي الجوازات، وأنا أكاد أسمع ديبب اللففة في قلوبهم للقاء باريس مثلما أسمعها في نفسي ..

انتهيت من كل إجراءات الوصول وحملت حقيتي استعداداً للخروج إلى صالة الاستقبال ولقاء أمي، بينما كان يتدافع في خيالي كل ما دار بيننا من ذكريات حلوة وأيام جميلة، ثم بهتت تلك الخيالات بالصورة القائمة الكئيبة لأبي وهو جالس في غرفته يكي فراقها .. فامتقع وجهي وقطب جيني .. لكنني هزرت رأسي بحركة لا إرادية كأني أسقط تلك الأشياء من ذهني حتى لا تفسد علي اللقاء ..

حينما خرجت إلى الصالة لم أجد أمي في انتظاري! .. درت برأسي مرات ومرات بين وجوه الناس وتفرستها جيداً، لكنني لم أجدها واقفة بينهم .. فسللت إلى نفسي مخاوف صبي تائه، وانقشعت تلك الصورة التي رسمتها في بالي عن شكل أمي وهي تستقبلني. ولم يتبقَ أمامي سوى غضب وكدر قيواني بإحكام في وقفتي المشلولة بمطار شارل ديغول .. لكن بعد نصف ساعة من الانتظار .. تراءى لي وجه أمي يتنقل بين رؤوس الناس في سرعة واضطراب .. حتى لمحتني من بعيد فهرولت تجاهي، تلوح بيديها الاثنتين حتى اقتربت مني ووقفت أمامي تتفحص جميع أرجاء جسدي ووجهي بعينها المترققتين بالدموع .. ثم اعتصرتني إلى صدرها بكل ما في قلبها من حب وأمومة، تردد اسمي بحنين وتستفيض بعبارات الشوق .. في تلك اللحظات انصهرت داخلي جل تماثيل الكراهية التي عكفت على تشيدها طوال مدة فراقنا .. وطففت فوق وجهي ابتسامة لم أعرف مصدرها لكنني عرفت سببها .. وبعد طول عناق مسحت الدموع المتسربة من عينيها وأمالت رأسها لليمين وهي تقف وقفة استعراضية فاتحة ذراعيها للأعلى، قائلة بمرح:

- أهلا بك في مدينة النور يا سليم ..

حينها لاحظت ما ترتديه من تنورة قصيرة وجوارب مخملية سوداء شفافة وكعب

عالٍ .. وترجها اللافت وشعرها المتناثر على كتفها .. كأنها إحدى بنات الليل
وليست أما مسلمة في الرابعة والأربعين من عمرها .. فأمسكت لساني عن إبداء ما
في نفسي من احتقان لرؤيتها بتلك الحال .. لكنها قاطعت نظراتي المستهجنة سائلة
بنبرة تحمل الأسف والدلال:

- هل تأخرت عليك يا حبيبي؟

فأجبتها بتفور خافت حجبت عنها معظمه:

- نصف ساعة فقط ..

عذراً يا حبيبي .. فمواقف السيارات هنا باهظة جداً .. لذا فضلت أن آتي المطار
عند وصول طائرتك لكن الزحام لم يرحمني ..

- لا عليك ..

داعبت شعري بيديها المرتجفتين وهي تنظر إليّ بفرح ..

- لقد كبرت يا سليم كثيراً عما تركتك .. واشتد عودك .. هل تمارس الرياضة؟

- نعم .. كمال الأجسام ..

- أها .. إذن يا بطل هيا بنا بسرعة إلى السيارة كي أريك باريس الرائعة ..

هكذا قالتها بابتهاج تهريجي وهي تسحبني من يدي كما كانت تفعل معي في
صغري إلى سيارتها البيجو البيضاء القديمة .. فجلست جانبها ونحيت رأسي إلى
النافذة متجنباً إياها، لكنها جذبت وجهي ناحيتها برقة تسألني بعذوبتها التي لم
تفقدوها:

- ما الذي تتمنى رؤيته في باريس؟

- لا أعرف ..

- هل تتلهف لمشاهدة مكان معين؟ .. هيا قل يا حبيبي ..

- أي مكان ترغبين في الذهاب إليه سيكون مناسباً ..
- حسناً .. سأخذك في جولة سياحية واسعة لكل معالم باريس لذا اربط حزام مقعدك واستعد للمتعة ..
- حل السكون بيننا لدقائق طويلة .. وسحبني ناظري عميقاً نحو شوارع باريس المكتظة .. أتأمل فيها بنظرة العاتب اللائم .. المحتقن الباغض .. فهي من سلبت أمني من كنف عائلتنا بجنون صخبها ورومانسية بوهيميتها .. لم أحفل للقيادة المتهورة من حولنا ولا إلى ما ترامى لمسامعي من جفجفة الفرنسيين الشبيهة بصوت البغواء .. لكن ما انتزع دهشتي هو ما قامت به أمني حينما فتحت درج السيارة وأخرجت علبة سجاثرها وأشعلت واحدة، ثم أدخلت شريط أغاني في المسجل وراحت تردد وراء المغني ما يقول .. فسألتها بعصية:
- منذ متى تدخين؟! ..
- منذ فترة ليست بالطويلة .. ما رأيك بالأغنية هذه؟ .. إنها لمغني جزائري اسمه الشاب خالد .. أتوقع له مستقبلاً باهراً في عالم الفن ..
- هكذا ردت عليّ محاولة ادعاء اللامبالاة بسؤالي .. فأجبتها باقتضاب:
- لا أفهم ما يقول ..
- ليس المهم أن تفهم الكلمات .. بل أن تشعر بالموسيقى وتدعها تستقر في وجدانك ..
- لم أرد عليها لبضع دقائق .. لكنها قطعت سكوننا قائلة بانبهار وفخر:
- هذا هو يا سليم الشانزلزيه .. أهم شارع في العالم وأعظمهم على الإطلاق .. أتري تلك المسلة الفرعونية في ميدان الكونكورد، لقد أهداها السلطان محمد علي إلى شارل العاشر، لكنها وصلت إلى هنا في عهد لويس فيليب ..
- إذن تاريخ مصر ينهب منذ القدم وليس الآن فقط ..

لم تعلق على كلامي وأردفت قائلة:

- وتلك حدائق التويلري، وهذه كنيسة مادلين، وذاك مجلس النواب .. أما ذاك المبنى الكبير صاحب القبة الزجاجية فهو القلعة التي تحولت إلى قصر، والقصر الذي تحول إلى متحف، والمتحف الذي يذهل العالم كله بمقتنياته وتحفه ولوحاته الفنية البديعة لأعظم فناني العالم ..

- مممم .. تحفظين اسم الكنيسة ومكانها .. ممتاز ..

عاد الصمت يتأرجح بيننا من جديد بعدما علقت على كلامها بعدائية خافتة .. لكنها ابتلعت ذلك بصدر رحب وعادت للحديث مرة أخرى ..

- هذا يا سليم هو ميدان شارل ديغول، يفترش أرضه قوس النصر الشامخ الذي أراده نابليون رمزاً يخلد ويمجد انتصاراته، إلا أن إنجازته تم في عهد لويس فيليب وليس في عهد نابليون ..

أحسست بقرف واشمئزاز يفوران في رأسي من أسلوب أُمي المتباهي في حديثها عن معالم باريس، كأنها هي من بنتها أو أحد من أجدادها .. وريح باريس، لقد أنست المرأة أن الفرنسيين قتلوا والديها وذبحوا من أهل بلدها ما يفوق المليون شهيد ..

- الآن سأصحبك يا سليم إلى برج إيفل .. أبهى برج في العالم ..

- إنه في نظري قطع من الحديد المتراكمة لا أكثر ..

- ها ها ها .. هكذا أنتم يا أهل العلوم، تهتمون فقط ببادئة الشيء وتكوينه ولا تكثرثون لما ينبعث منه من أحاسيس ..

وصلنا إلى برج إيفل، ووجدت أُمي تنادي على شاب أسمر بدا من ملامحه أنه عربي .. فَخَوَدَ الخطي ناحيتنا ودنا برأسه من أُمي، فأعطته بضع فرنكات وقالت له بالجزائرية: احجز لنا مكاناً سنعود بعد ساعة .. ثم انطلقنا .. فسألته متعجباً:

- يحجز لنا مكاناً أين؟!

- في ذاك الطابور الهائل الذي تراه ..

انحنيت برأسي للأسفل كي أرى ذاك الطابور الذي أخبرتي عنه .. فشاهدت
المئات من السائحين واقفين ينتظرون دورهم في ركوب المصعد الكهربائي للبرج ..
أما ذاك الشاب فهو واحد من الشباب العرب الذين لا يجدون عملاً .. يقفون هناك
ليحجزوا دوراً في الطابور للراغبين مقابل بضع فرنكات .. ابتكار ذكي في التسول،
يستفيد منه كلا الطرفين .. فهؤلاء الشباب يحتاجون المال .. والسائحون ليس لديهم
الاستعداد لإرهاق أقدامهم وتضييع بضع ساعات من وقتهم في الوقوف ..

- إلى أين نحن ذاهبان الآن؟

- سنذهب إلى بيتي كي تستريح قليلاً من عناء السفر، وتتناول الغداء الذي
أعدته لنا خالتك سعاد ..

- أخيراً سأقابلها ..

- نعم ستقابلها .. فهي متلهفة لرؤيتك من كثرة حديثي عنك ..

انطلقنا بالسيارة وبعدنا عن معالم باريس الباهية .. وبدأ ذاك الجمال الذي تمتعت
به عيناى يخف شيئاً فشيئاً، حتى خبا تماماً وزحفت محله بعض المباني الباهية تسرح
بينها الروائح العطرة لصناديق القمامة الممتلئة عن آخرها على الرغم من تناثر
الأشجار المورقة على الأجانب .. كما اختفت الوجوه البيضاء بأنافتها الزاهية، ونابت
عنها وجوه سوداء معتمة وملامح عربية شاحبة .. ثم توقفت السيارة بأحد الشوارع
التي يلهو فيها بعض الصبية بالكرة .. فسألت أُمي متعجباً:

- هل هنا تسكنين؟!

- نعم ..

- ما اسم هذا المكان؟

- إنها ضاحية (Sevrans) ..

رفعت رأسي نحو الأعلى متفحصاً بعيني البناية التي ولجت إليها أُمِّي .. فرأيت امرأة بدت في أواخر الأربعينيات من عمرها تشبه أُمِّي إلى حد ما، واقفة في شرفة بالدور الثالث وتفرط في التلويح لي بابتهاج .. لم أحتج إلا لبعض الفطنة كي أدرك أنها خالتي .. التي ما إن رأيتني حتى احتضتني بقوة وكأنها تعرفني منذ زمن .. فرحة مهللة!

- هذا هو سليم يا سعاد .. ولدي وفلذة كبدي، وأحب من في الدنيا إلى قلبي ..

- بسم الله ما شاء الله .. لو لم أكن خالتك لطلبت يدك من أمك ..

لاحت في وجهي ابتسامة خجلة وتوردت وجتاي كأني فتاة بكر ..

- شكراً لك يا خالتي ..

- ماذا أعددت لنا يا سعاد؟ .. فسليم لم يأكل منذ النهار شيئاً ..

- لقد طبخت المعكرونة بالبشاميل وصينية بطاطس بالفرن أخذت وصفتهما من جارتنا المصرية نهال ..

- حسناً فعلت يا أختاه .. فقد عاش سليم أكثر من عام في مصر وبالتأكيد قد نسي أكلنا الجزائري ..

- أنا لم أنس أي شيء عنك يا أماه ..

هكذا فتق قلبي عن تلك الكلمات بعد أن نبَّش ذلك الجور العائلي خبايا نفسي فأحيا ما كان ميتاً داخلي ناحية أُمِّي، فاضطربت من نظراتي الحانية وانطلقت مع خالتي ناحية المطبخ كي تعدان الطاولة ..

بعد أن تركاني رحت أختلس النظر إلى شقة أمي الضيقة، فرأيت في الصالة الجدران البالية والأثاث القليل المتهالك .. ثم سحبتني خطواتي نحو غرفة نومها فشاهدت سريرها المزري ودولابها الذي ليس له أبواب .. لكنني لمحت على الحائط المجاور لفراشها لوحة كبيرة قد رسمتها قديماً لأبي وهو جالس مبتسم لها، وعمسك في يديه باقة ورد .. تأملت فيها لدقائق عدة دون أن يشئت ذهني ذاك الصباح المتبادل في الشارع بين الصبية وأصحاب المحال .. وانهالت على رأسي أسئلة لم أجدها لإجابة:

هل مازالت تحبه حتى الآن؟!

إذن لم تركته وحيداً يعاني الأمرين بعدها؟!

هل تستحق هذه العيشة البائسة التي تعيشها الآن أن تفارقنا؟!

ثم قطعت تلك الخطوة التي قضيتها في فضاء نفسي أصابع أمي الرقيقة التي امتدت إلى كتفي تربت بحنو عليه، قائلة بنبرة خفيفة حزينة كأنها كانت تنصت إلى ما كان يدور داخل نفسي:

- هيا يا سليم الغداء جاهز ..

فالتفت إليها بعين تلتهم ما يبتنا من مسافات كي تجد إجابة لما يطوف من أسئلة داخل رأسي .. لكنها أشاحت بوجهها عني ومدت خطاها ناحية الصالة ..

- أريدك يا سليم أن تأكل كل الذي على الطاولة ولا تدع منه شيئاً ..

- هل اللحم المفروم بالمعكرونة، والدجاج الذي بصينية البطاطس ذبح حلالاً؟

تبادلت خالتي وأمي النظرات، قبل أن يصخب حلقها بضحكة مجملجة وهي تحيييني بتقطع:

- هل هذا أول ما دار في ذهنك تجاه الطعام؟! .. كن مطمئناً فالجزارات الإسلامية هنا في باريس أكثر من الملاهي الليلية .. هيا كُل يا ولدي ..

بعد انتهائنا من الطعام الذي كان شهياً، دخلت خالتي إلى المطبخ كي تغسل الأطباق .. وجذبتني أُمي من يدي وهي تصيح عالياً:

- سوف أذهب مع سليم لأريه برج إيفل .. سنعود في الليل .. فلا تقلقي علينا ..

حسناً يا أميمة .. انتبهي لنفسك ولسليم ..

عدنا بعد ساعة ونصف إلى الرجل الذي أخذ من أُمي الفرنكات فوجدناه واقفاً في مقدمة الطابور فابتهجت أُمي صائحة:

- لقد جئنا في الوقت المناسب .. هيا يا سليم كي تمتع ناظريك بباريس كلها ..

صعدنا إلى الدور الثاني من برج إيفل .. والذي يرتفع عن الأرض بمقدار مائة وخمسة عشر مترًا .. ارتفاع شاهق أصابني بالدوار والرعدة، مما جعلني أعود بخطواتي إلى الخلف خائفاً .. لكن أُمي طلبت مني ألا أطلع الأسفل، بل أفرش بصري على بساط الأفق كي تشعر نفسي بالصفاء الذي يطلبه الصاعدون إلى هنا .. وفي وسط تأملاتنا المفتونة بباريس قطعت ذلك بسؤال يتأرجح في رأسي منذ مقابلتها ورؤيتي لحالها لم أستطع كتمانها في صدري ..

- هل هذا ما تركتنا لأجله؟!

سكنت لدقيقة أو اثنتين، وكأنها استكَّت مسامعها عن سؤالي، ثم نظرت إلى وجهي وابتلت عيناها بالدموع .. تخيبي بصوت متحشرج تعب:

- أنا لم أترككم من أجل حلم الهجرة إلى فرنسا .. بل تركتكم بسبب الضغط الذي ظل يمارسه عليّ أبوك كل يوم في آخر ستين بحياتنا .. لقد أهانني كثيراً ورماني بالكفر أحياناً .. لم يعد باهر ذاك الحالم الودود الذي عرفته بل أضحى شخصاً آخر عصبي المزاج عمتق الوجه لا يناقشني في أمر ما، ولا يحتويني بحب مثلما كان يفعل طوال فترة زواجنا .. فإذا اقتربت منه يزفر حانقاً، وإذا نمت إلى جواره يغادري

مزجراً .. حتى شعرت أنه يبغض وجودي ويتمنى موتى ..

- وهل هذا سبب كافٍ لتتركينا .. هل هذا سبب كافٍ لتمزقي قلبه؟!

- هل تظن أن والدك وحده الذي تعذب؟ .. هل تعتقد أنك وحدك الذي عانيت؟ .. أنا هنا أعيش كالظل بين ثنايا الحياة .. جثة هامدة لا تنبض فيها سوى الذكريات .. أنت لم تمرر مررت به .. ولم تسمع شيئاً عما حدث لي بعد فراقكما ..

- وعلام كل هذا؟! .. لم لم تنفذي طلباته؟! .. فهو في النهاية يريد لك الفلاح والصلاح بدلاً من ذاك الطريق المظلم الذي تسيرين فيه، وذاك الرداء الفاحش الذي ترتدينه ..

هكذا قلتها بغيط مصحوب بنظرة ازدراء لم تحتمل أمني رؤيتها، فصفعتني على وجهي صفعة قوية وهي تزحر من سخطها العارم وصدرها المتخم بسواد السجائر .. زاعقة في حدة:

- تأدب وأنت تحدث أمك .. هل هذا ما علمك إياه أبوك؟! .. ألا تحترم أمك .. أن تنظر للمرأة على أنها قطعة لحم من الواجب تغطيتها ..

في تلك اللحظة وددت حملها ورميها من فوق البرج لكنني ألجمت غضبي، وانسحبت من عيني دمة متقدة بالمرارة، وأنا أنظر إليها لائماً .. فانكبت بالقبليات على وجهي، تجهش بالبكاء أمامي آسفة معتذرة عما بدر منها تجاهي ..

- أرجوك يا سليم لا تكرهني .. فأنا لا أحب أحداً قدرك، ولا أعيش في هذه الدنيا إلا من أجل أمل واحد، وهو أن أراك أفضل رجل في هذا العالم ..

أطرقت برأسي جانباً ثم نظرت إلى عينيها قائلاً بصوت خفيض:

- أعتذر أنا أيضاً إذا كنت قد ضايقتك ..

مسحت وجهها بكم سترتها وقالت لي بلطف وابتهاج حاولت به نزع نفسها عن

تلك اللحظات العصيبة التي سبقتها:

- دحك من هذا النكد وقل لي كيف كانت أحوالك وأحوال أبيك؟ .. وأين يعمل الآن في مصر؟ .. وكيف سيقضي وقته دونك؟ .. قص علي يا ولدي فأنا متلهفة لسماع أخباره..

وكان ذلك هو ما أخشاه .. أن تسألني أمي عن والدي وهي تحرق في وجهي موصدة بنظراتها بواعث الكذب داخلي .. لكنني لم أفكر كثيراً، فاخترت تضليلها وإبلاغها بأخبار مزيفة حتى لا يسوء ما بيننا، وندخل في جدال عقيم مثلما كانت تجادل أبي .. والذي قد ينتهي بصفعة أخرى ..

نزلنا بعدها من البرج وتمشينا في الشوارع نتبادل أطراف الحديث عن الذكريات وعن مدرستي في مصر، وعن عملها، وغيرها من الثروات الفارغة التي خففت من احتقاني ناحيتها .. وسدت فراغ الزمن الذي خلفه فراقها لي .. ثم عدنا بعدها إلى البيت، فأكملنا حديثنا مع خالتي التي كانت تفرط في الهزل بنكاتنا الطريفة ..

وبعد ذلك اليوم المرهق الصاخب، نمت إلى جوار أمي وهي تضميني إلى حضنها بحنان متدفق.. كأنها تخشى فراقى مرة أخرى، وتحاول تعويضي عما اعتبرته تقصيراً في حقى .. أو تعتذر ضمناً عن صفعي في أول لقاء جمع بيننا بعد غياب دام عاماً ونصف العام ..

وهكذا عصفت بي الأقدار بين لجئين متضادين .. ماؤهما حب لي، وموجهما يدفعاني إلى طريقين ضدين، فبين أمي العلمانية السافرة وأبي المجاهد المتدين وجدت نفسي حائراً، أي الطريقين أختار .. لكنني لم أضن ذهني بعناء التفكير .. فقد اخترت مسبقاً السير خلف وصايا أبي، وآليت على نفسي تحقيق رغباته .. فهو الحق الذي ارتأيته .. والفلاح الذي ارتضيته ..

٦

- اليوم هو يوم وصولك أنت ووالدتك إلى مدينة ستراسبورج بعد أن أقلكما
القطار السريع إليها من باريس ..

- نعم يا دكتور علي .. اليوم هو أول أيامي في ستراسبورج ..

نطق سليم اسم ستراسبورج بلحن عجيب، تناغمت فيه أوتار قلبه مع أحبال
صوته فخرج من ثغره ذاك الصوت الدافئ العميق العاشق محملاً بأكثر مما تحتمله
حروف الكلمة .. شخص يبصره تجاه الجدار المقابل لنا لدقائق عدة، حتى ظننته ميتاً،
ثم تموجت ابتسامة حميمة على طرف فمه كأنها قد تجلى أمامه ما يسعده فأخذ يتأمل
فيه ..

ستراسبورج هي حديقة كبيرة نبتت من باطن أرضها الخضراء المبتلة بيوت ذات
ألوان زاهية، اصطفت متلاصقة بقبابها المثلثة المائلة وزخرفاتها البديعة كأنها فتيات في
حفل اختيار عروس للأمير .. كل واحدة منهن قد انصرفت لإبراز مفاتها حتى
خبلت بك بجملها .. البيوت في ستراسبورج لكل واحد منها قصة يحكيها لك وتاريخ
يتفاخر به وهو راقد بأبهة تحت أجنحة الطيور الخافقة وعلى الأرصفة المرصوفة
بالحجارة بعد أن اصمألت حول وجوههم متعددة النواذ بعض حبالل النباتات
الرفيعة وتدفأت جوانبه بخضار الأشجار الوارفة ..

- ألهذه الدرجة هي جميلة!؟

أكمل حديثه كأن لم يسمعي مستطرداً:

في ستراسبورج لا تستطيع التمييز بين العشاق والورود .. فكل منهم قد تخرج وجهه بالحمرة وانطوى على ظله ملتوياً .. الطرق أغلبها ضيقة وعمراتها صغيرة متعرجة بقامتها الصخرية المقوسة .. أما جسورها القصيرة فتترامى على جانبيها الأزهار .. تارة مرحة بالضيوف وتارة معطرة للأنوف .. بينما تتقوس بسيقانها غوصاً إلى داخل النهر حيث تلامس بأهدابها صفحات موجه المهرولة في القنوات المتشعبة وهي تمر بالبيوت السابحة على جانبي ضفافها، فترتاح حيناً بيبضغ لفات وحلقات ببائها الرقراق كأنها تلقي التحية بمازحة .. ثم تنطلق إلى حال سبيلها حتى تصل إلى السدود التي تقوم بموازنة ارتفاع المياه بالنهر لتفاوت ارتفاعات المدينة ..

- رائع ..

- في ستراسبورج الحياة ريفية هادئة وليست صاخبة مثل باريس .. الناس بسطاء ولطيفون .. الحب موزع بين القلوب، والسكينة رابضة في النفوس .. لا تعب فيها ريح الضغينة ولا تجدد الكراهية فيها مكاناً تستظل به ..

- مثل الريف عندنا ..

- ستراسبورج هي مدينة التناقضات .. فروحها فرنسية خالصة وأسماؤها ألمانية أصيلة .. ملامح العصور الوسطى نابضة بوجهها، وشواهد الحداثة المبهرة تنتشر بين أراضيها .. حقولها واسعة ومصانعها ضخمة ..

- إنها مدينة مربكة!

- حينما وصلت إلى ستراسبورج أدركت قيمة ما تركني من أجله أبي ..

- ما هو يا سليم؟

- الجنة ..

ستراسبورج هي رحيق من الجنة يمرره الله على أنوف عباده، كي يدركوا ما يفوتون بتفويت طاعته .. لوحة بديعة من فن الخلق الإلهي رسمها بإحكام يجبرك على التأمل والانبهار .. لذا كنت أسير بجانب أمي في شوارعها، أتلقت إلى الجانبين ببطء كأني أصور المكان من جميع زواياه حتى أحفظ به في دهاليز ذاكرتي للأبد ..

- هل تحب أن ترى جامعتك أولاً أم البيت الذي ستسكن فيه؟

وكان أمي أدركت بحدسها كيف تخطفني من عالم الاندهاش الذي سبحت فيه، فدغدغت مسامعي بكلمة الجامعة لتلهب حماسي .. فأجبتها دون تفكير أو تأني ..

- بالطبع الجامعة ..

- ها ها ها .. كنت أتوقع أن تكون تلك إجابتك ..

كانت الأحلام تراودني وأنا منطلق بجوار أمي إلى مكان كليتي .. كل خطوة خطواتها تجاهها كانت تحمل أمنية أو ترجو أملاً أو تصبو إلى هدف .. حتى وصلنا إلى شارع "بليز باسكال" ووقفت أمام كلية الكيمياء جامعة لويس باستور .. حينها تعلقت في وجهي الجامد ابتسامة فخر وهتفت في رأسي الطموحات .. تأملت في مبناها الفخم وطواقه .. وفي ساحتها وما يحوط بها من أشجار .. وأخذت أحدث نفسي بعزيمة حارة حازمة قائلاً:

- هاأنذا أيها العالم المتدين الكافر لويس باستور، أقف أمام جامعتك لأدرس في إحدى كلياتها، كي أكون أعظم منك .. كي أحو ذكر كل من سبقوك وسبقوني ويخلد اسمي وحيداً في صحف التاريخ .. لقد جاءك سليم باهر الشاذلي الذي سيقلب الكون بعلمه ويرسي النظريات بعبقريته .. الآن بدأت نهايتكم معشر الغرب، وعودة نهضة المسلمين.

• • •

اصطحبني أمي إلى المكان الذي سأسكن فيه خلال فترة دراستي بالجامعة، وهو

نُزل صغير يقع في ضاحية (Cronenbourg) في شارع القديس نابور (Rue de Saint Nabor) تمتلكه أرملة فرنسية اسمها سونيا في أوائل عقدها الخامس، بدينة بعض الشيء ووجهها تشق فيه نزر من التجاعيد الطفيفة، وشعرها ناعم قصير مكتظ بالشعيرات البيضاء التي لا تصبغها زهداً في الدنيا بعد ما تُوفى زوجها الرسام الإيطالي باولو الذي أحبته وقدرته وعاشت معه أزهى أيام حياتها..

النزل يبدأ برواق صغير على جانبه الأيمن لوحة زيتية تجمع كل من باولو وسونيا وهما متعانقان مبتسمان، ويعلوها مصباح صغير يسلط ضوءه عليها في النهار والليل، وإذا انطفأ أو خرب، تسارع مدام سونيا بإصلاحه فوراً.. وعلى الجانب الآخر من الرواق مكتب خشبي يصل ارتفاعه إلى منتصف الصدر، عليه هاتف رمادي ودقر كبير عريض تسجل فيه مدام سونيا الواقعة وراءه ما تحصل عليه من إيراد، وما تنتظره من رسوم إيجار لم تُدفع بعد، وأحياناً بعض الأبيات الشرية في محبوبها باولو.. يتوسط الجانبين موكيت أزرق غامق يفترش الرواق بالطول حتى السلم الذي يقودك إلى ثلاثة طوابق.. في كل طابق توجد شقتان، تتألف كل واحدة منهما من غرفة واسعة وحمام صغير، بالإضافة إلى مطبخ ضيق الحجم.. الطابق الأول تؤجره سونيا للعشاق المتحايين برسم عالٍ إذا كان الرجل جافاً غليظاً في معاملته لمحبيته وهو ما يتبدى لعيني سونيا الخبيرتين، حينما تنفرسهما جيداً قبل أن تسلم لهما المفتاح.. أما إذا كان الزوجان متفاهمين ولطيفين وتمرح في وجهيهما ابتسامات متقطعة تمزج بين الخجل والوله، فإن سونيا تقدمه لهما برسم ضئيل، لكن بشرط أن يخبراهما بقصتهما ويحكيان لها أشد لحظات العشق بينهما.. الطابق الثاني يتم تأجيره للسائحين البسطاء الذين قطعوا من مدخراتهم جزءاً كبيراً كي يشاهدوا مدينة الرومانسية والتاريخ ستراسبورج.. أما الطابق الثالث فيتم تأجيره للطلبة المغتربين الذين لا يستطيعون تحمل تكاليف الإقامة في المدينة الجامعية.. وفي كل طابق من الطوابق الثلاث يتوسط رواقه لوحة بديعة رسمها باولو قبل أن يموت.. وبعض الزهور المعلقة على جانب باب كل شقة..

ودّعت أمي عند باب النّزل ملحاً عليها بالعودة لباريس، ومُطمئناً إياها على استطاعتي تدبر أموري .. فقد عرفت كل شيء واجب عليّ الاطلاع عليه .. فطلبت مني أن أزورها كلما استطعت، وإذا تأخرت عليها ستقوم هي بزيارتي ثم أعطتني عنوان مكتبة "التاريخ الساحر" بالحلي القديم، التي سأعمل بها بضع ساعات كل يوم، وأتحصل منها على بعض المال كي يساعدني على تسير حياتي الجامعية، وهي وظيفة استطاعت خالتي بعلاقاتها أن تؤمنها لي بستراسبورج .. تضايقت قليلاً حينما أخبرتني عن ذاك العمل الذي قد يعطني عن الاستذكار إلا أنني استقبلت الأمر بصدر رحب، فقدرة أمي المادية لا تحتل كل ذاك الضغط عليها .. وبعد توديعي لأمي اعتدلت بوجهي ناحية مدام سونيا التي كانت تنظر ناحيتي ببعض الإعجاب التقديرى، وليس إعجاب المرأة بالرجل .. فقد أوصد قلبها بعد وفاة زوجها الإيطالي .. وقالت لي بلهجة طيبة:

- يبدو أن أمك تحبك جداً ..

ابتسمت ابتسامة رضا وأنا أرد عليها:

- يبدو ذلك ..

- أنا مستغربة كيف أنك مصري مثل ذاك اللعين فؤاد شعبان!

- لم تقولين هذا؟!

- ملاحظك وجسمك أقرب إلى الإيطاليين الوسيمين، لكن بالطبع ليس مثل

حبيبي باولو فهو أوسم منك .. كما أن أخلاقك تبدو مهذبة ..

ابتسمت مرة أخرى مجاملة لها .. وسرت وراءها ببطء بسبب مشيتها الموزكة حتى

صعدت الدرج، وصعدت خلفها وهي تردد مهممة (حبيبي باولو .. لم تركتني

وحيدة في هذه الدنيا؟!) حتى وصلنا إلى الطابق الثالث .. حينها أخذت تصارع

أنفاسها كأنها تحتضر، واتجهت ناحية باب الشقة الذي سأمكث فيها خلال فترة

دراستي .. وعلى الرغم من امتلاكها نسخة لمفتاح الشقة، فإنها ظلت تقرع الباب فترة طويلة حتى فتح لها شاب ذو وجه حنطي وشعر خشن وأنف مدبب وجسم ضعيف البنية متوسط القوام، يحمل في ملامحه تعبيرات ساخرة بالأخص مع نظارته المائلة عن عينيه ناحية شاربه الرفيع ..

ما إن رآها ذاك الشاب إلا ومازحها بدعابة سخيفة سائلاً:

- ماذا تريد أن أيتها البطلة في هذا الوقت؟

وأطلق ضحكة فجأة وراء تلك الجملة .. فزعقت سونيا في وجهه قائلة:

- إن نكاتك يا فؤاد دائماً ما أشمئز منها وأحتقرك بسببها .. ألم أقل لك يا سليم إنه يستحيل أن تكون أنت وهذا الوغد من بلد واحدة!

- ما هذا .. هل أنت مصري؟!

هكذا صاح فؤاد من أعماقه وكأنها قد وجد كنزاً أو كسب اليانصيب ..

- يا أهلاً يا أهلاً بمصر وروائح مصر .. تقدم يا رجل كي أحتضنك ..

عانقني بحميمية شديدة، وكأنه يعرفني منذ زمن، حتى إن سونيا استغربت من عناق .. فسألته قاطبة:

- هل تعرف هذا السافل من قبل؟!

- لا .. إنها أول مرة أراه سيدتي ..

فرفع فؤاد حلقه عالياً ناوياً تسديد دعابة سخيفة أخرى إلى وجهها المحتقن ..

- شعب مصر كله يعرف بعضه بعضاً .. اخرجي أنت منها واذهبي إلى باولو حبيبك الذي لا أرى في وجهه لمحة جمال يُبكي على فقدانها ..

- أيها الوغد القذر .. أتمنى أن تحترق في الجحيم وتتفحم في نارها ..

حينها تدخلت كي أخفف حدة هذا الجرو المشحون .. فأخبرته ناصحاً بالعربية:

- اهداً قليلاً يا رجل قبل أن تطردك من هنا ..

- هاهاها .. تطردني! .. يبدو أنك لا تعرف ما بيني وبين سونيا مونا مور ..

هكذا قالها وهو فاتح ذراعيه محركاً حاجبيه كي يغيظها .. فأشارت بيدها أمام وجهها بحركة استنكارية، كأنها تهش ذبابة من أمامها، وهي تنظر ناحيته باشمئزاز .. ثم انصرفت ..

بعد مضي الأيام اكتشفت أن فؤاد هذا هو أكثر الناس قرباً واعتناءً بسونيا .. فحينها مرضت كان هو من يعودها ويطمئن عليها ويأتي لها بالدواء ويُسِّر لها أمور النُّزُل .. وعندما تريد الأُنس لأحد، تجلس معه وتضحك من قلبها من طريقته في الحديث وذكرياته الفكاهية .. وكذلك قامت هي أيضاً بمساعدته حينما لم يستطع دفع إيجار النُّزُل، فتنازلت له عن الشهور المتأخرة عن طيب خاطر ..

كانت العلاقة بينهما غريبة .. فهما عادةً ما يسبان ويستفران بعضهما، لكن إذا شعر أحدهما أنه يحتاج الآخر، هب لمساعدته والوقوف بجانبه دون تلكؤ!

• • •

فؤاد شعبان عبد النبي .. هو ابن شعبان عبد النبي جاد، أحد مندوبي توزيع جريدة الأهرام في طنطا .. وأمه رقية سعد فلاحه أُمّية لا تعمل .. تربي فؤاد في أسرة فقيرة وبیت صغير هو وأخواته الثلاث اللاتي أنجبتهن أمه قبله، إذعاناً لرغبة أبيه في الولد، حتى أتت بفؤاد وكفّت بعدها عن الإنجاب .. كان والد فؤاد مبهوراً بجريدة الأهرام ويرى فيها الصرح العظيم الذي لا يقل أهمية عن الأهرامات ومعبد الكرنك .. فذائماً ما كان يتفاخر أمام أصدقائه على المقهى بعمله في الأهرام، بطريقة تشعره أنه أحد قادتها أو كتابها الكبار وليس مجرد مندوب توزيع في طنطا!

قام شعبان بغرس حب الأهرام في نفس ولده الذي أحياناً ما كان يصطحبه معه

إلى عمله كي يريه قيمة الوظيفة التي يعمل بها، وتلهف الناس حول أكشاك الجرائد وهم ينتظرونه كي يمن عليهم بعدد اليوم .. تمنى شعبان رؤية ابنه يعمل في يوم ما بذاك الكيان الكبير، لكن ليس في مثل وظيفته، إنها في أحد مكاتب مبناها الفخم بالقاهرة كصحفي عملاق مثل محمد حسنين هيكل أو فكري أباطة وغيرهم .. لذا كانت علاقة العم شعبان بكل رؤسائه جيدة .. بل وسعى إلى مقابلة عدد من الصحفيين العاملين بالجريدة ومراسليها، كي يوطد علاقته بهم حتى إذا ما حانت لحظة ولده، يستطيع دفعه بسهولة للعمل في الأهرام ..

كان شعبان يجبر ولده على قراءة الجريدة يومياً والتمعن في مقالاتها وتحقيقاتها الصحفية كي يتعلم بشكل متقن مهنة الصحافة على أصولها .. ثم يتأكد بنفسه من ذلك عن طريق جلسة نقاش هي أقرب لامتحان شفوي يعقدها معه كل ليلة حول مقالات الجريدة وأهم ما جاء فيها ..

فطن فؤاد بذكائه الحاد إلى سر الصحافة مبكراً .. ولم يحتج إلى كل ذاك المجهود الذي فرضه عليه والده كي يتعلمها .. فصدر الجريدة دائماً ما يكون عن حكمة الرئيس وعقله الواعي وإخلاصه الراسخ .. وغيرها من كلمات النفاق والتعلق .. ثم يتخللها الحديث عن أجداد خاوية وإنجازات واهية، وصراعات وهمية يخوضها الزعيم في العالم من أجل مصر ورخائها .. أما داخل الجريدة فقد يجد مقالاً أو اثنين يستحقان القراءة، أو يحملان جديداً، لكن أصحابها مجرد صحفيين لم ولن يصلوا أبداً لقمة الهرم، لأنهم غير ملمين بفنون الرياء ومسح الجوخ ..

اضطر فؤاد للعمل منذ سن صغيرة في كشك للجرائد بشارع المديرية بطنطا، كي يتحصل على المال الذي يمكنه من مساعدة والده على تحمل مسئولياته الثقيلة .. وعلى الرغم من مرارة الفقر وقسوته، فإنه لم ينل من عزيمة فؤاد على تحقيق حلم والده الذي أصبح هدفه هو أيضاً .. فكان يدرس في الكشك وسط صخب الشارع وصراخ المارة بتركيز عالٍ .. ويدخر جزءاً من راتبه كي يساعده على تحقيق مستقبله

الذي يتمناه .. لكن مراده لم يتحقق حينها تخرج في الثانوية العامة بمجموع صغير، لم يمكنه من الالتحاق بكلية الإعلام كي يدرس فيها الصحافة .. وكان ذلك بسبب ظروفه المعيشية القاسية التي لم تمكنه من أخذ الدروس الخصوصية أو الاستذكار جيداً مثل باقي أقرانه .. فأحس فؤاد أن الدنيا قد أظلمت في وجهه، وانتهى من الدنيا أمله الذي يحيا من أجله .. لكن أباه لم يرخص لولده الوحيد ألا يكون إلا كما أراد .. فسحب معاشه مبكراً، واتصل بأخيه ياسر الذي يعيش في فرنسا منذ عشر سنوات، طالباً منه إيجاد كلية للصحافة أو للإعلام لولده كي يكمل دراسته فيها ..

أخبره ياسر أن التكلفة ستكون كبيرة ولن يستطيع تحملها، لكن شعبان لم يحفل بذلك وألح على أخيه بسرعة التصرف .. وكان له ما أراد، حينما قدم ياسر لابن أخيه فؤاد في جامعة روبرت شومان بstrasbourg الفرنسية التي يوجد بها مركز تدريس الصحافة (CUEJ) ..

حينما علم فؤاد بذلك، شعر بتأنيب ضمير، وأحس بأنه يثقل الحمل على كاهل أبيه .. فطلب منه عدم الذهاب إلى فرنسا والاكتفاء بالدراسة في كلية الآداب قسم صحافة .. لكن والده أقنعه بأنه لا يحتاج المال بعد أن اطمئن على بناته الثلاث وزوجهن، ولم يتبق له أحد غيره، وأنه منذ عمله بالأهرام يحلم باليوم الذي يتمكن فيه أحد أبنائه من العمل صحفياً فيها، ولن يتنازل عن هذا الحلم أبداً مهما حدث .. وها هو فؤاد في Strasbourg لتحقيق رغبته وأمل أبيه .. والتي أول ما وطع أرضها، اكتشف أن المال الذي أعطاه له أبوه لن يكفي إلا لتسديد رسوم الجامعة بأول سنتين فقط .. لذا سارع بالبحث عن عمل كي يتمكن من تحمل مصاريفه الشخصية .. وادخار بعض منه كي يستطيع دفع رسوم سته الثالثة .. لكنه لم يكن يستمر في أي عمل أكثر من شهرين بسبب نكاته التي يداعب بها الآخرين، وكأنه يفاكه عم مدبولي صاحب القهوة المقابلة لكشك الجرائد الذي كان يعمل به في طنطا .. وبطريقة أو بأخرى كان فؤاد يتدبر أموره المادية ويرزق بعمل وراء آخر ..

فؤاد له عادات سيئة، وله بعض الخصال الحميدة .. عاداته السيئة تبدأ بالآفة التي تثير جنوني وهي زومه في أثناء استذكاره، كأنه ناسك بوذي مع مده في لحن نطقه للفرنسية مداً فلاحياً يثير السخرية والغضب .. وأيضاً نكاته التي لا يكف عن إطلاقها سواء كان الوقت مناسباً أم لا، فهي طريقته الدائمة لمواجهة مشاكله بالسخرية منها والضحك عليها حتى أصبحت عادة فيه .. أما أقدر عاداته فتتمثل فيما كان يفعله كل ليلة بعد انتهائه من دراسته حين ينهض صائحاً بنداء (يا بدوي)، ثم يأخذ مجلته الجنسية ليستحلب نفسه في الحمام وهو يتأوه متمتعاً، كأنها انتزع المرأة العارية من غلاف المجلة بتعويذة ما فضاجعها والتهم أنوثتها .. ثم يخرج من الحمام رافعاً رأسه بكل تبجح وكأن ما فعله هو إثبات لرجولته .. أما خصاله الحميدة فتتلخص في شهامته التي تظهر جلية إذا قصدته في شيء ما، وأحاديثه الظريفة العفوية التي كانت تؤنسني وتعلمني المزيد عن مصر وأهلها وحفاظه على الصلاة في مواقيتها .. بالطبع لا أستطيع نسيان أهم خصاله والتي أحببتها فيه، ألا وهي قدرته الفائقة على طهي الأكل المصري مما جعله أقرب للطهاة المحترفين من صحفيي بجريدة ..



السريبر الثاني بالغرفة كان لشاب يدعى جوني كوركى إيشوع .. لبناني مسيحي من أصل أرمني .. يدرس الفن التشكيلي في جامعة مارك بلوك بستراسبورج .. هو شاب أملد أمرد ملحد ذو بشرة بيضاء ووجه بياضوي وملامح نسائية، جعلتني أعتقد أنه شاذ بشعره الناعم الذي يسدله على كتفيه تارة، ويربطه على شكل ذيل حصان تارة أخرى ..

جوني هو ابن لكتاب مسرحي وأم معلمة، كانا يعيشان في بلدة الديية بمنطقة الشوف في جبل لبنان، حتى جاء عام ١٩٨٣، وهو العام الذي غير حياة جوني للأبد .. فحينما انسحبت إسرائيل من بعض الأراضي المحتلة أدى ذلك إلى اندلاع حرب أهلية سميت بحرب الجبل، كانت بين الدروز والفلسطينيين من جانب، والجيش

اللبناني من جانب آخر، كانت نتيجتها إضعاف قوة الكتائب وطرده المسيحيين من المنطقة، وتشريد أكثر من مائة وستين ألفاً، وقتل الكثير من العزل، كان من بينهم والدنا جوني اللذان قتلوا بوحشية أمام عينيه، لا شيء إلا لأنها مسيحيان .. فهرب جوني من تلك الحرب التي لم ير لها سبباً سوى الكراهية المتبادلة باسم الدين وهاجر إلى أخته الكبرى في مارسيليا ..

عندما شاهد جوني الأطفال والنساء والعجائز والشباب تختلط دماؤهم بأسفلت الطرق لا شيء إلا بسبب اختلافهم في الدين أو المذهب، صب جام غضبه على الأديان كلها ومقتها جميعاً .. فألحد وارتضى الوجودية ديناً بديلاً، أحس فيه بالسكينة والهدى والأمان الذين اعتقد أنه لن يجدهم في أي دين سواي آخر، رغم مجادلاتي الكثيرة معه حول دموية العلمانيين أو الملحدين، فهم أيضاً أصحاب مجازر ضد الإنسانية، وأبسطها ما كان يحدث في أفغانستان من الشيوعيين الملاحدة ..

لم تكن مجادلاتي مع جوني تقتصر فقط على إن كانت الأديان هي التي تسبب الحروب بين البشر أم لا .. بل كان يجادلني في وجود الله والقضاء والقدر والروح والجنة والنار والكتب السماوية ومعنى كلمة دين، وغيرها من الأمور التي لم أستطع الرد عليه فيها أحياناً، بسبب جهلي بأمور ديني حتى ينجدني فؤاد بعلمه وذكائه وإطلاعه الواسع فيهمز به شر هزيمة .. لكن سرعان ما يلجأ جوني إلى السلاح السري، وهو معايرة فؤاد بما يفعله كل ليلة وأنه ما كان ليفعل ذلك لو كان ملحداً لا يخشى من إقامة علاقات جنسية مع الفتيات قبل الزواج .. حينها يتهدج صوت فؤاد وتلين صلابته أمام جوني، فأعود أنا للمواجهة مرة أخرى بعد استخدام ما قاله فؤاد من معلومات فأوظفها بذكائي في حربنا الجدلية ..

وعلى الرغم من كل هذا، كان جوني شاباً مهذباً ولطيفاً .. وأهم من ذلك أنه لم يكن شاذاً بل كانت نعومته نتاج تعلقه اللصيق بأمه قبل مقتلها .. عشقه الأول بهذه الدنيا هو لابنة بلدته المطربة فيروز .. التي لا يستطيع الجلوس في مكان لا يصدق به

صوتها .. حتى إنه كان يهرع للبيت بعد محاضراته كي يستمع إلى غنائها الذي غادر أذنيه بضع سويعات فقط .. فيروز هي الوحيدة التي كانت تجبر جوني على نطق كلمة "الله"، حينما ينشد معها ويترنح في مكانه بفعل ألحانها وصوتها الهادئ العذب فيصبح من أعماقه "يا الله" .. حتى إنه سافر خصيصاً إلى بيرسي في عام ١٩٨٨ كي يحضر حفلها هناك، حيث غنت فيه لأول مرة أغنية "كيفك إنت" والتي ظل يرددها على مسامعي حتى كرهتها..

لم تكن أغاني فيروز تشكل عقبة لي في استذكاري، بالمقارنة مع طنين فؤاد الضوضائي .. لكن ما كان يزعجني من جوني هو احتلاله للغرفة بلوحاته العديدة وصوره التي يلتقطها بكاميرته، فلا نجد أنا وفؤاد موضع شبر نسير به في الشقة ..

ومع كل هذه التناقضات بيتنا .. واختلاف أفكارنا وطموحاتنا وميولنا وجامعاتنا، فإننا كنا أصدقاءً إلى حد كبير .. ووجدت نفسي أنسحب قليلاً من العهد الذي أوصاني به والدي تجاه الكفرة أمثال جوني ومدام سونيا، وأميل لهما .. لذا كنت أخرج رسالتيّ اللتين احتفظت بهما في مكان سري داخل حقيتي وقرأهما كلما مررت بأبي موقف طيب بيني وبينهما حتى لا يتسلل إلى قلبي حبهما مرة أخرى ..

أما عملي فقد كان في مكتبة تدعى "التاريخ الساحر" وهي مكتبة صغيرة بالقرب من كاتدرائية نوتردام ستراسبورج الشهيرة .. تحتوي على كتب في الفن والأدب والفلسفة والتاريخ وبالأخص تاريخ المدينة وخرائطها التي ينهال على شرائها السائحون ..

مالك تلك المكتبة رجل عجوز يدعى إيزاك ماريك .. أشعرني هيئته الوقور، ولحيته وشعره الأبيضان، وهذوؤه المائل لهدوء شجرة لا تلامس الرياح، مع انحناء ظهره ولطفه المبالغ فيه، بأني التقيت الجد الذي حرمت منه طيلة حياتي .. فلم أستطع منع نفسي من حبه، وبالأخص أنه كان متفهماً جداً لظروفي، ويشجعني دائماً على استذكار دروسي في المكتبة دون أي تشدد من ناحيته .. ومن فرط سروري بالعمل لديه ومعاملته اللطيفة اتصلت بخالتي سعاد لأشكرها من كل قلبي على إيجاد ذاك

العمل لي .. لكنها صدمتني حينما أخبرتني مبتهجة:

- إذن قد أحسن هذا اليهودي العجوز معاملتك .. سوف أصنع له حلوى "المصبعة" التي يحبها إذا ما زارني في باريس إكراماً لما يفعله معك ..

عندئذ شعرت بيبغض هائل ناحيته .. وتحولت معاملتي الطيبة له إلى عدائية غامضة مستترة .. ونفور حسي منه .. حتى استشعر ذاك التحول مني وحاول أن يعلم ما بي .. لكنني لم أصارحه بما تضرره له نفسي بسبب خوفي على ضياع الوظيفة، وبالتالي فقدي لمصدر رزقي الوحيد في ستراسبورج ..

في بعض الأحيان كنت أجد نفسي أميل ناحيته قليلاً حينما يربت كتفي سائلاً إياي في حنو:

- هل تواجه بعض المتاعب في دراستك؟

أو - هل تأقلمت على ستراسبورج؟

أو - هل تحتاج إلى إجازة؟

كانت رفته تستفزني ولا أجد لها مبرراً .. فيهودي معناها إسرائيلي .. وإسرائيلي معناها قاتل سفاح ييبغض الإسلام من كل قلبه ويسعى ليل نهار إلى تخريب بلادنا وهدم مقدساتنا ..

وفي يوم ما، مر قربي وداعب شعري برفق، طالباً مني بلطف الاهتمام بدروسي .. فسألته بعصبية وغضب عما كنت أكتمه بداخلي ..

- هل تعرف ما هو ديني أو ما هي جنسيتي؟!

- ديانتك هي الإسلام .. وجنسيتك هي المصرية .. هل أنا خاطئ؟!

هكذا أجابني برزانة وصوت وقور .. فاسترسلت في نبرقي العصبية قائلاً:

- ألا يمثل ذلك شيئاً بالنسبة لك؟!

- فابتسم ابتسامة رجل عجوز علمته الأيام الكثير من الحكمة ..
- إذن هذا كان سبب نفورك مني في الأيام الماضية .. ونظراتك العدائية ناحيتي ..
تخرجت قليلاً .. فأجبتة متلجلجاً:
- ليس بالضبط ..
- أنا أتفهم ما تفكر به .. لكن صدق أو لا تصدق فأنا أرى فيك حفيدي الذي
تمنيت وجوده قربي طيلة حياتي .. لذا أحبك ..
- جلس أمامي وأردف مبتسماً:
- ليس كل يهودي يا سليم هو إسرائيلي ويغض العرب .. وليس كل ما تراه
عينك أو تسمعه أذنك عن اليهود هو أمر مسلم به ..
- ماذا تقصد؟!
- لا أقصد شيئاً محدداً .. لكني لا أريدك أن تحكم على الأشياء من ظاهرها أو ما
تسمعه عنها .. فأنت شاب ذو عقل ناضج، يدرس الكيمياء، ويعلم أن التجربة هي
خير دليل على صحة الادعاء ..
- ثم اقترب برأسه مني ونظر في عيني نظرة حانية متوسلة يستطرد سائلاً:
- هل رأيت مني ما يزعجك .. هل ضايقتك يوماً ما كي تكرهني؟!
- أجبتة متوتراً:
- لا ..
- إذن ليس كل يهودي هو إسرائيلي ..
- أقنعني إيزاك بذاك الحديث المذهب العقلاني باختلافه عن صورة اليهود المرسومة
في ذهني .. أو أنني ارتحت لعثوري على مبرر ما أتحمج به أمام نفسي إذا ما لامني ضميري
على عملي عند يهودي .. فأصبحت علاقتنا جيدة لكنها لم تكن حميمة كما كانت قبل
علمي بديانته .. أو عدائته مثلما عاملته بعد اتصالي بخالتي ومعرفتي بهويته ..



إيزاك ماريك هو رجل يهودي عاش في ستراسبورج طيلة حياته .. حتى إبان الاجتياح الألماني لها واحتلالها ظل بها لم يغادرها .. فشهد مصرع كثير من بني جلدته أولهما والداه .. وعاش شهوراً عديدة يفر فيها من قبو إلى آخر كي ينجو من النازيين ومحرقهم .. وعندما عادت ستراسبورج إلى فرنسا مرة أخرى وهُزم الألمان في الحرب العالمية الثانية .. رجع إيزاك إلى مكتبته التي ورثها عن أجداده وعَمَرَهَا من جديد ثم تزوج من يهودية فرنسية اسمها فيولا، أحبها من كل قلبه .. لكنه مع تأسيس دولة إسرائيل واعتراف الأمم المتحدة بها اشتدت المشاجرات والخلافات بين إيزاك وفيولا بسبب رغبة الأخيرة بالهجرة إلى إسرائيل التي رآها إيزاك دولة عنصرية تشبه كثيراً ما أقامه النازيون في ألمانيا .. لكن فيولا رحلت وتركته وحيداً وصحبت معها ابنتها حاييم الذي لم يره إيزاك بعدها سوى بضع مرات كانت آخرها في خريف عام ١٩٨٠ حينما قدم حاييم وزوجته وولده أرثيل إلى ستراسبورج كي يقضوا إجازة هناك تحولت إلى مشادة بين الوالد وابنه بسبب عدم رضا إيزاك على التحاق ولده بالجيش الإسرائيلي وعمله فيه ..

لإيزاك نصيحة دائماً ما كان يرددها لي .. وهي الاهتمام بقراءة الأدب والشعر والفلسفة الفرنسية حتى يتسع أفقي وتنمو مهارتي اللغوية وأستطيع الولوج إلى روح اللغة الفرنسية .. فهو يؤمن بأنه ليس المهم معرفتك بمفردات لغة ما بقدر إدراك لروحها كي تتمكن منها وتصبح لينة طائعة على لسانك وعقلك .. فقرأت لألبير كامو وألفونس دوديه وجوستاف فلوير وفرنسوا مورياك وغيرهم، حتى امتلكت تلك الروح التي أخبرني عنها إيزاك وسهلت علي كثيراً تعاملي مع زملائي الفرنسيين بالجامعة أو زبائن المكتبة ..

اليهود بصفة عامة لهم تاريخ راسخ وحضور قوي وكلمة مسموعة في ستراسبورج

.. أغلبهم يبغض المسلمين والعرب ويؤازر إسرائيل معنوياً ومادياً .. وقلة قليلة تؤمن بها يؤمن به إيزاك .. إلا أن كلا الفريقين لا يتباغضان ولا يتشاحنان بشكل مؤثر أو ملحوظ، ويكتفيان بتجنب بعضهما الآخر إذا ما تعلق الأمر بإسرائيل ..

• • •

كانت حياتي بفرنسا في أولها رائعة بشكل لم أكن أتخيله .. فأموري الدراسية تسير دون عائق وعلاقتي بأساتذتي ممتازة .. عملي في مكتبة إيزاك مريح ومريح ورفاقي بالتزل علاقتي بهم أخوية إلى حد كبير رغم بغضي لأفكار جوني وديانة سونيا اللذين إذا ما تذكرتهما تتحول معاملتي لهما إلى جفاء حاد .. لكن معاملتهما الطيبة لي واهتمامهما اللطيف بحالي كان يحمد نار كراهيتي لهما في معظم الوقت اللهم إلا إذا احتد الجدال بيني وبين جوني حول أفكاره أو حين رؤيتي لسونيا وهي تثلث على صدرها في الصباح وتدعو الله أن يرحم زوجها باولو .. حينها فقط تستيقظ مشاعر العداء داخلي تجاههما .. أما إيزاك فقد حسمت أمري معه بمعاملة محايدة لا يتزعج فيها كلانا ولا يستطيع بها أحدنا التقرب من الآخر ..

أما أكثر الأمور الطيبة التي حدثت معي في ستي الأولى بالجامعة فهو ما دار بيني وبين البروفسير "جان ماري لين" حينما كان يلقي محاضرة احتفائية داخل إحدى قاعات الجامعة في حضور لفيف من أساتذة الكلية وبعض الطلبة كنت واحداً منهم .. نتحدث فيها عن "تعرف الذرات، وكيمياء الجزيئات الضخمة" وهو العمل الذي حاز عليه جائزة نوبل في عام ١٩٨٧ ..

فبعد انتهاء البروفسير جان من محاضرتة وفتح باب النقاش مع الحضور رفعت يدي فسمح لي بإيلاء وقور منه بسؤاله .. لكن ما حدث بيننا بعدها كان أقرب إلى المجادلة وليس مجرد سؤال ألقى عليه فيجيبني باقتضاب وينتهي الأمر .. تبادلنا النقاش مدة طويلة وتبدلت نظرات الحضور بانبهار وترقب بين وجهينا وهي تشهد تلك المعركة العلمية الشرسة بين طالب السنة الأولى العربي وبين أفضل بروفسير

كيمياء بالعالم آنذاك .. حتى انتهينا أنا وهو من تلك المعركة قانعين بالتعادل بينما وقد سَلَّم كل منا أمره للمستقبل كي يكشف النقاب عن نتيجة نقاشنا العلمي الساخن .. فصفق لنا الحضور مدة طويلة واتجهت الأنظار ناحيتي بفخر وإعجاب .. وبعد تلك الحادثة نلت شهرة واسعة بالكلية أجبرت الجميع على احترامي والإنصات باهتمام لآرائتي وأفكاري .. ثم انتهت سنتي الدراسية الأولى بتفوقي على كل زملائي واحتلال المركز الأول عليهم .. حينها فقط شعرت أنني قد بدأت في تسديد دين حب والدي لي والعهد الذي قطعت له لتنفيذ رغباته .. وتألّق ذاك الشعور داخلي بومضات ساطعة حينما كنت أرى نظرات بروفيسرات الكلية وأساتذتها نحوي كأنهم ييشرونني بلسان أعينهم بالمستقبل الواعد والمكانة الشاخنة ..



كاتدرائية ستراسبورج .. تحفة معالم العمارة القوطية ومن أبدع ما صنع الإنسان عبر الزمن .. إنه المكان الذي استأثر جماله بكل ما لديّ من إعجاب .. وازدراء في نفس الوقت .. وظللني مشهده بشغف طاغٍ لمدة عام كامل لمعرفة ما تحتويه جنباته وما يدور داخل أروقه .. هل تعلم يا دكتور علي أن لكاتدرائية ستراسبورج تاريخاً يفوق تاريخ نصف بلاد العالم؟ .. نعم، لا تندش .. كاتدرائية نوتردام تحولت بسحرها من مكان يتعبد فيه الناس إلى التعبد بها .. فمئذ تشييد بنائها الأول بالقرن السابع حتى الحرب العالمية الثانية أحرقت وهدمت ودُمرت أكثر من مرة، لكن ولع الناس بها أبى إلا أن تظل شاخنة كمبناها العملاق الذي ظل لما يزيد عن القرنين من الزمان هو الأطول في العالم .. الكاتدرائية هي قصة عشق خاصة بين أبناء ستراسبورج وبينها .. كأنها العמוד الذي إذا نزع عن المنزل تكسر وتشرخ .. تلك هي الكاتدرائية بالنسبة لستراسبورج .. وذلك هو سر استمراريتها ..

على مدار عام كامل كنت أطلع بانبهار ما كتب عنها في الكتب التي أبيعها للسائح .. وأسرق النظر إلى هيكلها الذي هو أشبه بقصر إمبراطوري فخيم من كثرة ما به من تماثيل منحوتة وزخرفات منقوشة على الجدران الرملية اللون والتي جيء بحجارتها خصيصاً من جبال فوسجس .. حقيقة لم أملك إلا تقدير مجهود رجالها بدءاً من الأسقف سانت أربوغاست انتهاء بأروين فون شتاينباخ .. كما لم أستطع الكف عن احتقار قيمتها وما تمثله من مكانة دينية لدى المسيحيين .. وأيضاً لم أستطع منع نفسي من الضحك والسخرية منها إذا ما قرأت عن أحد أساطيرها الخيالية التي

نسجت حولها، وبالأخص قصة الشيطان الذي كان يركب الرياح ويحوم حول الكاتدرائية فلمح صورته منحوتة عليها مما أثار غريزة التطفل عنده نحو معرفة هل هناك المزيد من الصور له في الكاتدرائية أم لا، فدخل إليها واحتجز داخلها بفعل قوة إلهية ما .. فلا هو يستطيع العودة والخروج منها ولا الريح التي تنتظره كي يمتطيها تكف عن العواء حول المبنى ..

كل ذلك دفع حشود الفضول داخلي إلى صفوفها الأمامية كي أنقاد وراءها وأشبع رغباتها فأدخل إلى الكاتدرائية التي أعترف بأنها سحرتني بكل ضراوة منذ أول يوم رأيته فيها .. لذا انطلقت إلى ما كنت أحرمه على نفسي عاماً كاملاً .. ألعن في بالي شيطان رغباتي وما أعانيه من فراغ إجازتي الأولى التي قضيت منها أسبوعين لدى أمي في باريس ثم عدت أحصي الرمال حولي حيث لم أجد ما يلهيني ..

كان موعدي معها في يوم أحد والذي دائماً ما يصاحبه ضجيج صاحب لمحيط الكاتدرائية برنين أجراسها العالي .. دخلت إليها بينما يتصارع داخلي فضول واشتمزاز تجاهها فصرع الأول الثاني حيناً وطئت أقدامي صحنها ومشيت متلفتاً حولي تجاه قاعتها .. فرأيت مطران الكاتدرائية بردائه الأحمر المطرز بنقوشات مذهبة وانحناءته الطفيفة ووجهه الأبيض يلقي عظته التي لم أفهم من كلامها الكنسي أي شيء حينما كنت جالساً أنصت له لبعض الوقت في مقعد خشبي طويل بآخر صف .. فنهضت من مقعدي وأخذت أتأمل تلك اللوحات المرسومة لما يسمونه المسيح ابن الرب وأمه العذراء ومعارك الخير والشر وبعض التماثيل المنحوتة بعناية فائقة، حتى توقفت أمام ساعة الكاتدرائية الفلكية الشهيرة التي كانت تمثل إعجازاً علمياً حينما ظهرت إلى الوجود .. والتي أعتقد أنها مازالت تمثل ذاك الإعجاز حتى الآن بتصميمها المذهل ودقتها الصارمة وتاريخها العريق كتاريخ المكان الذي يحتضنها بين ضلوعه ..

وبينما أنا مسلم عقلي لجدران الكاتدرائية تشد أوتار اندهاشي كيفما شاءت تبدت

لي راهبة بعباءتها وخمارها السوداويين القاتميين وياقتها البيضاء الثلجية المحيطة برقبتها حتى مطلع صدرها، يخط فيها طرفا قلادة مدلاة تحمل صليبا فضيا .. دنوت منها بخطوات متحفظة فرأيتها خاشعة متبلة تتمتم بصلواتها أمام تمثال صغير للمسيح وهي في أعماق أطوار التضرع .. حينها فقط هبط على رأسي الوحي الشيطاني الذي غير حياتي للأبد!

أطلت النظر إليها وتأملت في وجهها الملائكي الذي يشبه إلى حد بعيد ذلك الطهر المرسومة به صور العذراء وتمثيلها في أرجاء الكاتدرائية .. إلا أن طهرها كان طبيعياً ناصعاً وليس مصطنعاً بريشة فنان لامرأة لم يرها .. وفجأة شُج ذهني وسالت منه أفكار شيطانية .. وتلبسني إبليس الكاتدرائية المحبوس داخلها، حينها أخذت أرمقها شزراً واستهزاء وأقول في نفسي: هل أنت حقاً كما تدعين من الطهر والنقاء أيتها الكافرة أم أنك كاذبة مدعية مثل كل الكفار؟ .. هل أنت حقاً قانعة مقتنعة بما تفعلين أم أنك مكروهة؟ .. هل تدعين ربك كي يتقبلك بين عباده الطائعين أم ليخلصك من عذاب الرهينة وما فيها من تقشف وتبتل؟ .. هل وجهك مرآة لباطنك أم أن كليهما معزول عن الآخر؟ .. أنا أراهنك أيتها القديسة أنك لن تصمدي أمامي بضع جولات حتى يسقط ما ترتدينه من أقنعة الطهر والعفاف عن وجهك ..

في تلك اللحظة أتاني صوت خفيض يحبو داخل أوصالي يحذرنى من تلك الأفكار البغيضة ناصحاً: ويحك يا سليم .. ماذا تقول؟! .. هل تريد مصادقتها والتلاعب بها .. أراك مفتوناً بنفسك ومغروراً بها .. دعها وشأنها فهي مجرد راهبة مسكينة لا حول لها ولا قوة .. مصادقة امرأة لا تحل لك حرام .. والزنا يا سليم حرام .. وخداع الآخرين حرام .. والله لا يرضى بها تفكر به ..

لكن إبليسي أوقعني داخل شرك محاك بصنعة .. فهتف داخلي قائلاً: يا سليم .. اعتبر ذلك جهاداً .. أما كنت تود الجهاد مثل أبيك .. ها قد حانت فرصتك كي تخرب على تلك المرأة دينها مثلما فعل أجدادها في الأندلس وحملات الصليبيين .. هل

تعتقد أن فتنتك لتلك المرأة عن الطريق الذي يريد لها أهل دينها أن تسلكه ليس انتصاراً؟ .. بل هو ضربة موجعة تهدم بها تلك العقيدة الزائفة .. اسلخ روحها يا سليم عن جسدها مثلما فعلت مع كريستين .. أتذكر كريستين تلك المسيحية الكافرة التي أرادت غوايتك لتدمير مستقبلك لكنك انتصرت عليها وجعلتها تتجرع من كأس مكيدتها الحمقاء .. هيا يا سليم .. الآن هي فرصتك كي تثبت لأبيك أنك فعلت للإسلام ما يفخر به ..

وكان ذاك الوسواس هو الذي خرب حياتي وزاغ بي عن طرق مقاصدي .. حتى إنني الآن أكاد أؤمن بأن تلك الكاتدرائية بها شيطان مسجون وجد ضالته في رأسي فكنت أغلاله وأطلق عنانه لينثر الشرور على الناس ويحل بالمصائب على الرؤوس ..

• • •

في صباح اليوم التالي وقفت عند شباك الغرفة بالنزل أحلق ببصري إلى نهاية ما امتد إليه وأغوص في بواطن عقلي حتى جذوره، محاولاً ابتكار خطة ما توقع تلك الراهبة في برائتي وتأسرهما في زنازين إرادتي .. كان شخير فؤاد يزعجني بل يفجر كل خطة في مهدها قبل نضوجها في مخي .. وكأن الله قد بعثه إلي كي يرجعني عما نويت فعله .. الغريب أنه كلما فرت فكرة من رأسي أتتني أخرى أذكى منها وأشد إحكاماً .. وكأن الشيطان القابض على خيوط نفسي أرن لا تنطفئ عزيمته ..

ظللت هكذا حتى ارتفع قرن الشمس في الصبح .. واستيقظ كل من فؤاد وجوني يشاغب كل منهما الآخر كالعادة، بينما أنا واقف بالشرقة في هدوء المفكر المتدبر .. وفجأة تفتق ذهني عن فكرة جهنمية حاكتها أيد شيطانية لا تعرف إلا الشرور ولا تورده إلا المهالك. لكنني كتبها حتى ذهب فؤاد إلى عمله ولم يبقَ في الغرفة غيري وجوني .. فأمسكته من يده وأقعدهته إلى جانبي ثم تمثل وجهي بوجوم وهموم وأنا أقول له بنبرة اليأس قليل الحيلة:

- أريد أن أحدثك يا جوني في أمر قد أصابني ولا أجد خيراً منك يفتيني ويشور عليّ ..

- ما بك يا سليم .. فغمك باد على وجهك منذ الصباح؟!

- أنا أحب يا جوني ..

- تحب؟! .. إذن ما المشكلة؟

- المشكلة أن من أذهبت عقلي بحبها راهبة ..

- راهبة!

- نعم يا جوني .. أترى مصيبيتي ..

- إنهن لا يتزوجن ولا يصادقن ووهبن أنفسهن للرب .. ويح حظك يا سليم ..

- أشر عليّ بما يجب فعله .. فلو لم أنل حب تلك الفتاة سأموت يا جوني .. أرجوك

لا تتركني ..

وقف جوني ملتوياً وأخفض رأسه مستوقداً عقله كي يجد لي حلاً وهو مرسوم مسبقاً في عقلي، لكن دهائي دعاني إلى ادعاء قلة الحيلة حتى إذا أخبرته بخطتي صادقتني عليها، وساعدني على تنفيذها ..

- وجدتها ..

هكذا هتفت بها بلمعان في العين وابتسامة واسعة ونفس مبتهجة كأني كنت منهمكاً في التفكير مع جوني وسبقه عقلي بالفكرة .. فاندفع ناحيتي يسألني بشغف عما تفتق عنه ذهني ..

- ها .. هل وجدت حلاً؟

- نعم وجدت حلاً عبقرياً سيمكّني من رؤيتها والاقتراب منها والتأثير عليها

خارج أسوار الكاتدرائية .. فأمتلك قلبها وأحقق أمنيّتي ..

- ما هو؟! .. هيا أفصح سريعاً ..

أطرقت مبتسماً .. وكسيت وجهي بمساحيق الضعف والمسكنة، أقول له بنبرة متوسلة خائفة:

- أخشى أن أقول لك عما أفكر فيه فلا تساعدني ..

- كيف تقول ذلك؟! .. أنت صديقي وسأقف جانبك دائماً ..

- إن ما أرغب منك فعله غريب بعض الشيء وسيثير استهجانك .. ولن ترضى القيام به ..

- هيا قل وأعدك بأني سأساعدك أيأ كانت فكرتك مجنونة ..

- حقاً؟

- نعم ..

فاقتربت منه ومسحت بكفّي على وجهه بنعومة .. فاستغرب ما أفعله وتلك النظرة الساطعة في عيني ..

- أريد منك تمثيل دور امرأة ..

- نعم؟!

هكذا صاح ممتعضاً .. فعدت إلى إدعاء البؤس مرة أخرى ..

- ألم أقل لك إنك لن ترضى؟

دار برأسه إلى الناحية الأخرى وهو يحرك كتفيه ويقول متلعثماً:

- ليست الحكاية برضاي من عدمه .. بل الفكرة في حد ذاتها مرفقة ..

- إنه الحل الوحيد أمامي .. أرجوك يا جوني لبّ طلبتي وأعدك بتنفيذ كل ما تريده

مستقبلاً .. أم أنك مازلت تتمسك بمسيحيّتك القديمة وترفض الجمع بيني وبين

راهبة أحبها قلبي من سويدائه احتقاراً لي؟!

- ماذا تقول؟! .. أية مسيحية وأية راهبة تتحدث عنها؟! .. أنا لا أؤمن بأي دين وأنت تعلم ذلك .. وكل ما أؤمن به حالياً هو أنه من حَقك الحصول على الفتاة التي أحبيت بعد تخليصها من تلك القيود الدينية الخرفة ..

- إذن ستساعدني؟

فأوما برأسه موافقاً على ماضٍ .. فانقضضت عليه محتضناً كي أجذب تلك الموافقة في نفسه وأوصلها إلى مرحلة الاقتناع .. وهكذا ضربت عصفورين بحجر .. بعد أن أثرت بواعث الإلحاد داخل نفس جوني كي أنال تلك الراهبة المسيحية ..

- لكن أخبرني لمَ تريدني أن أتقمص دور امرأة .. وكيف سيساعدك ذلك على تحقيق مرادك .. وكيف عرفت تلك الراهبة؟

- حسناً يا صاحبي .. سأقول لك .. لكن لا تخبر فؤاد بها أحدثك عنه ..

بدأت في تلقين جوني دوره الذي رسمته له .. وتحفيظه ما يجب عليه القيام به .. محذراً إياه من الخطأ، ومستعظفاً ما بداخله من رومانسية حاملة ..

• • •

كم أتذكر قبج خطواتي المتلصصة الخبيثة التي حُمت بها حول تلك الراهبة وهي تتعبد بالكاتدرائية كما كانت تفعل في الأحد الذي قبله بنفس المكان وبنفس الخشوع .. تمعنت بها بنظرات حادة كما يتفرس الذئب بغنيمته اللاهية عنه بسعة الرزق أمامها .. اقتربت منها وأنا أبتسم متخيلاً حالها عندما أنهى منها .. وأسأل نفسي هل سيتهي بها الحال مثل كريستين أم أشد وطأة أم سأهزم أمامها وهو الاحتمال الذي لن أقبل به أبداً .. وحينما دنوت منها وصار ما بيني وبينها لا يزيد على الشبرين .. تلقت أذناي ما كانت تتلوه من صلاة وأحست نفسي بما تحتويه من تقوى وورع .. ويا ليتني توقفت عند هذا الحد وعدت أدراجي بل قطعت صلاتها بصوتي الخافت المهذب ..

- معذرة أيتها الأخت المباركة ..

التفتت إليّ ببطء ونظرت ناحيتي بعينيها الخضراوين اللتين ما إن رأيتها حتى استقبلت منها رسالة غير مرئية لم يفهمها أحد في المكان غيري، بما فيهم صاحبة تلك العينين وهما تترجاني بالابتعاد عنها وعدم التسبب في أذاها .. فأجابتنى بصوت رقيق عذب:

- نعم سيدي ..

تلجلجت من فرط الطهر الذي باح به صوتها وأنا أرد عليها قائلاً:

- عندي مشكلة أيتها الأخت ولن يستطيع أحد مساعدتي غيرك ..

- أنا؟! ..

- هكذا أجابتنى باندهاش وقور .. قبل ردي عليها مسترسلاً:

- لي أخت مريضة جداً .. يقول الأطباء إن أملها ضعيف في الشفاء وأيامها في الدنيا معدودة .. وقبل يومين اشتدت عليها الأوجاع وسقطت مغشي عليها .. وحينما استيقظت كانت متهللة فرحة .. سألتها عن سر سرورها .. فقالت لي إن العذراء قد أُنْتها في تلك الغشية وأخبرتها بأن براءها سيكون على يد الراهبة التي تصلي وحيدة أمام تمثال الرب يسوع في كاتدرائية ستراسبورج المباركة ..

ظلت الراهبة مذهولة بعض الوقت .. تشعر بفرح غامر واضطراب هائل .. فأطبق الصمت عليها بعدما أخبرتها بتلك القصة المختلفة .. ثم سألتني مرحة:

- هل كانت تقصدي أنا؟! ..

- أظن أنه لا توجد هنا راهبة غيرك تصلي وحيدة أمام تمثال يسوع ..

هكذا أجبتها بثقة مطمئنة وإبتسامة خفيفة .. قبل أن تسألني بشغف طفل يستعد لفعل أي شيء كي ينال الحلوى:

- لكن هل أخبرتها سيدتنا العذراء كيف أساعدها؟
- أعتقد أنك لو جئت معي لرؤيتها والصلاة لها بقربك الطاهر وحضورك المبجل فسوف تبرأ من سقمها وأوجاعها ..
- حسناً سأخبر الأم باليس وآتي معك فوراً ..
- طوال الطريق الذي سرنا فيه بجانب بعضنا، لم يشغل بالي سوى شيئين، أولهما هو نزع ذاك العفاف الذي آمنت بزيفه عن وجهها .. وثانيهما هو أن يكون جوني قد ضبط المساحيق على وجهه وتبهاً جيداً لتنفيذ التمثيلية التي سنقوم بها للإيقاع بتلك الراهبة في شرك ذنب لا يعرف الرحمة ..



- اقتربي أيتها الأخت المباركة .. يا من حملت صورتك أمنا العذراء في يدها الرءوف حينها جاءتني في غشيتي ..
- هذا ما هتف به جوني بصوت أنثوي ملتاع حينما دخلنا إلى الشقة بالترز الذي كانت سونيا غائبة عنه كعادتها في نهار كل أحد، حيث تزور قبر باولو وتتحبب بجانبه بضع ساعات ثم تعود لترها وتعيش مع أشجانها إلى الأحد الذي يليه، فتعود إلى قبره كي تجدد دماء بؤسها مرة أخرى ..
- ابتسمت ابتهاجاً حينما رأيت ذاك الإلتقان من جوني لدوره الذي لقطته إياه، وأنا واقف خلف الراهبة حيث كانت تقترب منه في بطء وتوتر كأنها لا تعرف ما يجب عليها فعله .. فأمسك جوني يدها بحركة خاطفة من قبضته وقبلها بقوة وراح يصيح راجياً:

- ساعديني أيتها الأخت المباركة .. ساعديني فأنا أنألم بشدة ..
- جلست الراهبة إلى جانب رأسه ثم أمسكت بصلبيها وراحت تتلو:

- أمنا العذراء الطاهرة .. تمجد اسمك .. وتقدس نورك .. يا ملكة السموات ..
يا موزعة النعم .. تعطفي بنظرك الحاني على تلك المسكينة التي أضناها المرض
وعذبتهآ آلامه ..

قام جوني ببعض الحركات المشنجة كأن شيئاً ما مسّه وأنا أكاد أنفجر ضحكاً على
ذاك الموقف كله .. بيننا راحت الراهبة تردد أدعية عديدة إلى أن أغمض جوني عينيه
راسماً على شفاهه ابتسامة أبهجت الراهبة وجعلتها تصدق قوة إيمانها وصدق صلاتها
ورفعة قيمتها لدى أهل السماء .. وبعد أن ودعتنا كي تعود إلى الكاتدرائية .. ظللنا
نضحك أنا وجوني إلى آخر الليل على ما جرى، حتى جاءنا فؤاد فأكملنا ضحكنا
بالسخرية منه ومشاكسته وهو يتحرق فضولاً بداخله كي يعرف سر ضحكنا ونشوتنا!

• • •

بعد ذاك الأحد مر أحدان آخران، قمت فيهما باستدعاء الراهبة إلى شقتنا كي
تعالج أختي "جوني" بحجة الآلام التي تعاودها مرة أخرى، وأنه لا أحد قادر على
تخفيف حدة ذلك المرض عنها سوى صلاة الراهبة إلى جوار رأسها، ومسحها بكف
يدها المبارك على مواطن العذاب في جسد أختي الوهمية .. لكن حينما جاء الأحد
الثالث عزمت على التهام فريستي .. على الرغم لحاجتي للمزيد من الوقت حتى
أستطيع تنفيذ مآربي دون صعوبات أو عقبات .. لكن ثقتي في نفسي وغروري
المتأجج أقنعاني بأن لدي القدرة على الحصول على أي امرأة أشتهيها في أي وقت
أريده .. لذا أعددت العدة في لقائنا الثالث، كي أنال منها ما أبتغيه .. فدعوتها بنفس
الحجة وأتيت بها إلى التزل في نفس الوقت .. وعندما دخلت إلى الشقة لم تجد جوني
"أختي" في سريره الذي اعتاد التهارض عليه .. فسألتني مستغربة:

- أين أختك؟!

- يبدو أنها استدعت الإسعاف كي تصحبها إلى المستشفى .. فقد كان الألم مبرحاً
لذا لم تحتمل انتظار مجيئك ..

- حسناً سأذهب أنا الآن وأعود إليها في وقت لاحق ..
- فانتفضت من مكاني ووقفت حائلاً بينها وبين الباب أفكر بسرعة لأجد سبباً أقنعها به للبقاء ..
- أرجوك لا تذهبي .. فقد تكون أختي بحاجة إليك حين عودتها ..
- حسناً .. سأنتظر ..
- تنهدت راحة بداخلي .. وذهبت إلى المطبخ كي أعد لها شايّاً تشربه، ثم سألتها عن عدد قطع السكر التي تريدها .. فطلبت واحدة فقط .. عدت إليها حاملاً صينية بها كوبان من الشاي .. لي ولها .. وسحبت الكرسي وجلست أمام سرير جوني الذي كانت تقعد عليه .. فداعبتها بنية فتح مجال للكلام بيننا ..
- أعتذر مقدماً .. فالشاي الذي أعده يبدو طعمه كأنه مطهر للأسنان ..
- نلت ابتسامة من فمها .. وهي ترد عليّ بتهذب:
- الشاي جيد .. لا داعي للاعتذار ..
- أعتذر مرة أخرى على إزعاجك .. فثلاثة أسابيع أزعجك فيها بأوجاع أختي .. وأرهقك بالمجيء إليها ..
- لا .. لا داعي للاعتذار .. فهذا واجبنا تجاه رعايا الرب ..
- أشكر لك كرم أخلاقك يا أخت
- سكت لبرهة وأشرت برأسي مستفهماً ناحيتها لتخبرني باسمها ..
- هيلين ..
- أشكر لك كرم أخلاقك أيتها الأخت هيلين ..
- عاد الصمت بيننا .. قبل أن أقطعه بصوت هادئ به نبرة حيرة:

- هل تسمحين لي بسؤال؟

- نعم .. تفضل ..

- لم اخترت أن تكوني راهبة على الرغم من أنك جميلة وشابة ولم تنهلي بعد من ملذات الدنيا إلا اليسير؟!

- كي أصبح خطيبة المسيح في الملكوت ..

- خطيبته، أي تتزوجينه؟!

- لا ليس خطيبته بالمعنى الذي يفهمه الناس .. لأن الراهبة لا تتزوج في الدنيا ولا الآخرة ..

- اعذري ضعف معلوماتي الدينية .. فأنا علماني .. لكن لي استفسارا أرجو أن تسمح لي به ..

- تفضل ..

- إذا كنتِ لن تتزوجي في الدنيا والآخرة وتمتعي بجسدك، فهل هذا عدل، بالأخص بعد امتناعك في الدنيا عن كل شهواتك ورغباتك؟

- في الجنة لا توجد شهوة كي نتلذذ بها .. إنه مكان جميل نحيا به في رحاب الرب ورضاه .. أنا لا أنظر إلى طاعتي للرب على أنها استلاب بل حرية .. وابتعادي عن الملذات ليس فقرا بل امتلاك لروح غنية .. وتجنبي الزواج ليس امتناعا بل عفة سيكافئني عليها الرب في الجنة ..

تحدثنا طويلا .. وكان حديثنا أقرب للمجادلة .. أو محاولة حثيثة منها لإقناعي بما تؤمن به .. ووجدتني بذلك الكلام سأجرها إلى حصن تدينها، فيحول بيني وبين ما أريد فعله بها، لذا غيرت مجرى الحديث فجأة سائلاً إياها عن حياتها السابقة .. أو أين تقع بلدتها ..

- أنا من ولاية "بادن فورتمبيرج" بألمانيا ..
- تلك التي توجد بها الغابة السوداء القريبة من هنا؟
- نعم ..
- وما الذي جاء بك إلى فرنسا .. ألا توجد كنائس بألمانيا تترهبين بها .. أم أن لغتك الفرنسية أقوى من الألمانية؟
- ابتسمت مجاملة لمفاكحتي قبل أن تجيبني بصوت يحمل حزناً دفيناً:
- إنها قصة طويلة ..
- نظرت إلى ساعة يدي مدعياً متابعتي للوقت وقلت لها:
- أمانا نصف ساعة حتى تأتي أختي من المشفى .. سأصمت فيها تماماً ..
- أشاحت بوجهها إلى الناحية اليمنى، وكأنني قد أقحمتها إلى عالم سوداوي كئيب بدا بعض يؤسه على ملاحظتها .. ثم عادت تنظر إليّ بعينين لم أبلغ عمق ما فيها من اتساع ..
- هيا .. أرجوك .. أخبريني قصتك .. فقد أثرت فضولي أيتها الأخت المباركة ..
- أطرقت برأسها وبدأت منهكة من تداعي الذكريات على عقلها قبل أن تنطق بأي حرف منها ..
- عندما كان والدي أوليفر شفانشتيجر ملازماً بالجيش النازي لم يكن مثل معظم أقرانه من الضباط أو حتى الجنود الذين أطفأت وحشية الحرب نور ما بداخلهم من خير وقبرت ما فيهم من إنسانية .. بل كان مرهف الحس، رقيق المشاعر، مهذباً إلى حد بعيد، يمقت الحروب وهدر الدماء .. وحينما احتل الألمان ستراسبورج كان أحد ضباط الجيش المنوط بهم إخضاع المدينة للسيطرة النازية التي انخرط جنودها في قتل الأبرياء بدم بارد، بينما عزف والدي عن الانجراف مع زملائه في حماسهم للقتل

والتعذيب .. وفي يوم قامت سريره بأسر عدد من المقاومين الفرنسيين وحُكم عليهم جميعاً بالإعدام .. كان من ضمن أولئك المقاومين فتاة فرنسية تدعى ليليان .. أوقعت أبي في أسر حبها مثلما أوقعها زملاؤه في أسر المعتقل النازي .. أذهبت عقله وأهبطت بكبريائها وأنوثتها أحاسيس قلبه .. فقام بتفريدها من الأسر دون علم أحد .. وبعد ذلك كان يأتيها في مكان سري اتفقا عليه حتى يبلغها بالمعلومات عن تحركات سريره وخططها مقابل أن تمن عليه بابتسامة أو لمسة حانية من كفها .. لكنها وقعت مرة أخرى في الأسر وتم إعدامها فوراً .. حينها جن جنون أبي وكاد يقتل نفسه، لكنه فضل الانتقام ممن قتلوها .. لذا عمل مع الفرنسيين بنشاط مذهل دون أي مقابل مادي كي يروي ظمأ رغبته بالثأر ممن سفكوا دم الفتاة التي أحب .. وبعد انتهاء الحرب بانتصار الحلفاء .. قدم الفرنسيون لوالدي مبلغاً جيداً من المال كمكافأة لتعاونهم معهم، وسكننا .. حينها فقط أحس بعار خيائته لرفاقه وتسببه في إبادة معظمهم .. فتولاه اكتئاب جارف وحاول الانتحار عدة مرات، حتى تم إدخاله إلى مصحة عقلية عاش بها أكثر من ١٤ عاماً، خرج بعدها معافى إلا من رواسب ضئيلة من عذاب الضمير بسبب ما فعله قديماً تجاه أهل بلده .. لكنه بعدها عرف أمي التي كان اسمها للمصادفة الغريبة ليليان .. أحبها بقدر ما أحب ليليان الأولى فتزوجها .. وحينما دخلت أمي المستشفى كي تلدني توفيت وخرجت أنا إلى الدنيا سالمة .. ويسبب ذلك عاد أبي إلى الاكتئاب مرة أخرى وأحس أن الله يعاقبه بخيائته لرفاقه في الماضي .. فعاملي بمزيج غريب من الحب والبغض .. كان يجيني لأنني ابنة من أحب فيعطف عليّ .. ويغضني لأنها ماتت وهي تلدني فيوغر في كراهيتي حتى إنه كان يضربني بعنف دون أي سبب .. فأصبحت أيامي معه أقرب إلى الجحيم على أعتى عصاة الرب .. إلى أن حدثت المعجزة عندما تعرف أبي بالقس سياستيان فعالجه من هلاوسه بكلامه المبارك الذي كان يخرج فواحاً بالطبيب من فمه النقي .. فتحول أبي إلى شخص طيب هادئ لطيف كما كان في شبابه .. وأضحت أيامي معه كأنها نزهة في رياض الجنة لا يصيبني فيها إلا ما رغبته من خير .. وبعد وفاته عذمت على الرهينة

إكراماً لذكراه وتكفيراً عن ذنوبه وردا للجميل القس الذي غيّر حياتنا لنعيم مبهج دام
فسحة من الوقت قبل وفاة أبي ..

- قصتك غريبة جداً أيتها الأخت هيلين!

- يجب أن أذهب الآن .. وأعدك بالعودة إذا ما احتاجت إليّ أختك ..

هذا ما قالته وهي تسرع الخطى نحو الباب، تكفكف الدمع الذي ذاب من بين
جفونها .. لم أمنعها، فقد ساء الوضع تماماً بحكايتها الحزينة وبما دار قبلها من جدال
ديني حول الرهينة .. لذا تركتها تذهب على أن أحاول معها مرة أخرى في الأسبوع
المقبل، وأن أتولى حينها قيادة دفة الحديث حتى أحرکها كما أرغب إلى فخّي الذي
أعدته ..

• • •

- دعني أأخبر ما فعلته .. قابلتها في الأحد الذي يليه كالعادة ولم تتل شيئاً منها؟

- لا يا دكتور علي .. لم أستطع الانتظار إلى الأحد الذي يليه .. بل نفذت غرضي
منها بعد يومين فقط من لقائي ذاك معها .. حينما كان جوني وفؤاد يعملهما، وسونيا
بالسوق ..

- كيف؟!

أتيتها يوم الثلاثاء إلى الكاتدرائية بوجه فزع وأنفاس لاهثة، كأن وحوشاً ضارية
كانت تطاردني طوال الطريق حتى لقيتها .. سألتني بخوف عما أصابني أو أصاب
أختي .. فأجبتها أنها ليست بخير وتحتاج لرؤيتها فوراً .. فنلت اهتمامها واستحوذت
على قلقها مما دعاها أن تأتي معي إلى المنزل دون تردد ..

دخلت إلى الشقة تجول بناظريها في المكان بحثاً عن مريضتها المؤمنة لكنها لم تجدها
مثلاً حدث قبل يومين .. فاستدارت ناحيتي تسألني متعجبة عن مكان أختي ..

وكانت إجابتي عليها صمت تام وتحديق في عينيها بنظرة إعجاب ووله أنقستها وأنا أقرب منها بخطى شبه ثابتة، ثم أمسكت بيدها وسرت بها ناحية السرير وهي شاردة مستسلمة .. حينها صاح مرعداً في رأسي حديث رسول الله "ليطعن رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له"، لكن سرعان ما شد شيطاني لجام رأسي بكلماته التي فحَّ بها في عقلي قائلاً: "إن ما تفعله جهاد يا سليم فأقدم ولا تدبر .. اهزم تلك الكافرة واخلع عنها تدينها الزائف واكشف عورة دينها الفاسد .. الحرب خدعة كما قال الرسول وهو يحدث نعيم بن مسعود الذي كتم إسلامه وعاد للأحزاب يوقع بينهم ويفرقهم عن حصار المدينة على الرغم مما كان يسمعه من سباب في رسول الله ودينه، حتى أنجى الله على يديه دماء المسلمين .. وهل سباب الرسول أعظم عند الله من الزنا يا سليم كي تتراجع عن هيلين؟! .. اكنم إسلامك مثله وتظاهر بالكفر حتى تنال منها فتتقم لألوف المسلمين الذين صُلِّبوا وقُتلوا وشُردوا على أيدي أبناء الصليب من بني جلدتها .. هيا يا سليم لا تحذل والدك ولا تتردد في خوض معركتك" .. ثم عاد الصوت الهرم الخفيض يهتف داخلي قائلاً: "لا تأوّل كلام رسول الله تأويلاً شيطانياً باطلاً .. إن ما تنوي فعله زنا يا سليم، وليس له اسم سوى ذلك .. تذكر قول الله (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) لكن تأثيره فيّ كان ضعيفاً باهتاً مثل هرم نبرته الخافتة .. فأجلست هيلين إلى جانبي وهي خائفة مرتبكة، وأسندت ظهر يدها التي كنت ممسكاً بها إلى فخذه .. ثم همست لها بصوت رخيم ودود:

- إن أختي قد برأت على يدك .. لكن هناك سقيماً آخر بهذا البيت يحتاج مساعدتك ..

جاهدت لتخرج حروف كلماتها من فمها، تسألني باضطراب:

- ماذا تريد مني؟! ..

- أريدك أنت .. لقد تعلق قلبي بطهرك، وألف وجهك، وطابه حضورك .. أفكر

فيك طوال غيابك، وعندما أراك لا أفكر إلا في تلك اللحظات اللعينة التي ستركيّني فيها ..

ارتجفت بوهن .. ثم انتفضت تركض نحو الباب لكن أصابعي القابضة على أناملها لم تفلتها .. جذبتها نحوي فوقفت متسمة أمامي .. جاحظة بعينها في وجهي وأنا أخبرها قائلاً:

- إذا تركتني سأموت ..

- أرجوك أفلت يدي ودعني أخرج ..

- لن أدعك تأخذين قلبي وترحلين هكذا .. يجب أن تعطيني قلبك مكانه ..

نهضت من فوق السرير ثم مسحت يدي على رأسها فأنزلت ستر شعرها بلمسة رقيقة لم تشعرها فانكشف شعرها الذهبي الناعم ورفاً وميضه بعيني .. ألصقت جسدي بجسدها حتى أحس ظهري بارتعاشة صدرها واشتدت أنفي أنفاسها المتلاحقة .. ثم بدأت أخفف من قوة ذراعي المحيط بها حتى أعدتها إلى مكانها متدلية من كتفي .. لكن هيلين لم تهرب كما توقعت .. بل ظلت ملتصقة بي، تحديقاً وكأنها مغنية تماماً عن العالم قبل أن تسألني بخفوت وذهول:

- لم أنا؟!

- لأن قلبي لم ير غيرك ..

هكذا أجبتها بنبرة عاشق وجد ضالته ومسافر أنهكه ترحاله .. ثم شرعت بأصابعي داخل رداثها الأسود أتحسس مفاتها برفق .. وألهب اشتهاوات بدنّها حتى لانت تماماً بعد تيسر دام طويلاً .. تأنيت في التهامها حتى لا تستيقظ من الغفلة التي أصابتها من وسامتي أو من عذوبة كلامي .. فقالت لي بصوت مهتاج خفيض:

- لكنتي راهبة ..

فطبتت قبلة خفيفة على خدها وهمست في أذنها سائلاً:

- وهل الراهبة لا تحب؟!

- نعم .. يجب ألا تنزلق للنزوات ..

التقمّت شفتها السفلى بفمي كأني زير نساء محترف كي أمنعها من الكلام وأجهز على آخر ما بها من تمنع .. فرحت أقبلها على خديها وجبهتها وأذنيها بنهم كأني ألق طبعاً من وحشة الجوع .. حينها خارت قواها غماً وهي تمسك رأسي وتغوص في شعري بأصابعها المرتجفة .. فازحتها ناحية السرير بدفعة هزيلة وكشفت عن ساقها البيضاء .. فعبت عباب شهوتنا الأثمة .. واختلط جسدنا مع تأوهاتنا كحال كل الزناة ..

بعد أن فرغت منها، جلست هيلين عند طرف السرير تبكي .. وفاضت الدموع من عينيها وهي متكومة على نفسها، حتى ظننت أنها لن تتوقف أبداً .. لكنني في تلك اللحظة لم أشعر مثلها بعظم الذنب الذي ارتكبت .. بل كنت مبتسماً مرتاحاً أنظر إلى ظهرها العاري يزهو وكبر ..

أفقت من استغراقي على تنبيه من داخلي بقرب عودة جوني أو سونيا .. لذا نهضت من مكاني وارتديت ملابسني ثم جلست بجانبها أمسح وجهها بحنو ..

- لا تبكي يا حبيتي .. أنت لم تفعلي خطيئة .. بل ليبت نداء قلبك الذي وهبك الله إياه كي يجب ويكره لا أن يكون جامداً لا حياة فيه ..

ارتمت في صدري تجهش بحرقة، وكأن حياتها قد انتهت بما فعلت فيها .. فأحسست حينها بلذة انتصاري، وروى دمعها غرور نفسي .. ثم انتفضت من حضني كأنها ملسوعة لترتدي ملابسها قائلة في حزم وجِد:

- يجب أنا أذهب الآن ..

قلت في بالي "حمداً لله .. سترحل من نفسها" قبل أن تستطرد بعصبية وهي تفتح باب الشقة:

- أريدك أن تنساني للأبد .. ولا تأتي لرؤيتي مرة أخرى ..

لم أعقب على كلامها مانعاً .. بل انسدت على السرير أفكر فيما صنعت وقيمته وجدواه .. كنت محتفياً بذاتي بشكل غريب لا يصدقه عاقل أو مجنون .. بقي أو عاصي .. وعندما عاد جوني من عمله وجد في وجهي ألماً ساطعاً، فسألني مستفهماً .. لم أكنم الإجابة عنه عملاً بنصيحة رسول الله إلى المذنب مرتكب الآثام "إذا بليتيم فاستروا" .. لكنني وجدت بداخلي حاجة ملحة للتباهي بانتصاري المشوم والاحتفال به حتى لو شاركني به جوني الملحد!

• • •

انتهى احتفالي بنفسي الذي استمر طربه على دقائق طبول شياطيني عدة أيام .. وأقفت من ذاك الزهو الزائف والفرح الخييث على وقع وسواس شيطاني آخر مر جوار أذني فألقى زيتيه وناره داخلي وأحيا الشرور بنفسي حين قال لي: "هل تظن أنك بالذي فعلته قد حققت مرادك؟! .. هاو.. واهم أنت يا سليم .. بالتأكيد قد عادت هيلين إلى حياتها الأولى بعد أن استغفرت ربه .. ومن يعلم فقد تستمر في الرهينة إلى الأبد وتصبح علامة فارقة في حياة المسيحيين الكفرة الذين يقاتلون أباك جنباً إلى جنب مع الشيوعيين الملحدين .. أم أنك تظن أن السوفيت كلهم شيوعيون، بل كثير منهم على دين هيلين .. هيا يا سليم عد إليها وأنه ما بدأت .."

اكفهر وجهي .. واستقرت ملامح الهم والغیظ على ملاحي .. وسخطت على ذاك الشرور الذي أغرقت نفسي فيه دون سبب وجيه، وكأني قد حسمت معركتي مع هيلين من الجولة الأولى .. لذا قررت العودة إليها ويا ليتني استأصلت رجلي قبل الرجوع إليها متخماً بالشرور مشبعاً بالضغائن .. فقطعت عليها صلاتها وأنا أطلب منها مهدياً للحاق بي ..

فزعت من رؤيتي كأنها تراءى لها سوء عملها وردت عليّ بنبرة يائسة خائفة خفيفة:

- اتركني أرجوك .. ماذا تريد مني؟!
- ألم أقل بأنني لن أسمح لك الرحيل بقلبي بعيداً؟!
- أنا لن أبرح مكاني فدعني وشأني ..
- إذا لم تأتي معي الآن سأفضحك هنا ..

هالتها تلك اللهجة العدوانية من شخص ادعى أنه يجيها .. فأطرقت رأسها واستلست مخاوفها الدمع من عينيها .. فرافقتني مذعنة إلى النزول وفعلت بها مثلما فعلت في المرة السابقة .. ثم أنهيت ما بيننا بكلمات ودود منمقة تنبع بحب غير موجود من بئر نفسي الأسن تخللها وعيد مبطن وتهديد كاسر ..

استمرت هيلين في المجيء إليّ وهي مرغمة ومرعوبة عما قد أسببه لها من أذى .. لكن مع معاملتي الطيبة لها والرفق الذي كنت أحيطها به في كل مرة تأتيني النزول .. صدقت أنني أحبها .. بل تملكها نحوي حب باهت سرعان ما نفا وتحوّل إلى عشق جارف وهيام هائل .. فكانت تقوم بكل شيء على السرير ضاحكة متتشية، بينما أنا راقد تحتها أرقب الروح التي حان وقت قطافها .. وإذا اشتدت نوبة حبها معي على السرير في يومٍ ما جاءني اللقاء الذي يليه وهي محمرة الركب كأنها كانت تحبو على سلك شائك .. سألتها في ذات مرة عن سر ذاك الاحرار فأخبرتني أنها ظلت تصلي ليسوع طوال يومين جاثية على ركبتها كي يساعها على ما تركبها معي ..

ومع اقتراب الدراسة من بدايتها .. وانتقال جوني إلى العمل مساءً فقط .. وفصل فؤاد كالعادة من عمله .. رأيت أنه لا يوجد مكان يسعني مع هيلين بعد الآن .. فهي تحشى الظهور برفقتي في الشوارع لتتمشى كالعشاق الذين يحجون إلى ستراسبورج .. وفي نفس الوقت عادت الشقة للاكتظاظ مرة أخرى ولا يمكنني استقبالها بعد الآن .. كما أنه ليس لدي وقت لهيلين أو غيرها بسبب الدراسة ..

• • •

ميزة علاقتي بهيلين هي احتفاظي بكل ما يتعلق بي مخبئاً داخلي، لم أفصح لها يوماً عن أي شيء يخصني .. فأنا لم أخبرها سبب وجودي بستراسبورج أو جنسيتي، مكان عملي، دراستي، أو حتى سني التي كانت تكبرني فيها بسبعة أعوام .. كل ما علمته عني أنه كان لي أخت مريضة وشفيت على يديها أيام كانتا طاهرتين قبل أن تدنسهما بالردائل معي .. وأني أحبها حباً جماً .. وبذلك فقد كان كل ما عرفته عني غير صادق .. وذاك النوع من النساء يسهل التخلص منه وقتما تريد بكذبة صغيرة تضاف إلى خزائن الكذب التي ملأتها بضلالاتي .. لذا عازمت على الانتهاء من أمرها وإطلاق رصاصة العذاب التي ستؤلمها طوال عمرها حينما تواعدنا على اللقاء في غابة نوهوف بعد أن يسدل الليل ستره على الأنحاء لئلا يكشف أحد عن وجهها غيري ..

انتظرت هيلين في الليل عند المكان الذي اتفقنا عليه كي أنهي ما بداته .. ثم رأيتهما قادمة نحوي كطفل يكبو ويترنح من فرط السعادة، تحمل سلة صغيرة وترتدي فستاناً غامقاً كشف عن أنوثة طاغية لطالما خبأتها تحت عباءة الراهبة الورعة .. كانت تتمايل وتبتسم ابتسامتها الواسعة التي تمتعت بها كثيراً على فراشي .. فلهيلين شفة عليا نكعة رقيقة وأسنان بيضاء ناصعة يجعلان ابتسامتها ساحرة .. أدخلت يدها بين ذراعي وخصري وسحبتي نحو الغابة بعد أن قبلتني على خدي بفرح واشتياق ..

كانت ليلة معتمة قائمة .. زاد من اسودادها أوراق الدغل العريضة وتداخلها المتلاحم بين بعضها البعض .. فالتصقت هيلين بجانبي تهمس بخفوت مضطرب:

أنا خائفة يا حبيبي ..

تجاهلت الرد عليها بداعي التفاتي إلى ذاك الطير الساهر وهو يخفق مغتبطاً ويتنقل محلقاً بين شجرة وأخرى .. ثم وجدنا مكاناً منبسطاً بين الشجر متوارياً عن الأنظار وقريباً من بحيرة باجيرسي (Baggersee) .. فافترشت هيلين البساط الذي أحضرته وجلست تخرج الأكل الذي جلبته وتصفه على البساط بحبور، بينما كنت مشغولاً بالتأمل في أمر السماء التي انزاح عنها الغمام فجأة، وأنارت بالنجوم كأن أحداً ما

ضغط على زر تشغيلها!

- هيا يا حبيبي لتناول الطعام ..

- ماذا أعددت لنا؟!

- لقد ابتعته، ولم أعد .. عندما تنزوج سأطهو لك من يدي كل ما تحبه ..

- لا يهم من قام بإعداده .. بل ما أحضرته ..

- هذا يا حبيبي لحم خنزير مقدد أعشق تناوله منذ طفولتي .. وهذه شطائر

الجبن .. وتلك قنية نبيذ كي نتشي بها في لحظات حبنا الخالدة ..

حق بالي وهو يخاطبني عنها ساخطاً: "يبدو أنك لم تأت بشيء يصلح للأكل ..

حتى الجبن أكرهه" ..

- لقد أشبعنتي بهجة حضورك يا حبيبي .. سأكتفي بإطعامك ومراقبة ثغرك

المذهل وهو يمزغ الأكل ..

- بل أنا من سأطعمك بيدي ..

لم أجد مناصاً من إلحاحها على إطعامي .. فكظمت قرفي من الأكل وتناولت

شطائر الجبن التي غص بطعمها حلقي ولم أستسغها .. وبعد انتهائنا من الطعام نزع

كل منا ثوبه عن جسده .. وفارت صبوتنا ونحن نتقلب على نصال العشب المبتلة

نتمتع بمداعبتها لجسمينا .. وخالطت أصواتنا الشهوانية حفيف الشجر ونقيق

الضفادع .. وقبل اقترابنا من الخروج بجسدنا العارين من بين ستر الأشجار انتهت

نوبة هوانا الأولى .. فذهبنا إلى الاستحمام بياء البحيرة وغمرناه بنوبة حب ثانية خفق

منها سطحه الساجي .. وعند الفجر عدنا إلى البساط نترنح ضحكاً .. وهناك ابتدأنا

نوبتنا الثالثة برفق أقرب للسكون وهي تغمرني بالقبلات الحنون وكلمات الحب

العاشقة ويبلل شعرها الخضل وجهي .. وبعد ذلك أصابنا الخدر وارتقى كل منا إلى

جوار الآخر يحملق ببصره في السماء مستسلمين لما طلنا به رضاب الندى المزوج
برحيق ذي مذاق لذيد ..

رفعت هيلين وجهها ووضعت على كتفي، تسألني بنبرة خفيفة ولهانة:

- هل تحبني حقاً يا سليم؟

- لم تسأليني هذا السؤال؟!

- بسبب الطريقة التي تنظر إليّ بها .. من ثقيلك المستمر لكل موضع في جسدي
إلا وجهي وكأنك تتحاشى النظر إليّ في الفراش .. من نفورك الغامض الذي يحل
عليك مني بعد كل مرة تنتهي فيها من ممارسة الحب ..

- هذا لأنني مسافر دون رجعة في الصباح ..

قيد صمت مروع ملاعها المذهولة للحظات وهي تكاد تشق وجهي بنظراتها
اللائمة .. الحائرة .. المستفهمة .. فاستطردت الحديث بنبرة أسفة كي أنتهي من ذاك
الموقف سارداً للحجة السخيفة لإياها التي تعلمتها من أفلام السينما المصرية القديمة:

- أنا مضطر للسفر إلى لبنان غداً ولن أعود مرة أخرى .. فوالدي يريد تزويجي
من ابنة عمي .. وإن لم أنفذ رغبته سيسخط عليّ ويحرمني من الميراث ..

- وماذا عني؟!

هكذا سألتني ساخطة راجية قبل أن تنتفض من جلستها وتقف مترقبة ردي ..

- عودي إلى حياتك كراهبة وانسيني .. أو عودي إلى حياتك السابقة قبل الرهبة
واحصلي على عمل وأحبي أي رجل وتزوجي ..

- الآن تقول لي ذلك .. بعد أن تخلّيت عن كل شيء من أجلك!

- أنت لم تخلّني عن شيء بعد يا هيلين .. تستطيعين العودة كراهبة فأنت مازلت
بفترة الاختبار الأولى ولم ترتبطي بتعهد كنسي بعد ..

- كيف أعود بعد كل ما ارتكبت معك؟ .. كيف أعود وأنا أحبك وأفكر فيك طوال الوقت؟ .. أنت تمزح يا حبيبي .. أرجوك قل لي إنك تمزح وعدني ألا تكرر هذا المزاح مرة أخرى ..

سكت لثوانٍ أرقب تسلسل ضوء الصباح من بين سيقان الشجر على وجه هيلين الغاضب الخائف .. العاتب المستعطف .. ثم قلت لها بحزم وأنا أنبو ببصري عنها:

- إلى هنا انتهى كل شيء يا هيلين .. الوداع ..

- لا يا سليم .. لا .. أرجوك .. أنا مستعدة للسفر معك .. سأعيش خادمة عندك لكن أرجوك لا تتركني .. سأموت دونك يا سليم .. سأموت ..

هذا ما قالته بصوتها الملتاع وهي مذلولة ومرمية بجوار قدمي تمسكها وأنا أجراها من بين يديها .. حتى خارت قواها تماماً والتصقت جبهتها بالأرض تتحب نحيب الشكالي .. كان صوت بكائها ينمو في أذني كلما ابتعدت عنها، بينما لم أشعر بالمرارة لاستغلالها أو الشفقة على حالها .. كل ما جال في رأسي وقتها هو زهو الانتصار .. الانتصار فقط ..



لم تكن هيلين الأخيرة .. بل استحللت الأمر مع بعض الفتيات بالجامعة وغير الجامعة .. لم أكف عن وضع الحجج أمام نفسي التي ستجعلني مرتاح الضمير وأنا أقوم بمضاجعة الفتيات وتركهن بعد إيهامهن بالحب والعشق .. فتارة أقول لنفسي إنهن كافرات يستأهلن العذاب .. وتارة أخرى أقول لنفسي إن النساء نصف المجتمع وإذا دمرت هذا النصف أكون قد دمرت المجتمع كله .. اكتسى وجهي بملامح شيطانية وانطفأ نور براءتي في سن مبكرة وأنا أتنقل بين الأسرة أجاهد على طريقي الخاصة .. أضحت أموري بالجامعة سيئة .. فقل استذكاري وشرذ ذهني معظم الوقت وسبقني العديد من زملائي بالكلية نحو المراكز المتقدمة .. حتى العمل مع إيزاك بالمكتبة كنت أقضي معظم الخمس ساعات خاملاً لا أتحرك إلا لجلب كتاب من رف عالٍ لا يستطيع زبون أن يطاله .. أو عند المغادرة .. وهما الحالان اللتان كنت أترحزح فيها فقط عن مقعدي الذي لا أفارقه ..

• • •

كان فؤاد مولعا بكرة القدم بشكل لا يصدق أحد .. يفهم في فنياتا وخططها ويعرف أسماء اللاعبين أكثر مما قد يعرفه أي أحد في مصر . فهو مشجع غاشقٌ للأهلي .. الفريق القاهري الكبير .. وعندما ذهب للدراسة بستراسبورج، انقطعت أخبار الأهلي عنه بسبب عدم اهتمام الصحافة والتلفزيون الفرنسيين بكرة القدم المصرية .. لذا كان يتصل عادةً بالسفارة المصرية خصيصاً كي يسأل عن نتائج فريق الأهلي والمتخب وعن أحوالهما .. حتى ألفه موظفو السفارة وأسموه "مجنون الكرة" ..

لم يستطع فؤاد الكف عن تلك الهواية وهو في ستراسبورج فشجع فريقها لكرة القدم الذي كان يتأرجح دائماً بين دوري الأضواء والدرجة الثانية .. وفي يوم ما اصطحبني مع جوني على حسابه الخاص إلى مباراة لكرة القدم بين فريق المدينة ستراسبورج وفريق مارسيليا متصدر دوري الدرجة الأولى لموسم ثمانية وثمانين، تسعة وثمانين، والذي هبط في آخره فريق ستراسبورج إلى الدرجة الثانية مع فريق ليونس ولافال برصيد تسع وثلاثين نقطة .. على كل، انتهت تلك المباراة بخسارة معتادة لستراسبورج .. وخرجنا من استاد لامايون مع الجمهور الساخط، بينما ظل فؤاد يلعن النحس طوال طريق العودة، وأنه لولاه لدخلت نصف دسنة من الأهداف .. ثم انتقل لسب اللاعبين حانقاً من تضييع الفرص .. حتى بيتر ريتشارت هدف الفريق الألماني لم يسلم من سبه!

ذهبنا نتمشى في ضاحية (Neudorf) للترفيه عن أنفسنا قليلاً بعدما خسر فريق ستراسبورج، فنُسي فؤاد الهزيمة لثلاث يقوم بالتنكيد علينا لمدة أسبوع قادم على الأقل حتى ميعاد الخسارة الثانية، أو حدوث المعجزة وفوز الفريق .. كان من المفترض أن يعزمنّا فؤاد على العشاء لكن بعد الخسارة لم نجروا أنا ولا جوني على تذكيره بذلك حتى لا يتعشى علينا طعنًا بالسكين ..

وبينما نحن سائرون بلا هدى هتف جوني من بيننا صائحاً:

صالة رقص تانجو ..

فتبادلنا أنا وفؤاد النظرات المتعجبة .. نقول في سرنا: ما بال هذا المخبول؟! .. لكن جوني اقترب منا وهو يلح علينا في الدخول معه وقضاء بعض الوقت بتلك الصالة .. فسأله فؤاد مداعباً:

- هل يوجد بها نساء؟

- الكثير من الفتيات الجميلات اللواتي أبرزن جل مفاتهن .. ستجد شيئاً طبيعياً

تستمني على ذكرها هذه الليلة .. فيها لا تضيق الفرصة ..

قهقهت أنا وجوني بصوت مرتفع .. وارتسمت على وجه فؤاد ابتسامة ممتعة
وهو يزعم شفتيه .. فقال لجوني مشاكساً باحتقان:

- لا تنك مرة أخرى حتى آخر الشهر .. فدمك ثقیل ..

دخلنا إلى الصالة التي كانت جدرانها مغطاة بالمرایا .. وأرضها مفروشة بالباركيه
ذي اللون الخشبي .. في منتصفها نجفة كبيرة مضيئة بلون أبيض واهن وتلف
بداخلها روائح العطور الساحرة المختلطة .. فوقف ثلاثتنا نحدق بالراقصين الذين
كانوا يقومون بالإحماء استعداداً للرقص الصاحب المجهود .. وفجأة أتت صفقة عالية
من خلف ستار يغطي باباً موجوداً بزاوية الصالة .. فانتبه الحضور لتلك الصفقة
ووقفوا في أماكنهم كالجنود يستعدون لتلقي التعليمات من قائدهم ..

- يا الله .. ما أجملك ..

تلك كانت صيحة جوني الخافتة المذهولة حين رؤيته للفتاة التي خرجت من
خلف الستار وهي تحتال بكامل زيتنها، بشعرها الكستنائي وعينيها المدهمتين
الواسعتين .. وشفاها الوردية المكتنزة وأنفها الصغير .. أما جسدها فكان أشبه
بتمثال برونزي اللون لا يوجد به خدش ولا زيادة .. من أول صدرها المثالي مروراً
بخصرها الرشيق وسرتها الملائمة وردفيها وساقها المشدودتين، حتى قدمائها بدتا
مخضرتين وهما تمتطيان الحذاء ذا الكعب العالي ..

سحقت عقلي فنتتها .. وصعقت مشاعري بجهاها .. فوقفت مشدوها لفترة
طويلة ومبهوراً لفترة أطول وأنا أراها تقوم بتلك الحركات التي تتأود وتنشي فيها
بمرونة فائقة .. تضرب بقدميها على الأرض بخفة الغزال .. وتمد ساقها بليونة
المطاط .. كل ذلك كانت تفعله وهي تخلق بوجهها ابتسامة مثيرة مغرية يسطع فيها
بياض أسنانها واحمرار لسانها ..

أحسست حينها أنها توأم روحي .. أو المرأة الكاملة التي تستحق الإعجاب ..
فخفق قلبي لأول مرة ناحية النساء .. لا أدري هل كان ذلك بفعل الموسيقى العاطفية
.. أم بسبب تلك الرقصات الرومانسية الخلابة .. أم بسببها هي .. هي التي غرست
في نفسي شيئاً ناحيتها لم أستطع فك طلاسمه حتى الآن!

• • •

يومان كاملان كانت تلك الفتاة تطاردني في أحلام نومي وشروء يقظتي .. في
صفحات كتيبي وأوجه أساتذتي .. تقلبت على سريري مراراً وهزرت رأسي تكراراً
لعلي أنفض عني صورتها المنحوتة بإحكام شديد، لكنني لم أستطع .. كُتُم صوت
شيطاني وهمس ناصحي الخفيض، فلم أسمع كلاهما يقول إنها كافرة أو الزنا حرام ..
لم أقاوم كثيراً حالتي .. فرجعت إلى تلك الصالة التي شاهدتها عينا في فيها، وهي
تشر شذر فنتتها على الحضور بالتفاتاتها ورقصات وضحكاتا .. ودخلت إليها
كالمسحور المنقاد بأمر جته دونما يدري، فوقفت أمام تلك المرأة وقفة المبهور بها الحاني
عليها .. المعجب بتكوينها وملامح وجهها .. المغتبط بجوارها والتقاط طيب أنفاسها
.. أتأمل ذاك الوميض بمحجري عينيها وأبحر في صفائهما .. فاستغربت نظراتي
ولهث مشاعري المضطربة نحوها .. وتفرست بوجهي وانصهار صلابتي .. فأدركت
بحدسها أن لها سيطرة عليّ من نوع ما تستطيع استخدامها وقتما تشاء .. سألتني
بدلال متلألئ وهي ترفع ساقها البرونزية المصقولة وتضع قدمها على طاولة صغيرة
مقابلها غير عابثة بحالي، مستمرة في تمارينها ..

- أهلاً بك .. بماذا أستطيع خدمتك؟!

لم تكن تحتاج إجابة مني .. فقد غزت بواطني ببصيرتها وكشفت عما بداخلي
تجاهها دون أي تعب .. فأجبتها بوله:

- أريد تعلم الرقص معك ..

- ولم معي؟!

- لأنني أحبك ..

رمقتني بنظرة ذهولها أعم من سكينتها وهي تشهد تلك المرأة الجارفة الأقرب إلى جنون تختل منها إلى هذيان عاشق .. فأنزلت ساقها كأنها سياف يغمد سيفه بعدما نال اعتراف المذنب ..

نعم، قد كانت تدرك مذ أول ما دخلت عليها الصالة أن بعيني شيئاً خاصاً تجاهها .. لكنها لم تتصور أن يكون حباً، وبالأخص أنها لا تعرفني أو تتذكر أنها في يوم من الأيام قد عرفتني .. بدا على ردة فعلها أنها تعودت سماع تلك الكلمة من رجال كثير قبلي .. لذا ردت عليّ باتزان أقرب للمرح:

قد أصدق تلك الكلمة من شاب دميم حالم .. أو آخر على معرفة مسبقة بي .. أو مختل رزي الهيئة قابلته مرة أو اثنتين يحلم بالاختلاء بي .. لكن من شاب يمتلك أجمل وجه رأيته بحياتي .. بتلك الأناقة .. وذاك الخشوع الذي لم أسمع عنه سوى بكتب الشعر .. فإن الأمر .. مممم .. لا أعلم ..

- أنا لست مختلاً .. ولست الدميم الحالم .. ولست على معرفة مسبقة بك .. لكنني أحبك بجنون المختل وحالية الدميم وألفة معرفة الحبيب ..

اضطربت من ردي المبالغ عليها .. ومسحت بكفيها جانبي شعرها فأسدلته إلى الخلف، تبادل النظر بين الأرض ووجهي .. ثم سألتني بهدوء:

- ما اسمك؟

- سليم ..

- سليم .. اسم موسيقي رنان .. تعالَ غداً في السادسة مساءً .. فالיום هو موعد دروس الأزواج .. أما الغد فهو ميعاد الدرس المنفرد ..

- هل سنكون وحدنا؟!

- ها ها ها .. لا أعرف لم يفهم الرجال دائماً كلمة الدرس المنفرد على أنه موعد غرامي؟! .. لا يا سليم .. لن نكون وحدنا ..

مذ عرفت صنف النساء لم يكن هن ذاك التأثير عليّ، بل كنت أنا من يسحرهن ويتحكم بهن .. أما تلك الراقصة فقد أجمتني من أول نظرة .. وحركتني كيفما شاءت بخيوط فنتتها .. دائماً ما تعودت خداع الفتيات بحجج كاذبة تدور كلها حول الحب، أما بعدما عرفتها فقد تجرعت من كأس العشق الذي سقيته لعديد من النساء قبلها دون شفقة على حالهن .. أدركت قوة عذابه وأحسست بسطوة آلامه .. لكنني كنت عازماً على ألا يقع لي مثلما فعلت بكريستين وهيلين وغيرهما من ضحاياي السذج .. بل سأحظى بقلبها وأجعلها تحبني مثلما أحببتها ..

• • •

في اليوم التالي دخلت إلى الصالة التي كانت مكتظة بعض الشيء بكثير من الرجال وقليل من النساء، يجمع بينهم الكهولة والسمنة وحظ وفير من الإقبال على الحياة .. انتظرت بينهم حضور تلك الإلهة الإغريقية بأبهتها الملكية كي تغدق علينا من رهاقة الحس ومتع المشاعر قدر ما تملك .. ثم دارت الموسيقى المفعمة بالحب الجامح ودارت سيقان الراقصين ذوو السمات البارزة حينما دخلت تسطع كالعادة بابتسامتها الواسعة .. فانهضت عليها وأمسكت بكلتا يديها مزيجاً إياها خطوتين إلى الورا ونحن نحدق ببعضنا بعضاً ومتخذين وضع "الكورتيه" ..

- ما اسمك؟

- إيزابيلا ..

انتبه الآخرون لحركتي المفاجئة التي قمت بها لثلا يقتنعها أحد غيري .. فدارت معي وبدأت تحركني بخفة ماجنة كأني ورقة متهرثة وقعت من صدر كتاب بال ..

تحكمت في بخطواتها، بانحناءاتها، بإحاطة ذراعيها .. كادت رجولتي تنتفض معلنة عن نفسها حينما ألصقت نهديا الزبددين الرجراجين بصدري .. أحسست حينها أن كبريائي قد انكمش بين يديها .. وهيام فاضح قد أطل من عيني في انفعالاتي البلهاء .. بينما هي تبش في وجهي وتستمر في رقصتها الرشيقة المثيرة التي زوى من سحرها عودي وذبل عقلي .. ثم أعلنت انتهاء رحلتي في جتتها والنهل من أنوثتها بسكوت الموسيقى .. فصفق الآخرون لنا بحماس وهم يطلقون صيحات الإعجاب الصاخبة ..

- يبدو أنك لا تحتاج إلى دروس في التانجو ..

- أنا لا أحتاج إلا لقلبك ..

ربتت وجهي بنحو وهي تلتقط أنفاسها، ثم أزاحت يدها فجأة كأن شيئاً ما استدعاها أو هاجساً ما قد أزقها .. فمدت خطاها تجاه الباب ذي الستائر الداكنة، تعلن بصوت عالٍ:

- انتهى الدرس اليوم .. أراكم يوم الخميس المقبل ..

لكني لم أتحرك من مكاني وأخرج وراء من خرجوا .. بل اقتحمت تلك الستارة لأرى العالم الذي تخفيه خلفها .. فمشيت برواق مظلم ينتهي بغرفة صغيرة مضيئة وبابها موارب .. أطللت برأسي من الباب فلم تتبه إليّ وهي تجمع أغراضها بحقيبة يدها الكبيرة ..

- لم تتجنين الحديث إليّ؟!

لم تبدُ مترعجة حينما تخطيت خصوصيتها مقتحماً خلوتها .. فردت عليّ باستسلام:

- لأنه لا يجوز أن تحب الراقصة كل من يراقصها ..

- أنا لا أريد الرقص بل أريدك أنت ..

- لم تصر على اللحاق بي؟! .. أنت تستطيع الحصول على العديد من الفتيات ممن

هم أجل مني ..

- وهل يحب الرجل المرأة لأنها الأجل أم لأنه وجد فيها ما لم يجده في غيرها ..

- وماذا وجدت لدي؟!

- الروح التي خلقت من غيرها .. فحينما أراك أحس بالنبض في قلبي وأشعر أن جسدي مفعم بالحياة .. أشعر بأني طفل صغير قد وجد حضن أمه واطمأن فيه .. أتلذذ بنشوة تهتز لها أرجاء نفسي وتبرق لها عيناها ..

ظلت صامته بضع ثوانٍ وكأنها تعيد ترديد كلماتي في أذنيها لتكشف مدى صدقها من عدمه .. ثم نهضت للخروج من الغرفة، تسألني باسمه:

- هل أنت جائع؟

- لا أشعر بشيء سوى بخفقان حبك في قلبي ..

- هيا كف عن هذا الكلام الرومانسي ..

- أي شيء ترغبينه أو افقك عليه إلا أن تتركيني ..

- حسناً أيها الوسيم الحالم ..

اصطحبتي معها إلى حانة صغيرة بالقرب من محل عملها وهي ترتدي فستانها الفيروزي المجسم القصير الذي كشف عن كفيها وأعلى صدرها .. لم أتمنع أو أفكر وهي تأخذ بناصيتي وتجري من إصبعي بمرح طفولي إلى الحانة .. وعندما جلست أمامها في المطعم أخذت أرقب ثغرها ومضغها الممتع للطعام .. وأستمع إلى كل ما تخبرني به ..

اسمها هو إيزابيلا كارلوس فيرون .. راقصة تانجو محترفة تجوب العالم للمنافسة على حصد الجوائز في الرقص .. وأحياناً تطلبها صالات الرقص في عدة أماكن في العالم بالاسم كي تعطي دورات مكثفة بها .. تسافر كثيراً وتعب أكثر من أجل توفير

المال لابنها ديجو الذي أنجبته من أول حب في حياتها، زميلها القديم بالرقص سيرون، الذي تركها وهي حامل بطفلها وهاجر إلى أمريكا .. تشعر بالذنب تجاه ابنها الذي لم تختَر له الأب المناسب وأيضاً بسبب تركها له أوقاتاً طويلة من السنة بسبب أسفارها .. وهي في فرنسا من أجل مسابقة بالرقص ستقام في ستراسبورج بآخر الشهر، إذا فازت بها ستحصل مبلغاً جيداً من المال .. وأيضاً للتدريب ..

بعد أن أخبرني بكل شيء عنها أفصحت لها عن كل ما يخصني إلا بالطبع حكاية والدي فكذبت عليها وأخبرتها أنه يعيش في السعودية بسبب ظروف عمله .. أتذكر صيحتها المشاكسة حينما علمت أنني مصري إذ قالت بخفة:

- الأهرامات والفراغة .. كم أتمنى الرقص أمام أبي الهول أو عند سفح الهرم ..

- سأصحبك معي إلى مصر بعد أن نتزوج ..

بدا أن مخزون الاندهاش قد فرغ منها بسبب تلك الجملة التي ما إن سمعتها حتى اتسعت حدقتا عينيها الجميلتين وتوهجتا ذهولاً .. ثم أطرقت رأسها يميناً كأنها تحملهما جسيماً ..

- سليم أنت أصغر مني بعشرة أعوام ومازلت تدرس بالجامعة .. وأمامك مستقبل مشرق .. لم لا تعيد التفكير فيما تقول .. وتتخذ القرار الصائب .. أعتقد أن ما بك الآن مشاعر عابرة ..

- هل أنا غير مناسب للزواج منك؟! .. سأترك كليتي وأسافر معك إلى كل أنحاء العالم نرقص معاً ونجني المال .. سأرعى ديجو كأنه ابني وسأعمل ليل نهار من أجل إسعادك .. أنت من خلقت لأجلها يا إيزابيلا ..

- كفى، كفى أرجوك .. دع الحديث عن هذا الموضوع في وقته وهيا بنا نمضي ..

لا أعرف لم شعرت بالاضطراب المقلق فجأة وقررت الخروج من الحانة .. فعدنا إلى صالة الرقص مرة أخرى، وجذبتني من يدي إلى بيتها حيث كانت تسكن فوق الصالة

في شقة صغيرة أجراها لها صاحب الصالة .. بها أثاث بسيط وأدوات كهربائية قديمة ..
أدارت نور الصالة الباهت وموسيقى هادئة خافتة لم يتأثر نغمها الرائق بأزيز
الثلاجة المزعج ثم ابتسمت نحوي، تسألني فاتحة ذراعيها:

- هل تريد الرقص؟

اندفعت نحوها ورفعتها عن الأرض بحركة خاطفة .. وانهمرت ثقيلًا على
صدرها وعنقها وهي مغمضة العينين كأنها تدعوني لاقترحام عالمها وإشعال أحلامها
بومضات العشق .. فمارست الحب معها ونحن نرقص التانجو .. ثم وقعنا على
الأرض نكمل ما بدأناه واقفين .. وبعد انتهائنا كانت تلهث وهي تضحك قائلة:

- أعتقد أننا أول زوجين في العالم يارسان الحب وهما يرقصان التانجو ..

- هل تودين إعادة الكرة؟!

فرمقني بنظرة مائلة مشاكسة قبل أن تقفز فوقني وتغطيني بجسدها العاري
هاتفقة:

- نعم ..

مكثنا طوال الليل نلتذ بشهواتنا الغريزية دون قيود .. بل شهر بأكمله وأنا
سَديكُ بها لا أزول .. آتيها كل يوم صاغرا حتى أسحر بلذة جديدة أستخرجها من
دفائن نفسي وتسكر على حسنها مداركي .. وحداً لله أن ذلك كان في إجازة منتصف
العام ..

أذاقني إيزابيلا أنوثتها التي لم أعرف مثيلها قط بين النساء، بضحكاتها المائعة
وتأوهاتنا اللاهبة وجسدها البرونزي ذي اللمس الناعم الخلاب .. بنظراتها الفاحشة
الحانية ومداعبة أناملها الرقيقة الباردة لفودي وهي جالسة في دلال على حجري ..
فسقطت أفكاري وكذب أهدافي بين فخذها وعلى فراشها .. صار كل ما آمنت به

وعشت من أجله سراباً إرضاء لرغبتني بالبقاء معها .. وانهمكت في غواياتها فتناسيت والدي وطموحي بالجامعة وكل شيء، وشرعت أفكر في حياتي الجديدة مع إيزابيلا كراقص تانجو، أسافر معها حول بلاد العالم وأكتشف الجديد كل يوم .. يا لها من حياة رائعة تمضيها في السفر والرقص وفي حضن امرأة هي الأجل على سطح الأرض ..

• • •

في صباح السابع والعشرين من يناير عام ١٩٨٩ .. استيقظت من نومي بتكاسل غريب، كأني أنزع أطراف جسدي من على شريط لاصق .. كنت قد قضيت قبلها مع إيزابيلا ليلة حمراء عاصفة كالعادة، لكنني في ذاك اليوم شعرت بتعب منهك .. وتثاقل جفناي انغلاقاً على عيني حتى مع تغلغل نور الصباح بالغرفة وانبساطه على وجهي ..

استجمعت آخر ما تبقى من قوتي كي أنهض من السرير .. فليالي مع إيزابيلا نادراً ما تذر في الجسد مثقال ذرة من نشاط .. كنت فاغراً فاهي بين التثاؤب والتنفس بسبب أنفي المسدود .. تحسست مكان إيزابيلا فوجدته بارداً كأن لم يحتضن الفراش دفء جسدها طوال الليل ! .. ناديت عليها بصوت خفيض فلم ترد .. فناديت عليها بصوت عالٍ أيضاً فلم ترد .. حينها سرت في جسدي دفقة توجس وأنا محاط بذلك السكون المريب .. فنهضت من السرير كي أبحث عنها .. دخلت إلى الحمام ولم أجد فيه أحداً وكذلك المطبخ .. ارتديت قميصي وسترقي وهممت بالخروج من المنزل كي أبحث عنها بالشارع لكنني لمحت ظرفاً أبيض أمام البيت .. فلفت انتباهي وانفجرت داخل عقلي لمحتان من الذكري لا ثالث لهما .. رسالة عمي ومن بعده رسالة أبي .. فظلت أسأل نفسي مضطرباً لعدة لحظات عن نوع الرسالة التي يحملها الظرف !!

• • •

حبيبي سليم ..

أعذر لك مقدماً عن إعطائك النوم دون أن تدري .. لكنني فعلت ذلك من أجل مصلحتك .. حتى أهون عليك وعلى آلام الفراق .. لقد انتهى عقد عملي بستراسبورج

واستقدم لي وكيل أعماله عقداً آخر في بلد بعيد، لن أقول لك عن اسمه، حتى لا تلحق بي بمشاعرك المندفعة ..

أعلم بأن رحيلي هكذا قاس عليك .. لكنه أيضاً قاس عليّ .. فقد أحبتك من كل قلبي .. وباسم ذاك الحب أمنعك من تدمير مستقبلك الذي أراه براقاً .. إن مكانك ليس جانبي يا سليم، بل بين صفوة العلماء والعابرة .. حياة الراقصين ليست رائعة كما يُهَيِّأ لك .. بل بها متاعب جمة لا أريد لك الخوض فيها ..

لقد منحتني أجل أيام حياتي بحبك الصادق .. وأعتقد أنني جعلتك تقضي لحظات سعيدة بقربي .. لذا دعنا نظوي تلك الصفحة ونمضي في حياتنا كما كنا نخطط لها قبل لقائنا .. وأعدك بأن ذكراك ستظل حية دائماً بقلبي .. لكنني أتمنى أن تحورها من قلبك ..

القاسية المشفقة

إيزابيلا

- هل تعلم يا دكتور علي ماذا حدث لي بعد قراءتي لتلك الرسالة؟

- بالطبع تأملت ..

- ظلت أصرخ منادياً باسمها حتى كادت عروق وجهي تنشق منها الدماء .. مشلولاً لا يتحرك في سوى خطين من الدمع المتدفق على وجهي .. يُغشى عليّ لحظة وأفيق في اللحظة الأخرى على كابوس حالي .. لا يكف لساني عن ترديد اسمها ولا تغادر صورتها عيني ..

• • •

مرت عليّ شهور كثيفة موحشة .. وليالي أليلة ليلاء لا تحمل سوى آهات متحشجة في صدري وأنين حارق في فؤادي .. فأضحيت عاجزاً عن أداء أي شيء .. هائماً على وجهي مسلوب الذهن فاقد العقل لا أدري من أموري إلا احتشادها

متراكمة على روحي الهزيلة .. ولا أدري من حالي إلا دموع الوجد المنهالة ليل نهار
من نواحي نفسي المبعثرة ..

وفي الوقت الذي كنت أحتاج فيه إلى سلسيل بارد من الأمل يطفئ لوعتي ..
ولسة ناعمة تمسح ما ألم بي من خبال .. اتصلت بي خالتي لتبلغني الخبر الذي لم
أنتظره ولم أستعد له .. وفاة أمي .. وكأن فوادح الخطوب لا تأتي إلا زرافاً لا وحداناً
.. متدفقة لا قطوراً .. فانحسرت عن روحي آخر موجات الحياة ولم تذر وراءها
سوى رفات مسحوق ..

سافرت إلى باريس في الرابع عشر من إبريل عام ١٩٨٩ كي أحضر مراسم دفن
الأم التي أحببني ولم أحبها .. من فعلت لأجلي الكثير حتى تتجنب تلك النظرة
اللائمة المزدرية من عيني، لكنني لم أكف عن النظر لها بتلك النظرة أبداً .. أو حتى
أشكرها يوماً ما على تضحياتها العديدة لي..

- أتعلم يا دكتور علي أنني لم أصل على أمي صلاة الجنازة ..

- لم يا سليم؟!

- لاني عرفت بموتها مخمورة في حادثة بسيارتها ..

حكمت عليها قبل أن تقابل ربها بالعذاب الأبدي .. وكفر قلبها .. لم أستغفر لها
وأصدق على روحها .. لم أدع لها بالرحمة ولم أكف النظر إليها حتى وهي جثة هامدة
تلك النظرة التي دائماً ما مزقت قلبها .. وكأنني أعين على عذابها ملائكة الجحيم ..

بعد ما دفناها في مقبرة "Bobigny" في تابوت أسود طويل عملاً بقوانين فرنسا
التي تمنع دفن الموتى دون توابيت حفاظاً على الصحة العامة .. عدت مع خالتي إلى
المزل حيث كانت منهارة في بكائها وتشنج به حتى ظننت أنها ستلحق بأمي من فرط
الحزن .. وعندما دخلنا إلى البيت رحت أحقد في صورتها المعلقة على الحائط بجوار
صورة أبي داخل غرفتها بنظرات جامدة لا تحمل أي شفقة أو رحمة .. ثم أحسست

بدخول خالتي علي حيناً ربتت كتفي .. تقول لي بصوت حزين مشفق:

- أنا في منزلة أمك يا سليم .. فأنا أحبك مثلما أحبتك .. لذا لا تقلق من أي شيء ..

تهددت وأطرقت بعيني إلى الأرض .. حائر المشاعر مضطرب الفكر حتى نطق لساني بأول كلماته ..

- منذ متى وأمي تعاقب الخمر؟!

أحسنت خالتي بنبرة احتقار في صوتي .. وبإهانة بالغة في كلماتي .. فشعرت بالامتناع من سؤالها .. وتلك الصيغة التي جعلتني مُحاسِباً لا مسترحماً .. لذا زعقت بي في هستيريا لن أنساها قائلة:

- ماذا تعلم عن أمك حتى تسألني مستهجنأ بكل ذاك الصلف وكأنك الله تمنح وتمنع .. تعاقب وتجزّي .. قل لي ماذا تعلم؟! .. هل تعلم أنها كانت تحرم نفسها من الأكل حتى ترسل لك المال الذي يريحك في ستراسبورج على الرغم من حياتها البائسة هنا وفقرها الذي منعها من شراء أبسط الأشياء .. هل تعلم أنها أخفت عنك مرضها بسرطان الرئة كي لا تسبب لك أي قلق يزعجك في دراستك .. هل تعلم أنها كانت تشرب الخمر لأنه لم يكن باستطاعتها تحمل نفقات العلاج فلجأت للسكّر كي تتغلب على آلامها .. هل تعلم أنها قبل موتها كانت ذاهبة لتبيع آخر خاتم لديها كي ترسل لك المال .. كل هذا وتأتي أنت بعنجهيتك تسألني منذ متى تشرب الخمر .. منذ زمن يا سيد سليم .. منذ أصابها ذاك المرض الخبيث ..

لأول مرة أشعر بالذنب تجاه أمي وأشعر بالوضاعة أمامها .. لم يكن لومي لنفسي يكفيني لتكفير تلك المعاملة البغيضة التي عاملتها بها دائماً .. ظللت أسأل نفسي ساعات طويلة وأنا جالس على فراشها أشتّم ما بقي من ريحها: لم تحمّلت كل ذلك من أجلي؟! .. لم تخبرني عن مرضها ومشاكلها؟! .. لم انفصلت عن أبي مادامت تحبنا؟! .. ولم كنت مجحفاً معها لتلك الدرجة؟! .. هل ستدخل إلى النار خالدة مخلدة

بها أم سيرحها ربي جزاء ما فعلت لي؟

• • •

في منزل خالتي وجدتي غير مرحب بي حيث ظلت ترميني بنظرات حادة كارهة لم تشفق عليّ منها .. وكأنها توصلد مسالك الغفران في وجهي كما أغلقتها أنا من قبل في وجه أمي .. لذا خرجت من البيت الذي لن أعود إليه مرة أخرى أسبح في احتشاد همومي وأستكين لتكالبها الفج على رأسي، وهي تنذرني بما ستحملة لي أيامي القادمة من وبال دون نقود أمي .. أو مذكرة إياي بهمومي السابقة وحيي المذبح ..

استسلمت لقدمي اللتين أدلجتا بلا مأرب تسعيان إليه في ذاك الليل الضجر وهما تشقان خطاهما على ضوء القمر الباهت وتهتديان بما لا يُهدي به .. كنت أسير مخفض الرأس مثقل الفكر لا أعبا حتى بموضع خطواتي .. وفجأة اخترق سمعي صياح امرأة بالشارع مخمورة حتى أخص قدميها ترنح أمام حانة رخيصة وتزعق في الساترين جانبها قائلة بهذيان:

- أنا قرية الشاه أيها الأوغاد .. أنا قرية ملك الملوك ..

ثم تأخذها نوبة سعال قاحب وتعود إلى هذرها مرة أخرى ..

كانت جميلة جداً وبدت عليها النعمة من ثوبها المؤنق .. فدفعني فضولي إلى الاقتراب منها في حذر وأنا أرقب ترنحاتها وشعرها المحمم الناعم وعينيها الواسعتين اللتين كانتا تغمضان أكثر مما تفتحان بسبب السكر .. وما إن دنوت بخطواتي منها حتى رأيتها تحدجني بنظرات مستريية وتتجه نحوي في بطء وتأن أجبرها عليه سُكرها .. ثم قبضت بكفيها الصغيرتين على يافتي تسألني بنبرة حانقة يائسة:

- هل أنت من أتباع ذاك الخميني؟

- لا لست من أتباعه ..

فتهلل وجهها بابتسامة أقرب للضحكة الصاخبة وهي ترفع يدها في الهواء بقينية
خمر صغيرة قابضة عليها بكل ما تبقى بجسدها من قوة ..

- إذن أنت من أصدقاء شاهنا المعظم؟

- لا لست من أتباعه أيضاً ..

ترنحت خطوتين إلى الوراء بابتساش حتى كادت أن تطيح .. أمسكت بها لئلا تقع
فطبتعت على وجهي قبلة خفيفة وقالت لي بصوت مرح مشاكس وهي تربت على
الموضع الذي قبلتني فيه:

- أترى .. أنت من أتباع شاهنا المعظم .. فلو كنت أحد أتباع ذاك الخميني
لتركتني أقع على الأرض دون شفقة ..

- اصطحبتهما إلى داخل الحانة وهي تستند عليّ لعي أجد أحداً يعرفها فيصحبها
إلى بيتها بدلاً من ترنحها المزري على الأرصفة .. فصحت بالمكان سائلاً عن أي أحد
يعرف تلك المرأة .. عندها جاءني صوت من الداخل يهتف ساخراً:

- أيتها الشقية .. متى خرجت من هنا؟!

- هل تعرفها؟!

- ومن لا يعرف الأميرة نادية؟!

- ما قصتها .. ولم تصيح في الشارع بذلك الجنون؟!

- إنها إحدى قريات شاه إيران، هربت إلى باريس بعد أن أطاحت الثورة
الخومنية بنظام قريبها .. وتأتي إلى هنا كل يوم كي تشمل ثم تلعن في الخوميين وتمجد
عائلتها وأتباع عائلتها حتى يغشى عليها ويعود بها أحد العاملين هنا إلى بيتها ..

- أها .. حسناً من فضلك دلني على الحمام كي أغسل وجهها .. وآتنا بكوبين من
القهوة ..

بعد أن أفاقت قليلاً من تأثير الخمر التي شربتها، حكّت لي قصتها بحزن دفين وألم جارح وغضب ناثر .. جلست تستذكر أمامي أيام عزها الخيالية بقصور الشاه وحفلاته .. وكيف تحولت إيران من بلد شهد أزهى أيام حياتها وأسعد لحظاتها إلى بلد كئيب تشوذه العائم السوداء وتعتم عباته على حياة الناس .. كانت تمنى هزيمة نظام الخوميني أمام صدام حسين كي تعود إليها إيران التي أحبت .. لكنها منيت بخيبة أمل كبيرة بعد أن أوقفت الحرب ولم يتحقق ما تتمناه لذا شرعت في شرب الخمر بنهم أكثر ..

عندما اصطحبتها إلى منزلها أرثني صورها وسط طبيعة إيران الخلابة مع صديقاتها الفاتنات وهن يرتدين الثياب الوقور المثيرة الباهية .. كان جمالها في الصور أخاذاً قبل أن يخبو بتأثير الخمر فاستبدل ببريق عينيها هالات سوداء، وتحول تورّد وجهها إلى شحوبة مريرة ..

- أنت مصري؟!

- نعم ..

- أوه .. بلد السادات .. الرجل الشهم الذي ساند شاهنا المعظم وقت ما تخلى عنه كل الأصدقاء ..

داعبت شعري برفق كأنها تفك جمود رأسي وقالت لي في دلال مغري:

- أنت فاتن جداً أيها المصري .. تذكرني بحبيبي غلام .. الذي كان يتقرب مني كي يحصل على معلومات عن عائلتنا لحساب الخومينيين .. ولم يكن صادقاً في حبه لي كما أحبيته ..

هاج بكاؤها حينما ذكرت اسم خليلها الخائن .. وارتمت في صدري تسب وتلعن به .. وتناؤه حيناً لليلة واحدة من لياليها معه .. فأفسد مخاطها قميصي وهي تجهش في حضني ..

لا أعرف لم شعرت بالشفقة عليها .. هل لأنني ذقت علقم الفراق ومرغت أنفي
 في وحل الوجد .. أم لأنها ذكرتني بحال أبي بعد تطليقه لأمي .. أم لأن حالها ينطبق
 عليه قول الرسول "ارحموا عزيز قوم ذل" .. أحياناً عندما أتذكر تلك الليلة التي
 قضيتها مع الأميرة نادية أسأل نفسي ماذا كان سيحدث لي لو لم أقابلها .. فقد أنستني
 في ليلة رومانسية شرهة وفاة أمي وقلقي حول مستقبلي والأهم من ذلك حزني على
 رحيل إيزابيلا .. فأعادت لي كثيراً من توازني الذي بدا أنه لا يأتيني إلا بمعاشرة
 النساء .. حتى إنني بعد استيقاظي جوارها بالصباح تفتحت على وجهي ابتسامة لا
 أعرف سببها حتى الآن!

٩

انتهى عامي الدراسي الثاني بنجاح حققته بمعجزة، إذ استطعت تجاوز السنة دون الرسوب في أي مادة .. لكن معدل الدرجات الذي حصلت عليها أثار استغراب رفاقي وأساتذتي بالجامعة .. فمنهم من أحس بخيبة الأمل بعد أن رأى في ملامح العالم الكبير الذي سيفخر بمصادقته أو تدريسه يوماً من الأيام .. ومنهم من ربح الرهان الذي قامر به عليّ بأن عربي مثلي لن يتفوق ثانية، وأن ما حدث معي بالسنة الأولى مجرد غلطة في مسيرة الكون سرعان ما ستصحح وتعود إلى صوابها .. ومنهم من أحس بالشامة لتغليبي عليه في العام الذي قبله ..

لم أحفل لذلك كله .. فقد كان نجاحي معجزة تستحق الحمد لله بعد كل ما مررت به من ظروف سيئة توقعت ازديادها سوءاً لعدم وجود أي دخل لي غير الذي أتحصل منه بعملتي لدى إيزاك وهو لن يكفي سوى لدفع إيجار الغرفة وتناول وجبة واحدة باليوم .. لذا عملت بالإجازة الصيفية عدد ساعات أكثر من الخمس التي كنت أقضيها عند إيزاك حتى أحصل على مال كافٍ لتسديد رسوم الجامعة .. والحقيقة أن إيزاك كان شهماً معي عندما وافق على زيادة عدد ساعات عملي على الرغم من عدم حاجته إليّ لكل ذاك الوقت، وفيما بدا أنه أراد مساعدتي بطريق غير مباشر .. أما الشيء الذي صعب عليّ تحمله ولم أستطع التعامل معه بسهولة فهو رحيل كل من فؤاد وجوني بعد حصولهما على الليسانس .. فقد عاد فؤاد إلى مصر كي يحقق حلمه وحلم والده بالعمل كصحفي، والذي يتمنى أن يكون بالأهرام .. أما جوني فقد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل في أحد المعارض الفنية

بنيويورك وهي فرصة جيدة له ستمكنه من عرض أعماله البديعة مستقبلاً بعد أن يوطد علاقته بالقائمين على ذلك المعرض ..

حزنت سونيا على رحيل فؤاد حزناً موحجاً حتى إنها قبل سفره احتضنته كأنها أمه وهي تبكي وتسبه كما اعتادت أن تفعل معه، وطالبته في رجاء بمراسلتها دوماً وعدم الانقطاع عنها .. ولأول مرة منذ مجيئي إلى فرنسا أحسست بأني دون الجناحين اللذين ساعداني على البقاء مخلقاً فيها لعامين متالين .. وأنا را لي طريق غربتي بأنسهما ومساندتهما لي وخفة ظلها ومواقفها الرجولية معي .. كثيرة هي الذكريات التي جمعت بيننا والتي يصعب طيها وإلقاؤها خلف الظهر في لحظات أو حتى سنين .. وعند رحيلها شعرت بأني أحصي آخر أنفاسي في فرنسا فقد ضاقت عليّ بما رحبت، ولم يعد لي فيها أحد ألقاً إليه أو أعتمد عليه .. أما الغرفة فقد سكنها اثنان من البرتغاليين الأغنياء .. لم أكن أفهم من كلامها شيئاً كما أني لم أستلطفها بتاتاً .. بالطبع لم يكن لي الحق في مطالبة سونيا بنقلها من جوارى كما كان صعباً عليّ تقبل أحد بعد فؤاد وجوني .. لكنني بعد فترة تأقلمت عليها .. وتحاملت على نفسي كي أعتاد الوضع .. وبالأخص أن عامي الثالث والأخير بالكلية قد بدأ ولا يحتمل مني أي تقصير نحوه ..

في الكلية سارت شتوني في أول الأمر جيدة إلى حد كبير .. ليست بالطبع مثل عامي الأول كما أنها ليست في سوء عامي الثاني .. لكنني على كل حال كنت أبلي حسناً في دراستي بشكل يمكّني من العودة إلى القمة مرة أخرى أو المزاحمة عليها .. فعاد إليّ طموحي المفقود بأن أكون العالم الذي حلم أبي به أو غنمته أنا .. لذا تفرغت للاستذكار بشكل جدي كي أحصل على منحة تمكّني من استكمال الدراسات العليا بالجامعة وتوفر عليّ عناء المصاريف المكلفة ..

انتهى فصلي الدراسي الأول في السنة الثالثة بنتيجة مبهرة مبشرة .. احتللت فيها المركز الثاني على دفعتي بفارق ضئيل جداً باستطاعتي تعويضه بسهولة في الفصل

الدراسي الثاني .. فعادت إلي هيتي أمام رفاقي وسمعتي الطيبة بين أساتذتي .. فمن أحسن بي الظن أولاً عاد لتشجيعي وتحميسي مرة أخرى .. ومن راهن على فشلي مجدداً خسر الرهان .. أما الشامتون فقد تلموا الحق والغيط في خنوع تام أجبرهم عليه تفوقي .. إلى أن جرى ما جرى!

• • •

في السابع عشر من مارس عام ١٩٩٠ حدث ما غيّر حياتي إلى الأبد .. وأجبرها على التراجع إلى الخلف مسافات شاسعة حينما دخلت إلى المكتبة تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود المظفر والجسم الضئيل والبياض الشاهق والجمال المتألي مرتدية قميصاً أبيض وتنورة مقلمة قصيرة، تسألني بصوت خجل خافت عن كتاب يشرح تاريخ الأدب الفرنسي بسلاسة ويسر .. فأجبته قائلاً:

- تلك الكتب يصعب الحصول عليها في مكتبة صغيرة مثل مكتبتنا .. تستطيعين الذهاب إلى المكتبة العامة كي تجدينها .. أما إذا كنت تريدين شرحاً مبسطاً فعليك بي ..

- حقاً .. كيف؟!

هكذا سألتني بجذل واستبشار .. فبادلتها أنا أيضاً تلك الفرحة لكن بكتان في صدري ممتناً نفسي الحصول منها مقابل شرحي على بعض المال الذي يساعدني في تسير حياتي ..

- أنا قرأت الكثير في الأدب الفرنسي .. وأعلم تفاصيله وتاريخه ومدارسه وكل شيء يمت له بصلة .. حتى أفضل العبارات التي قالها الأدباء الفرنسيون أحفظها عن ظهر قلب وهذا لن تجدينه في أي كتاب ..

- رائع جداً .. متى نستطيع البدء؟

تخرجت من مفاحتها في موضوع المال .. فهي كما بدا من ملاحظها مازالت تلميذة تدرس بالمدرسة وبالتأكيد لن تتمكن من دفع أي نفود لي .. لذا فضلت تدريسها مجاناً

في أول الأمر حتى ما إذا حققت نتائج جيدة بمدرستها أستطيع مطالبتها بإخبار أهلها عني كي أحصل على أجرتي .. وبينما كنت أتحدث إلى الفتاة دخل علينا إيزاك المكتبة وألقى التحية بألفة كعادته .. فإذا بالفتاة تنقض عليه بعناق قوي وتصيح بطفولية:

- عمي إيزاك .. كيف حالك؟

- أوه .. طفلي الحبيبة سارة .. ماذا تفعلين هنا؟!

- لقد جئت كي أشتري كتاباً يشرح تاريخ الأدب الفرنسي .. لكن هذا الشاب سيشرحه لي بصورة أبسط وأفضل ..

- أها .. سليم مثقف كبير في بدن شاب وسيم .. سيفيدك جداً التعلم منه .. لكن أخبريني أولاً كيف حالك وحال أمك؟

استغربت تلك الحميمة بينهما .. فهو يدعوها بطفلي الحبيبة وهي تناديه بعمي إيزاك .. وحسب معرفتي بإيزاك وكل ما يمت لحياته بصلة لم أعرف له أخاً حتى ينعت بالعم .. ولم أعرف له ابنة حتى يناديها بطفلي .. وبعد رحيلها ظللت صامتاً مدة طويلة تتصارع داخلي ذئاب الفضول لمعرفة ما قصة تلك الفتاة وما علاقتها بإيزاك الذي كان ينظر إليّ متفحصاً بين الفينة والأخرى .. حتى قطع ذاك السكون بصوته الخفيض قائلاً:

- أرى في عينيك أسئلة تطل ..

فرددت عليه متخابثاً:

- بل أنا الذي أرى في عينيك توقاً للتحدث عن شيء ما ..

- ها ها ها .. حسناً يا سليم كما تريد ..

عاد السكوت بيننا يؤجج فضولي نحو معرفة قصته مع تلك الفتاة لكنني كنت أحاول التزام الصمت وادعاء اللامبالاة حتى لا يهزمني ذاك العجوز اليهودي

ويصبح مهللاً "ألم أقل لك؟!" .. لكنني في النهاية لم أستطع الصمود أمام تلك الصلابة الجليدية فسألته متلعثماً:

- ما قصة تلك الفتاة؟!

أطل بعيني من فوق نظارته ناحيتي بالنظرة التي كنت أنحاشي رؤيتها منه في صراع صمتنا .. لكنه لم يصبح مهللاً كما توقعت وسألني بهدوء:

- أية فتاة؟!

- هيا يا إيزاك .. كف عن ذلك .. لقد استسلمت أيها العجوز ..

فضحك بوقار واهتز كتفاه النحيلان، يرد عليّ مصارعاً سعاله:

- حسناً .. حسناً .. عن أي شيء تريد أن تعرف بالضبط؟

- ما حكاية طفلي الحبيبة .. وصياحها المبهج نحوك بقول عمي إيزاك؟!

- أها .. سارة تلك بمثابة الحفيدة التي لم أرزق بها .. أحبها مثل أرثيل .. فهي ابنة لابنة عمي اللطيفة سيرينا .. والتي لا أستطيع زيارتها هي أو ابنتها بسبب زوجها رجل الأعمال الصهيوني المتعصب لإفرايم الذي كلما ألقي به يجتد بيننا النقاش إلى درجة قد تصل إلى مد الأيدي لأنه يراني يهودياً خائناً جباناً بينما أراه متعصباً سفاحاً لا يفرق عن أولئك الجزائريين الذين يحكمون إسرائيل .. هل تعلم يا سليم أنه أحياناً يحرم أهل بيته من المال كي يرشي به الصحفيين والساسة الفرنسيين لمساندة إسرائيل؟!

- حقاً؟!

- نعم .. فهو يمقت العرب بشدة ويؤمن بإسرائيل مثل إيبانه بموسى .. على كلٍ قد وفرت عن نفسي عناء زيارته المشثومة ومشاجراتي الساخنة معه واكتفيت بالاتصال سرّاً كل فترة بابنة عمي سيرينا كي أطمئن عليها وعلى ابنتها سارة ..

- وماذا عن سارة .. هل هي مثل أبيها؟!

- لا أعتقد .. أو تستطيع القول لا أعرف .. فأنا لم أرها منذ سنتين بسبب مشاغل دراستها أو تشديد أبوها عليها وعلى والدتها بعدم مقابلي .. هي الآن في الثامنة عشرة .. وستذهب إلى الجامعة مثلك العام القادم .. حينها قد تمنحنا الدنيا المزيد من اللقاءات التي تستخرج بها مشاعري الأبوية من صندوقها العتيق المهمل ..

تركت إيزاك يغرق في أحاسيسه الكثيرة وذكرياته الموحجة التي أشعلتها عبارته الأخيرة عن المشاعر الأبوية .. بينما عاد إليّ مهرولاً بعد طول غياب شيطاني الوضع فانقض على رأسي بعدما أخبرني إيزاك بحكاية تلك الفتاة ..

عاد إليّ مشتاقاً محملاً بمزيد من الحيل الرخيصة والحجج الزائفة والتأويلات الدينية الباطلة، يحدثنني هاتفاً: "ها هي فرصتك يا سليم كي تتقم لإخوانك المسلمين من اليهود الكفرة الملاحين أحفاد القردة والخنازير .. أحرق قلب إفرايم على ابنته .. ذاك الشيطان الذي ساهم في سفك دماء إخوانك بباله وجهده .. اقتلع قلبها من جسدها واطرحها مسلوقة الروح بحبك والولع بك .. تخيل يا سليم ما ستحققه عندما تنال من تلك الفتاة .. سوف تموت بحسرتها ويجن أبوها وبذاك تكون قد جنبت المسلمين شر مكروه وحقارة صنعه .. هيا يا سليم لا تدع تلك الفرصة تفوتك، أم أنك ركنت إلى الدنيا ورضيت بالتركيز في دراستك التي لن تؤذي اليهود مثلما ستفعله بسارة وأبيها إفرايم إذا أبلت فيها مثل هيلين وكريستين" .. وأتاني بعدها على استحياء رفيقه صاحب الصوت الخامل المستكين قائلاً: "لا يا سليم .. لا تمثل لوسوساتك اللثيمة .. فبتلك الفعلة ستخون إيزاك الرجل الذي ساندك وقت حاجتك وأحبك مثل حفيده .. سيتدهور حالك في الدراسة ولن تصبح العالم الذي يحتاجه المسلمون بحق .. تراجع يا سليم عن ذاك الخبل وتب إلى ربك .. ولا تؤاخذ تلك الفتاة بجُرم أبيها .."

وكعادي دائماً أنصاع لرغبات شيطاني الخبيثة .. وأترك ناصحي يعود أدراجه

جاراً لأذيال الهزيمة .. فأخذت أداول الأفكار والحيل بيني وبين شيطاني حول طريقة أوقع بها تلك الفتاة في حبي بالطبع لم أحتَرَّ طويلاً فأنا أمتلك تلك اللعنة التي ولدت بها وهي الوسامة الساحرة التي تجعل أي فتاة أختارها تخضع لإرادتي .. إلا إيزابيلا .. أه يا إيزابيلا يا حبيبتي، لم تركنتي وحيداً؟!

• • •

لم يكن من الصعب عليّ اقتناص سارة والتلاعب بها بقدر ما عانيت في تحييد تلك الطفولية بداخلها، وصراعها المحتد ضد إحساسها بالأنوثة الكاملة .. فسارة فتاة مشعة نضرة لها حضور صاحب يدد ظلال السأم ببراءتها وشقاوتها العارمة وتمرداها الخفي .. استطعت اختراق تخوم قلبها بنظراتي ولمساتي الحانية وثقافتي الأدبية الواسعة التي نلت بها انبهارها حتى اقتلعت فؤادها من محله وسخرته لي ..

كانت لقاءاتي مع سارة تتم بالمكتبة بعدما يغادرها إيزاك إلى منزله للراحة .. فتأتيني متلهفة وتغلغل رأسها في صدري كأنها تريد الإنصات لدقات قلبي لتستشف منه صدق حبي من كذبه .. ثم نغلق باب المكتبة ونفترش أرضها بالبساط، وبعدها تأخذها نوبة تسارع منفلت من عقد الطفولة نحو الاستمتاع بي، باحثة عن الحب المنشود .. أما أنا فكانت أضاجعها بشهوانية شرسة .. ألتها كثيراً بضغط أصابعي على جسدها العاري أو ضغمها من فخذها أو إتيانها من المكان الذي حرّم الله .. فيتحول مواؤها الذي تصدره كالقطة حين متعتها إلى صراخ استغاثة وخوف .. وفرحتها بممارسة الحب معي إلى حزن وندم .. ثم نستلقي إلى جوار بعضنا بعض الوقت أستمع فيه بصوت بكائها أو بحر كاتها التافهة الخرقاء وهي تحاول إضحائي ..

لم يكن حدس سارة الأنثوي أقل فطنة من سابقاتها .. فعلى مدار شهرين متتابعين كانت توقن بأن بداخلي شيئاً غامضاً منفرًا وخيفاً أضمره لها، لكنها كانت تكذب نفسها حيناً ترمي في حضني وتعبث بأصابعها الدقيقة في شعر صدري .. كانت تظنني فرنسياً .. وجنح بها الخيال إلى أن اعتقدتني يهودياً لأنني لم أفصح لها عن هويتي

كما لم يفعل إيزاك خوفاً من ألا تأتيه مرة أخرى تجنباً لبطش والدها الذي إذا علم بأنها تذهب لتدرس عند واحد عربي مسلم في مكتبة إيزاك فسوف يهيج غضبه ..

• • •

اقتربت امتحانات نهاية العام .. ولم يعد بإمكانني الاستمرار في علاقتي مع سارة حتى لا أجهز على آخر آمالي بالحصول على الليسانس .. لذا واعدتها على ملاقاتي عند سد وسجن " Barrage Vauban " كي أنهي علاقتي بها وأطعن قلبها بخنجر الغدر ..
- انظر يا سليم إلى هذا المكان الجميل .. هل تصدق أنهم كانوا يعذبون الناس هنا ويعدمونهم في القرون الوسطى؟!

هذا ما قالته ونحن واقفان أمام السجن، ترقب تدفق النهر حوله، وتتعلق بساعديها الصغيرين في عنقي .. بينما كنت غارقاً في توقع ما سيحدث لها بعد قطع علاقتي بها .. فأجبتها بصوت صارم حاد:

أنا أعرف أماكن أجمل من هذا المكان يعذب فيها أهلها ويقتلون لا شيء إلا لأنهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

برقت عيناها بفزع عاتب .. ونسغنتي بناظرها المذهولين وهي تسمعني أقول تلك الكلمات .. فرفعت يدها نحو فمها كأنها تضغط على فمي بفمها وقالت لي متلجلجة مرتبكة:

- لم أفهم ما قلت!

- بل أعتقد أنك فهمت ولا تريد أن تصدقي ..

- أصدق ماذا؟!

- أني عربي مسلم ..

• • •

مرت بضعة أيام وراء ذاك اللقاء الذي ظننت أني أنهيت به علاقتي مع سارة بنصر اعتدته في ملاحم الفراش الزائفة التي خضتها .. وقبل أن يمضي الأسبوع دخل عليّ إيزاك المكتبة بطريقة مغايرة لعاداته الرزينة الهادئة، يحدجني بنظرات ملتبهة، ويضطرب في تحركات أطرافه قبل أن ينقض على عنقي ويخنقني منه زاعقاً في:

- ماذا فعلت بسارة يا سليم؟

طاحت صلابتي أمام تلك النظرات وارتجف قلبي من مسكته الهزيلة المحيطة بعنقي ..

- ماذا تقصد؟!

- أنت تعرف تماماً ماذا أقصد فلا تتحاذق عليّ ..

أدركت حينها أنه لا مجال للكذب عليه، لكنه بالطبع يوجد مجال لتضليله .. فأجيبته متوتراً:

- أنا أحب سارة .. وهي أيضاً تحبني ..

فتشظى انفجار غضبه وانبثق فائراً من مسام وجهه الشاحب ..

- كاذب .. أنت تكذب عليّ يا سليم ..

- أنا لا أكذب ..

- لم أكذب عليها من البداية بشأن هويتك؟

- خفت أن تكرهني لأنني عربي ومسلم ..

- لو كنت تحبها لما فعلت بها ذلك ..

- وماذا فعلت؟!

- إن سارة طريحة بالمستشفى بعد أن أجهضت حملها منك ..

غارت عيناى .. وأحسست بيد القدر تلطمني على وجهي بصفعة لا طاقة لي بها
وأنا أسمع تلك الكلمات .. فارقيت على الكرسي جاحظ العينين في وجه إيزاك بعد
أن خفت قبضته من على عنقي ..

- هل كانت سارة حاملا مني؟! -

- نعم .. ويا ليت الأمر قد انتهى عند ذلك ..

سكت لبرهة كأنها يجمع قواه من جسده الهرم كي يخبرني بما يحمل من شؤم بصوته
المرتعد المتردد ..

- لقد استعان إفرام بقاتل مأجور كي يتقم لابنته منك .. أنا لم أخبره بمحل
سكنك أو مكان دراستك .. كل ما استطعت إخباره به هو ما أبلغته إياه ابنته بأنك
عربي مسلم تعمل لدي فقط ..

فزغ قلبي واضطرم الخوف فيه .. وتأكلت شجاعتي عن آخرها، وأنا أنصت لما
يقوله إيزاك قبل أن يستطرد ناصحاً:

- عليك ترك مسكنك والعمل لدي، والفرار إلى أي مكان آخر .. هذا أقصى ما
أستطيع تقديمه لك لئلا يقتلك إفرام .. قم بذلك بسرعة ولا تتأخر ثانية واحدة ..
فكل لحظة لها ثمن باهظ على حياتك .. ولا أنصحك بالشرطة .. فهو متوغل بشكل
لا تتصوره في كل شيء ..

- وأين أذهب؟! -

- لا أعرف .. عليك تحمل نتائج أفعالك الطائشة .. كل ما بوسعي فعلته لك ..
ولن أستطيع فعل المزيد، فأنا ساخط عليك بعد ما فعلته بتلك الطفلة البريئة ..

- لقد أحببتها يا إيزاك .. ولم أقصد أن أؤذيها ..

زجرني إيزاك بغیظ من ذاك الدور المكشوف الذي حاولت تمثيله عليه ..

- سليم .. لا تكذب عليّ .. أنا أعرف الحب جيداً وألحظ وميضه بالعيون .. أنت لا تعرف الحب بتاتاً.. هيا اذهب فقد انتهى ما بيننا ..

• • •

جمعت أغراضي من نُزل سونيا وهي مستغربة مما أفعله .. فأخبرتني إذا كنت لا أستطيع تحمل دفع الإيجار فستصبر عليّ أو تتنازل عنه حتى أحصل على المال الذي يعينني في حياتي .. لكنني كتمت عنها أمري وأوصيتها بأنه إذا ما سأل عني أحد فعليها أن تخبره بأنني سافرت إلى باريس، ولا تعرف عني شيئاً آخر .. ظلت ترمقني مرتابة وحزينة وأنا أخرج من النُزل إلى الشارع الذي سرت فيه بلا مسعى أصبو إليه، حتى جاء الليل زاحفاً كالثعبان حاملاً في ظلمته الرهبة وفي أصدائه الخيفة ..

كلفني ذاك المصاب ما لا أحتمله .. وذابت كل الحلول في رأسي وأنا أسير بشوارع ستراسبورج كمن يخطو في الفراغ يخشى الضجة، متوجساً من طعنة سكين أو طلقة رصاص أو ضربة عصي على مؤخرة رأسي تفجره كما فجرت الآلام في قلب سارة .. وفجأة اهتدى خلدي لفكرة اللجوء إلى البروفسير فايان هنري أستاذ مادة "التفاعل بين الأمواج والمواد" الذي كان يدرسني في عامي الثاني والذي دائماً ما أفصح لي عن إعجابه الشديد بذكائي وإيمانه المطلق بقدراتي .. لكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة بالنتيجة التي حصلت عليها في عامي الثاني .. قبل أن تعاوده نفس الحماسة تجاهي والانبهار بعبقريتي بالنتيجة التي حصلت عليها في فصلي الدراسي الأول بالعام الثالث .. لذا هو الشخص الوحيد المناسب الذي استطعت طلب المساعدة منه .. أو الوحيد الذي لم أفسد ما بيني وبينه بترهاتي الحمقاء ..

سرت مسافة طويلة أنهكتني وأنا متجه إلى بيته في ضاحية "Illkirch-Graffenstaden" .. وحينما وصلت إلى منزله فتحت لي الباب خادمتها السمينة وسألتنى بنبرة مسترية صارمة عن هويتي .. فأخبرتها أنني أريد مقابلة البروفسير فايان في أمر ضروري لا يحتاج التأخير إلى الصباح .. طلبت مني الانتظار عند الباب ريثما تخبره .. وبعد

دقيقتين أتاني البروفسير بجسده النحيل وشعره الأبيض الجافل متهللاً بقدمي داعياً
إياي إلى الدخول بترحاب حار جعلني أنفءال قليلاً بأنه سيساعدني في محتي ..

- ماذا بك يا سليم .. تبدو شاحباً؟!

- الحقيقة يا بروفسير فايان أنا أعاني من بعض المشاكل التي أسألك إعفائي من
ذكرها .. وجئت كي تعينني على التغلب عليها ..

- أي شيء أيها العبقري سأفعله لك بترحاب ..

- أريد المكوث عندك حتى انتهاء الامتحانات .. لكنني لن أستطيع تسديد كلفة
إقامتي لديك .. كما أني لا أعدك باستطاعتي ذلك ..

صمت مفكراً يفرك ذقنه بإصبعيه ويرقب رأسي المطرقة ثم صاح منادياً على
خادمته .. فهرولت ناحيته ملية .. طلب منها إعداد غرفة الضيوف لي والاهتمام بكل
طلباتي دون أي تلكؤ .. حينها شعرت بالامتنان والراحة وكدت أنكب على يديه
أقبلها شكراً لصنيعه معي ..

- الشكر الحقيقي الذي سأحظى به منك حينما تصبح ذاك العالم الكبير الذي أنشد
وتحصل على جائزة نوبل في الكيمياء .. فأفتخر بين زملائي وطلابي بأني درستك يوماً
ما .. واستضفتك في بيتي .. عدني بذلك يا سليم .. عدني ..

أعدك بأن أبذل قصارى جهدي يا بروفسير فايان ..

• • •

ما فعله معي البروفسور فايان لم يكن بالنسبة لي مجرد معروف يسديه أستاذ لطالب
يحه ويقدره، بل كان طوق النجاة الذي لولاه لتلاشى كل ما أرنو له في مستقبل
وأحلم بالوصول إليه .. أما الحياة في بيت البروفسير فكانت أقرب للمثالية التي
بددت كل مخاوفي من ذاك القاتل الذي استأجره لإفرايم للثأر من فعلتي بابتته ..

فاليبت هادئ على الدوام، وبه خادمة تعمل على راحة الجميع طول اليوم، بالإضافة إلى احتواء المنزل على مكتبة فخمة بها كل ما يحتاج إليه متخصصو الكيمياء كما أن بها رفا صغيرا الكتب الأدب والتاريخ ..

يومي في بيت البروفسير كان يبدأ في السادسة صباحاً بالصلاة وممارسة قليل من الرياضة لمدة نصف ساعة داخل المنزل، ثم تناول وجبة الإفطار التي تحضرها لي الخادمة .. وبعدها أنطلق في الدراسة حتى التاسعة مساءً، يتخلل ذلك تناولي لبضع حبات الفاكهة أو استنشاق للهواء في أثناء وقوفي بالقرب من الشباك .. وفي الليل يحين موعد النقاش اليومي بيني وبين البروفسير فاييان في أي مجال تتخيله من أدب وفن وتاريخ .. حتى السياسة كان لها حظ في نقاشاتنا .. وتكون أكثر حلقاتنا النقاشية سخونة ومشابهة لصراع ديكين فرنسين هي عندما يكون الموضوع دينياً ..

أتذكر تلك الليلة التي رأيته فيها ينث دخان سيجارته بأبهة العالم المفكر وهو يرقبني أدخل عليه بعينه اللامعتين لمعان الذئب في ليالي الشتاء الصقيعية .. يحدثني بوقار قائلاً:

- اجلس يا سليم .. أريد أن أستفسر منك عن شيء ما ..

جلست في مقابله وتفرست في وجهه المليء بالألغاز وأنا أرد عليه متهذباً:

- تفضل بروفسير فاييان سل ما تشاء ..

- أنا أراك تحافظ على أداء عبادات دينك مما استرعى اندهاشي بأن شاباً مثلك له

عقل عالم كبير يحافظ على أداء تلك السخافات ..

أدركت حينها سر ذاك اللمعان في عينيه الدقيقتين والذي كان يخفي وراءه تلك الرغبة في استفزازي ..

- السخف هو أن ندعي شيئاً ليس منا، تلمصاً من أصلنا المتخلف ..

- ماذا تقصد؟!

- أنا أستغرب منكم معشر الغرب .. تدعون أنكم علمانيون أو لا دينيين وأنكم لذتم بذاك الطريق هروباً من تخلف الكنيسة ووحشية الأديان وتنكرون عن أنفسكم مسيحييتكم أو تبرءون مما فعلتموه باسمها على مدى قرون .. بينما تحافظون على وجود تلك الكنائس وتشيدون غيرها .. لم لا تهدمونها؟!

- نحن لا ندعي الأسف تجاه ماضيها الدموي بل بالفعل نحن ساخطون على تلك الحقبة من عمر أمتنا التي أجبرتنا فيها الكنيسة على خوض حروب عدة باسم الدين، ونهبت أموالنا بحجة منحنا صكوك غفران سخيقة لا تملكها، ناهيك عن الجهل الفاضح الذي كنا نرسف في ظلامه، ونحيا به بسبب أفكارهم وآرائهم المتخلفة .. أما الحفاظ على تلك الكنائس أو تشييدها فهو دليل على رحابة العلمانية وسماحتها ..

- وهل اختلف وضعكم الآن عن تلك الحقبة؟!

- بالطبع اختلف .. فنحن الآن متمدنون .. إنسانيون .. رواد العلم في العالم ..

- وماذا عن وحشيتكم وسرقة أموال غيركم .. هل نسيت الاستعمار يا بروفير وما فعلتموه ببلادنا .. هل نسيت الحرب العالمية الثانية وما فعلتموه ببعضكم .. هل نسيت دعمكم لإسرائيل، تلك الجرثومة الناعرة في ظهر العالم ..

سكت ممتعضاً ليعصر مخه من قعره إلى مقدمته كي يُخرس طالبه الذي لن يسمح له بالانتصار في ذاك النقاش ..

- نحن استعمرناكم لتطوירكم والنهوض ببلادكم .. نعم قد حدثت تجاوزات .. لكنها تظل محدودة وليست قاعدة .. وتذكر كيف تسببت حملة نابليون في نهضة مصر .. أما اليهود فمن حقهم وجود وطن يجمعهم وعلى العرب تفهم ذلك ..

- أها .. تسمي قتل أكثر من مليون جزائري تجاوزا محدودا .. وتصف نهب ثروات إفريقيا وتحويلها إلى فرنسا واستعباد شعوبها الحرة الفقيرة تطويراً .. كما تنعت

اقتحام الأزهر بالأحصنة وضربه بالمدافع وسرقة آثارنا وقتل المصريين نهوضاً .. يا لها من حضارة عظيمة .. أما اليهود فلم لا تمنحونهم ستراسبورج بدلاً من استلاب أراضينا وقتل أهلينا بفلسطين دون ذنب؟!

شعر بالحرج وأنا أحدثه بتلك النبرة الساخرة الحادة .. فاندفع كلامه من فمه كأنها أراد محاصرتي بأي شكل قاتلاً:

- تلك هي حال كل الإمبراطوريات .. عندما تنهض فهي تدهس الآخرين ثم تعود إلى رشدتها .. مثلما فعل العرب قديماً مع كل البلاد بما فيها مصر التي تحولت من قبطية مسيحية إلى عربية إسلامية..

- لا يا بروفير فايان .. العرب لم يدخلوا أي مكان ليعيثوا فيه الفساد والخراب وينهبوا ما ليس حقهم .. إنما جاؤوا ليلغوا الناس أشرف رسالة مُحلت من السماء إلى الأرض .. وهأنذا مسلم مثل مليار مسلم أحب هذا الدين من كل قلبي وأفديه بروحي ..

- لقد أسلم أبأؤكم بحد السيف ..

- ها ها ها .. تلك هي حجة العاجز التي تشدقون بها دائماً .. لم يذكر التاريخ أبداً أن بلداً واحداً تم إكراه أهله على الإسلام مثلما فُعل في مسلمي الأندلس ويهودها للدخول إلى المسيحية أو الشيوعيين مع مسلمي الاتحاد السوفيتي .. بل تلك شائعات مفرضة تبثونها في محاولة يائسة منكم لهدم تلك المثالية الرائعة التي أوجدها الله في الإسلام دون غيره ..

- خلاصة القول العلمانية هي الحل الأمثل للبشرية ..

- بل الإسلام .. فقد عاش أهل الأرض أزهى عصور الإنسانية حينما حكم المسلمون العالم .. ثم عادوا إلى وحشيتهم المدمرة بعد أن حكمتهم العالم وحكمنا طواغيت مستبدون ارتقوا إلى سدة الحكم بدعمكم فأوصلونا إلى التخلف

والانحلال والفساد ..

- يبدو أننا يا سليم لن نلتقي في تلك النقطة أبداً ..

- الحق أحق أن يتبع بروفير فايان ..

بالطبع لم تكن تلك مناقشتنا الوحيدة أو الأقل حدة .. بل تجادلنا في كثير من الأشياء حول المرأة في بلادنا وحقوق الأقليات وغيرها من الأمور المثيرة للجدل .. فكلما تحتاج البروفير فايان إلى أي معلومة هي أقرب للشائعة المحملة بالإساءة إلى بلادنا أو ديننا كنت أنقض عليها مهشماً كلامه بما أعرفه من حقائق ومعلومات ..

• • •

كان الشيء الوحيد الذي يثير انزعاجي في بيت البروفير هو زوجته المتصايبة ماري التي دائماً ما كانت تتحين الفرصة للامستي أو التحدث معي أو حتى تطويقي بساعديها وأنا خارج من الحمام بداعي رغبتها في دخوله ورائي .. فكنت أتقرز منها وأشمئز من قرب جسدها .. لا أعرف سر ذلك، هل بسبب زغب زندها الكثيف أم بسبب تصايبها في تلك السن الكبيرة .. أم احتقاراً لما تضمه من رغبة في خيانة زوجها الطيب النقي القلب ..

لم يوسوس لي شيطاني الخبيث ليحرضني عليها .. كما لم يأت رفيقه الضعيف ليحذرنى من الزنا بها .. فقد كان شعوري تجاهها هو القرف الحاد الذي لن يمكنها مني بأي شكل مهما حاولت مراودتي عن نفسي ..

لاحظ البروفير فايان تلك الحركات المائعة من زوجته وصوتها الشهواني المتواري ونظراتها تجاهي، كأنها تدعوني لمضاجعتها في أي وقت حتى لو أمام زوجها .. لكنه لم يطردني من بيته أو يعاقبها أو يقيم بأي ردة فعل تجاه ما يدور أمام ناظريه .. وفي إحدى الليالي رأيته أدخل عليه كي نتناقش كالعادة، بينما هو مشغول بصب الخمر في كأسه .. فأشار إليّ يدعوني للجلوس وقال لي بنبرة يائسة خجلة بها كثير من الرجاء:

- هناك يا سليم مثل فرنسي يقول: (من أمنك لا تخنه حتى لو كنت خائناً) ..

- فهمت غرضه .. واستغربت تلك اللهجة المستكينة في صوته ..

- أنا لن أخونك أبداً يا بروفير فايان .. ثق في ذلك ..

ابتسم في وجهي وكأنها فرح بتمنعي عن زوجته، وقدرتي على الصمود أمام غواياتها التي تلاحقني بها .. ثم بدأ الحديث عن الكيمياء كأن هواجس نفسه ناحيتي أو ناحية زوجته قد تبددت بتلك الكلمات التي طمأنته بها ..

الذي عرفته بعد ذلك أو فهمته من الحياة في بيتها ومشاجراتها شبه الدائمة .. أن زوجته ماري هي امرأة غُلِمة حاملة تعبد جسدها وتسعى لتلبية رغباته كلما احتاج إلى ذلك، أما البروفير فايان فقد كان رجلاً مشغولاً بالعلم والأبحاث وليس له وقت لتلبية تلك الرغبات الملتهبة بجسد زوجته كما أن سنه الكبيرة والعجز المصاحب له يحولان بينه وبين إرضائها .. لذا كانت ماري تلجأ أحياناً إلى خيائته مع الشباب الفقير الذين تصيدهم بالحانات الرخيصة فتخمد نارها شهراً أو اثنين، ثم تعود للصيد مرة أخرى .. وعلى الرغم من معرفة البروفير فايان بذلك فإنه لم يفصل عنها أو تفصل هي عنه لتعيش حياتها الشهوانية دون قيود الزوجية، لأنها كانتا يجبان بعضهما أو يخشيان الافتراق عن بعضهما في تلك السن الحرجة ولا أحد لهما في الدنيا سوى أحدهما الآخر.

• • •

انتهت دراستي بكلية الكيمياء جامعة لويس باستور بظهور النتيجة في السابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٩٠، والتي كانت جيدة إلى حد كبير نظراً للظروف التي عشتها في ستراسبورج، وما قمت به مع نساها .. لكنها لم تكن كافية كي أحصل على منحة لاستكمال الدراسات العليا بالجامعة .. الأمر الذي تحده البروفير فايان انطلاقاً من إيمانه بي، فعرض عليّ مساعدتي مادياً كي أستكمل الدراسة بالجامعة،

لكني رفضت .. فأنا لن أحيأ سنوات أخرى خائفاً في بيته، أخشى ذاك القاتل أو أعيش عائلة على نفقة البروفسير مكلفاً إياه ما لا ذنب له به .. لذا عزم على الرجوع إلى مصر فلم يعد لدي شيء في فرنسا أبقى من أجله .. مُقنعاً نفسي بقدرتي على الحصول على عمل في مصر واستكمال دراستي، ومن ثم الوصول إلى هدي الذي حلمت به، ولكن عن طريق مختلف ..

انتهيت من إجراءاتي في سرعة كي أهرب من ذاك الخطر المحدق بي أو ذاك السجن الذي عشت فيه مرتجفاً لثلاثة شهور .. وحجزت تذكرة سفري إلى مصر من المال الذي أعطانيه البروفسير فايان .. وفي مطار شارل ديغول بباريس عادت إلى رأسي الذكريات الأولى مع أمي بفرنسا، وراحت الأحزان تهز بنيان قلبي حتى رأيت ما أضحكني وأنساني تلك الشجون ..

- هل تعرف ماذا رأيت يا دكتور علي؟

- ماذا رأيت؟!

شاهدت صورة هيلين وهي شبه عارية على صدر مجلة ومكتوب جوار صورتها (هيلين عارضة الأزياء الألمانية متوحشة الأنوثة تساند حق إسرائيل في احتلال جنوب لبنان)!

١٠

على الضفة الأخرى من العالم وفي بقعة بعيدة كل البعد عن فرنسا أو السعودية أو حتى مصر .. بالتحديد في مدينة الرياح العادلة أو الهواء العليل المسماة بيونس آيرس .. قلب الأرجنتين النابض وعاصمتها .. خُلقت رقصة التانجو في أواخر القرن التاسع عشر حول بيوت الدعارة في منطقة تدعى ريفر بلات الخاضعة وقتذاك لسيطرة طبقة المهاجرين الأوروبيين .. هناك ولد التانجو كابن جذاب لرقصة الميلونغا "Milonga" الأوروغوية، وحفيد بار لرقصة هابانيرا "Habanera" الكوبية من أجل إثارة الرجال واجتذابهم لدفع أموالهم للغانيات ..

في عام ١٩٠٢ ونتيجة لاندماج الموسيقى الأوروبية بالموسيقى الأرجنتينية المحلية تشكلت موسيقى التانجو، وأدخلتها أوبرا تياترو في عروضها .. وأصبحت الرقصة هي الرقصة الشعبية الأكثر انتشاراً في الشوارع والأحياء الفقيرة ..

نالت موسيقى التانجو الاعتراف الحقيقي بها في الفترة بين ١٩٠٣-١٩١٠، حينما صدر في الأرجنتين وحدها ألف تسجيل جرامافون كان ثلثهم عن موسيقى التانجو، ثم ارتفع عدد الإصدارات بعد ذلك في الفترة بين ١٩١٠-١٩٢٠ إلى ألفين وخمسمائة تسجيل، من أصل خمسة آلاف وخمسمائة ..

وفي عام ١٩١٢، بدأ راقصو التانجو يسافرون إلى أنحاء العالم .. ووقع الجنون بتلك الرقصة في باريس أولاً، ثم لحقت بها كل من لندن وبرلين وعواصم أخرى .. لكن سرعان ما خف الولع بها بعد تنامي الانبهار بدور السينما وبالرقصات الجديدة

مثل الفوكستروت والسامبا .. أما في عام ١٩١٦ فقد انتقل التانجو من رقصة شعبية في الأحياء الفقيرة ببيونس آيريس إلى القصور ومناطق الأثرياء .. وبالأخص بعدما أطلق المطرب المعروف آنذاك كارلوس جارديل أول أغنية تانجو له في عام ١٩١٧ ..

وعلى يد فرقة دي كارو، شهد التانجو عصره الذهبي في أوائل العشرينيات، كما بدأ ظهور الرقصة في الأفلام السينمائية بداية بالفيلم الصامت " The Four Horsemen of the Apocalypse " للمخرج ريكس إنجرام عام ١٩٢١ .. أما أول فيلم موسيقي دار حول الرقصة كبطلة للقصة، فكان فيلم وداعاً بيونس آيريس " Adiós Buenos Aires " للمخرج ليوبولدو توريس في عام ١٩٣٨ ..

في عام ١٩٢٩، اجتاحت الكساد العظيم بلاد العالم ثم في العام الذي يليه فرضت قيود حكومية أدت إلى انخفاض الإقبال على التانجو بعد الإطاحة بالرئيس هيبوليتو يريغوين من الحكم عن طريق خوسيه فيليكس، في أول انقلاب عسكري شهدته الأرجنتين بعد إعلان الدستور .. لكن الرقصة لم تمت وعادت شيئاً فشيئاً تحبو إلى الساحة مرة أخرى .. ففي الأربعينيات وبرعاية شركة بتروليو ظهر مجموعة من الراقصين عملوا على تحسين أداء الرقص والتحركات بإيقاعات جديدة جعلت المرأة على قدم المساواة مع الرجل من خلال حركات ضغط الأصابع ولغة الجسد، مما أعاد للرقصة رونقها الذي خبا نوعاً ما لعقد من الزمان ..

شهدت فترة الخمسينيات أسوأ مرحلة في حياة الرقصة حيث كادت تندثر بسبب قرارات المجالس العسكرية بحظر التجمعات العامة بالإضافة إلى الكساد الذي كانت تعانيه البلاد .. ولحاجة الشباب عموماً إلى الموسيقى لجئوا إلى استماع موسيقى الروك أند رول وتناسوا موسيقاهم المحلية التانجو .. لكن في أوائل السبعينيات خلق التغيير السياسي بالأرجنتين البيئة الملائمة لعودة التانجو إلى المسرح من جديد، عن طريق التانجو الأرجنتيني وتانجو إلى الأبد وغيرها من الرقصات، كما ساعد ظهور العديد من الراقصين أمثال ميجيل أنخيل وأوسفالدو زوتا وميلينا بليس على ترسيخ

أقدام الرقصة في الأرجنتين، مشيعاً صيتها القوي بالعالم .. وهكذا ظل الوضع مستقراً للرقصة، حتى وفاة بيرون عام ١٩٧٦ حينما تسلم الجيش مقاليد الحكم، وعاشت على إثر ذلك الأرجنتين سبع سنوات جحيمة أطلقت عليها سنوات الرصاص، حيث قتل العسكر ثلاثين ألفاً من المعارضة ونُفي الكثير من المثقفين وأصحاب المهن الحرة .. وعندما مُني الجيش الأرجنتيني بهزيمة نكراء أمام الإنجليز عام ١٩٨٢ في معركة جزر فوكلاند، اضطروا على إثرها إلى تسليم السلطة للمدنيين فنزعت الديكتاتورية القائمة عن الأرجنتين، وازدهرت الرقصة مرة أخرى وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من أي فيلم روماني أو أي احتفال رقص عالمي، وزاد الإقبال عليها إلى حد لم يتخيله مبتكروها الأوائل ..

رقصة التانجو هي رقصة ارجتالية بنيت خطواتها في جو من الموسيقى الحزينة المبهجة .. المثيرة جنسياً وعاطفياً .. يُطلق فيها عنان الزوجين خارج أية حدود أو قواعد تفرضها قاعات الرقص .. فيلهم كل طرف منهما الآخر بنظراته وتموجات يده الملامسة للجزء العلوي لجسد شريكه، مما يدفعهما إلى التحرك بسلاسة بقدميهما الحرتين لتتكون حولهما هالة غير منظورة من الإحساس الفريد والابتسامة المتوهجة تجنبهما الخطأ وتمتعهما بكل لحظة يقضونها في مراقبة أحدهما الآخر، حتى تُنهك الموسيقى فتدوب الهالة من حولهما ويتوقف الرقص ..



كان ذلك أشبه بالنشيد الوطني الذي يلقيه يومياً رمزي رشيد الزاهر على مسامع ولده عمر وهو جالس باسترخاء في شرفة منزله بحي لا بوكا ببيونس آيرس يشرب "المليتة"، وهو شاي يتم تحضيره من الأوراق الجافة لشجرة محلية بالأرجنتين، ويُشرب بوساطة قشة يمص بها الشراب في وعاء من القيقطين ..

رمزي رشيد رجل مصري تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥٨، هو وزميله السوري لؤي بسام اللذان كانت تربط بينهما علاقة صداقة متينة أقرب للإخوة

.. وذلك لأنها كانا يدرسان بنفس القسم للغة الإسبانية، ويتشاركان في نفس الهواية وهي العزف على العود .. كما أن شعورهم الناعمة، ووجوههم الحنطية المائلة للبياض، وعيونهم السوداء اللامعة الواسعة، وشواربهم الثقيلة، جعلت البعض يظن أنها أخوان حتى ما إذا ما بدأ الكلام، وتكلم كل منهما بلهجته، تبدد ذاك الاعتقاد في رؤوس من حولهما .. أما السمة الأساسية بينهما والتي كانا يتشاركان فيها بشكل صارخ، فهي بغضهما للون السائد من الموسيقى في ذاك الوقت، والذي كان يقدمه الملحنون أمثال رياض السنباطي وكمال الطويل وفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب وغيرهم من مشاهير الموسيقيين في تلك الفترة .. وذلك هو السبب الأكبر في احتقار أهل الفن لهما وعدم الإنصات لموهبتهما .. مما جعل لؤي بسام يقرر الهجرة إلى الأرجنتين عند ابن عمه بشار، سعياً للرزق بعد أن أوصدت أمامه الأبواب في مصر .. بالطبع لم يستطع رمزي رشيد ترك صديقه يهاجر وحده فجازف بالسفر معه لعل حلمهما يتحقق يوماً ما، ويثبتا للعالم أن لهما فناً خاصاً لو عُرض على الناس للفظوا ما دونه وتداعوا عليه ..

وفي عام ١٩٦٠ وصلا بيونس آيرس الأرجنتينية .. المدينة التي سحرت رمزي بموسيقى التانجو، فنسي العود وأهل بلده، بل حتى نسي نفسه .. أذهبت تلك الموسيقى عقله بتقلباتها بين الحزن والبهجة في بضع لحظات، وإيقاعاتها التي تحرك سكون النفس وتدفع الجسد لأداء حركات رقصتها المذهلة في انصياع تام .. حاول رمزي الدمج بين موسيقانا العربية وموسيقى التانجو، لكنه فشل، إما لضعف موهبته أو استحالة القيام بذلك ..

عمل الصديقان في تجارة القماش فترة طويلة امتدت إلى ثلاث سنوات .. كانت فترة كافية ليمتلك التانجو ورقصته عقل رمزي كلياً .. وبعد انقضاء تلك الفترة قرر رمزي شراء حانة صغيرة ليحولها إلى صالة تانجو، لكن صديقه لؤي رفض مشاركته بل رفض فكرته جملةً وتفصيلاً، مفضلاً الاستمرار في تجارة القماش المربحة .. إلا أن رمزي كانت عزيمته راسخة على شراء تلك الحانة، حتى ولو كان على حساب فقدانه

لصديقه لؤي الذي سافر إلى بوليفيا عند خاله كي ينشأ متجره الخاص ببيع الأقمشة .. وبالفعل افترق الصديقان فراقاً أبدياً لم يقدره بلحظات وداع تليق بطول مدته .. واشترى رمزي تلك الحانة وغيّر من شكلها الداخلي والخارجي حتى أصبحت مثل صالات رقص التانجو المعروفة .. وبدأت الصالة تدر عليه ربحاً معقولاً لكن ليس مثل تجارة الأقمشة ..

وفي شهر مايو عام ١٩٦٤، التقى رمزي بكاسندرا .. التي أسرت قلبه من أول لحظة دخلت فيها إلى الصالة ورقصت أمام ناظريه .. وبعدها بعام أنجب طفله الأول عمر من كاسندرا دون زواج .. فسارع بالارتباط بها بعد إنجابها لولده حتى ينشأ الطفل في أسرة حقيقية .. لكنه تزوجها على المذهب الكاثوليكي .. فهو لم يكن يدين بشيء سوى الموسيقى والحب لذا لم يكتثر لأي دين أو مذهب تتم به مراسم الزواج التي لا يرى أي فائدة لها .. فهي بنظره لا تنكر واقعاً أو تثبت شائعة حول أي علاقة بين رجل وامرأة ..

عملت كاسندرا كراقصة في صالة رمزي عدة سنوات تحسن فيها حال الصالة مادياً وذاع صيتها في أنحاء بيونس آيرس كلها .. فقد كان الجميع يأتي لمشاهدتها تؤدي تلك الحركات بجسدها الشهي الفاتن على أنغام الموسيقى الممتعة، حتى جاءها في يونيو عام ١٩٧٠ عرض من أحد وكلاء الراقصين المعروفين ببيونس آيرس للعمل في لاس فيجاس كراقصة محترفة مقابل راتب شهري مغرٍ ..

لم تستطع كاسندرا مقاومة إغراء الحلم الأمريكي وبالأخص أن حياتها مع رمزي أضحت روتينية خجمة .. فهما يستيقظان في الصباح ليتناولوا الإفطار ثم يذهب رمزي إلى تنظيف الصالة، بينما تتمرن هي على حركاتها التي ستؤديها في رقصة الليل .. أما عمر فقد كانا يهتآن به لدقائق معدودة في العصر حينما يشران الماييتي بجوار بعضهما قبل توجههما إلى الصالة، ويُنهكان بها حتى منتصف الليل .. لذا فحياة كاسندرا لم تكن مثالية أو حتى جيدة .. وبالأخص بعدما راح يتغذى داخلها ذاك الإحساس المقيت بأن علاقتها برمزي هي مجرد نزوة جمعت بينهما جاء على إثرها عمر الذي لا

تشعر ناحيته بذلك الرابط القوي الذي سمعت عن أنه يجمع الأم بابنها ..

على كل حال هاجرت كاسندرا إلى لاس فيجاس بالولايات المتحدة الأمريكية تاركة وراءها ولدا لم يبلغ الخامسة من عمره، ورجل خلع قلبه ومرغت كرامته في الوحل أمام الآخرين وهم يسخرون منه لهروب زوجته .. فساء وضع الصالة عن أيامها الأولى، ولم تفلح محاولات رمزي في استقدام راقصات شبابت لعودة الزبائن مرة أخرى إلى صالته .. فكاسندرا ليس لها مثيل بين راقصات التانجو .. وبشاشة وجهها لها سحر خاص في قلوب الرجال ..

وعلى الرغم من كل ما حدث، فإن إيمان رمزي برقصة التانجو ظل قوياً لا يتزعزع للحظات .. فأصر على الاشتغال بها على الرغم من خسائره أو نصح المقربين منه بتحويل نشاطه إلى أي تجارة أخرى، وليكن تجارة القماش كما كان يعمل في أيامه الأولى، حتى يستطيع تربية ولده بشكل حسن .. لكن وفيما يبدو أن للتانجو روحا خفية تسري بالهواء أشفقت على حال الرجل وقررت مساندته دون مقابل كما آمن بها دون مقابل .. فتحسنت حال الصالة بشكل تدريجي وعادت مرة أخرى تدر دخلاً معقولاً على رمزي وولده عمر ..

نشأ عمر في عاصفة من الحيرة نبت داخله، مثلما نبت هو في بيونس آيرس تلك الأرض التي وجدها غريبة عنه على الرغم من أنه لم ير أرضاً غيرها طيلة حياته .. فقد كان يسعد كثيراً حينها يجالس والده في وقت العصر كي يستمع لذكرياته عن مصر أو عن أي شيء يمت لها بصلة .. فيحاول التشبه بأهل بلده وعاداتهم حينما يلتقط تلك الكلمات القليلة من فم والده التي يصف بها شعب مصر وطباعهم غير عابئ بالأرجنتينيين أو الأوروبيين الذين ترعرع وسطهم، فهو لم يشعر قط بانتمائه إليهم أو مشابهمهم .. وكأن العامل الوراثي المخلوق في جسد كل مصري قد تحرك به .. فنحن لا ننسى وطننا مهما ادعينا ذلك أو مهما بعدنا عنه، عكس كل جنسيات العالم!

أكثر ما أزعج عمر أو أثار استغرابه في العرب المقيمين بالأرجنتين وبالأخص

المسلمين هو ذاك التحلل الصارخ من كل ما يمت لأصلهم بصلة .. فهم لا يقيمون شعائر دينهم مثل اليهود والمسيحيين، ولا يوجد عندهم أي مانع في تزويج أولادهم من أي جنسية أو ديانة أخرى .. وكأنهم يحسون بالعار تجاه أصولهم التي نزعوها عنهم رغبة في الاندماج السريع بمجتمعهم الجديد .. فلا يؤدون أي من عادات بلادهم القديمة سوى تجمعات يوم الأحد لاحتساء القهوة العربية، وسماع عزف رمزي على العود لأغاني فريد الأطرش التي يحبونها ولا يحبها ..

حاول عمر أداء فروض دينه على قدر المعلومات المتحصل عليها من أبيه وأصدقائه والتي كانت دوماً شحيحة ومتضاربة .. فتارة يسمع أن شهر رمضان هو شهر يصوم الناس فيه يوماً ابتهاجاً إلى الله، وتارة أخرى يسمع أنه شهر يصلى فيه باليوم ثلاث صلوات بدلاً من صلاة واحدة كل أسبوع، قاصدين صلاة الجمعة .. أما القرآن فهو لم يقرؤه لعدم قدرته على قراءة العربية وندرة المصاحف المطبوعة بالإسبانية .. ناهيك عن الكثير من الأشياء التي يجد الحديث فيها زخماً بالمسيحية أو اليهودية، ويندر الكلام عنها بالإسلام لعدم وجود من يتحدث باسمه في الأرجنتين ..

لم يكمل عمر تعليمه بالجامعة بل اكتفى بالثانوية كي يعين والده في صالة التانجو التي لم يتعلم أي صنعة غير الرقص بها .. وكان له جمهور واسع يأتي خصيصاً لمشاهدة حركاته وتعبيرات وجهه الوسيم وهو يقود شريكته بكل براعة تلهب مشاعر السيدات اللواتي كن يأتين للتمتع برؤيته، وهن يسورن القاعة، تراودهن أحلام ورغبات شهوانية متقدة بالنوم معه ولو لليلة واحدة، لكنه تَمَنَّى عن ذلك لأنه سمع في ذات مرة أن الزنا محرم بالإسلام .. لكنه لم يعرف أن الرقص كذلك محرم لذا استمر في عمله عند أبيه!

في السابع عشر من إبريل عام ١٩٨٩، توفي رمزي عن عمر ناهز الثانية والخمسين بسبب سكتة قلبية ضربت صدره بينما كان ينظف الصالة في الصباح كعادته.. فأسى عمر على فراق والده واشتد حزنه على أبيه مرارة حينما كان يفكر بأنه

قد يقذف بجهم بسبب عدم تأديته لفروض دينه أو لجهله بها ..

وفي يوليو عام ١٩٨٩، وصل سوري الأصل كارلوس منعم إلى سدة الحكم بالأرجنتين وهو المرتد عن دين أبيه الإسلام، المعتنق للكاثوليكية كي يصل إلى السلطة كما كان حال معظم العرب بالأرجنتين الذين انسلخوا عن أصولهم وتناسوا كل شيء عنها ..

عندما وصل كارلوس إلى الحكم ربط البيزوس بالدولار كي يوقف التضخم بالأرجنتين لكنه تسبب في جمود الصادرات الأرجنتينية مقابل ازدياد عمليات الاستيراد .. فاشتد الفقر بين الناس بسبب سياسات كارلوس الاقتصادية الفاشلة، بالإضافة لفساده وفساد حاشيته .. فاخفت الطبقة الوسطى وانضمت إلى الطبقة الفقيرة التي تدهور حالها في ظلمات العوز والجهل .. وقد أثر ذلك على عمل عمر في صالة التانجو التي ورثها من والده .. فساء وضعه وانحدر للهاوية ولم يعد يأتيه من الصالة سوى القليل الذي يسد جوعه فقط دون أن يطمح لأقصى من ذلك .. لكنه في الثاني عشر من سبتمبر عام ١٩٩٠، قرر بيع الصالة والعودة إلى بلاده الأولى التي كان كل ما عرفه عنها هو تلك القصص القصيرة الممتعة التي كان يسردها له والده في أثناء تناوله للمأثية في جلسة العصر .. فأخرج العلبة التي كان يضعها والده بالدولاب والموجود بها مفتاح شقته في مصر وبعض أرقام الهواتف لعدد من الأقارب والأصدقاء القدامى لأبيه .. ثم سلم الصالة لمالكها الجديد .. وحجز لنفسه في رحلة جوية طويلة ستنتهي به إلى الأرض التي حلم برؤيتها يوماً ما .. والتي يأمل أن يتعدل حاله بها عن حاله بالأرجنتين ..

١١

هاأنذا أعود إلى الوطن الذي لم أعرفه .. إلى الأرض التي لم ألقها .. إلى الحياة البدائية المرفقة .. إلى الرائحة العطرة والشوارع المهيمة والوجوه الشاحبة .. إلى الشمس الحارقة والأرصعة المنصهرة والغبار الكثيف .. إلى المكان الذي لم أجد غيره لأجأ إليه بعد أن ضاقت عليّ الأرض بما رحبت .. فحياتي بفرنسا أضحت مستحيلة ومحاوله السفر إلى غيرها مجازفة غير محسوب عواقبها .. لذا أعود مُكرهاً إلى البلد التي من المفترض أنني أنتمي إليها وأحل اسمها، وهي لم تحملني على ظهرها عُشر تحملي لجنسيتها البغيضة .. لكنني من هنا سأنتقل لتنفيذ حلم والدي وتحقيق هدي، بأن أصبح العالم الكبير الذي يذكره الناس بإجلال ويتصارعون للجلوس في حضرته .. لكن أي تبجيل أسعى إليه في وطن الأمية هذا، حيث الجهل هو الحاكم والمسيطر .. على كل، هي مدة قصيرة أقضيها هنا وأرجع إلى أوروبا أو أذهب إلى عمي في أمريكا والذي أتمنى أن يكون قد أرسل رسالة أخرى كي أعلم عنوانه وأرسله ..

هذا ما كنت أقوله لنفسي وأنا أهبط على درج الطائرة بتأن وترو، كأني أتمهل الغوص في الجحيم وأنتظر رحمة من ربي كي تتشلني من المصير الذي أبغضه من فوق درجة ما من درجات الدرج .. أجوس بناظري في أرض المطار الممتدة ومبانيه المتهالكة وعماله المساكين، ساخطا مكتئباً ..

سرت خلف القادمين بفتور وقرف صاعراً خدي مختالا في خطواتي كأني رئيس فرنسا فرنسوا ميتران، وليس مجرد شاب مصري عاش آخر ثلاثة شهور من حياته بفرنسا متسولاً لقمته هارباً من مطارديه!

ولكي أختتم جواز سفري، وقفت متأففاً في طابور طويل يخترقه بعض عمال النظافة بين الحين والآخر بحجة تنظيف الأرضية وليس التسول .. وبعد طول انتظار وصلت إلى شباك الضابط الذي سلمته جوازي ووقفت على مضض منتظراً ختمه كي أرحل من أمامه .. لكنه كان يحدجني بنظرات مستريبة كارهة وهو يقلب في صفحات جواز سفري! .. اعتقدت في أول الأمر أنه يحقد عليّ لأني قادم من فرنسا بينما هو قادم من أحد الأحياء الفقيرة المعدمة التي يكفهر وجه الطير حينها يمر من فوقها .. لكني بعد ذلك شعرت أن الأمر زائد عن الحد فقاطعت تلك النظرات الصارمة التي رمقني بها الضابط سائلاً في لطف:

- هل هناك خطب ما؟!

لم يرد عليّ، وقام من مقعده متجهاً ناحية ضابط يعلوه رتبة ليتبادلا الهمس بخصوصي والنظر إليّ .. ثم جاءني ذاك الضابط ذو الرتبة الأعلى ليسألني بحدة:

- هل أنت سليم باهر الشاذلي؟

- نعم أنا هو ..

- تنح عن الطابور جانباً .. ورافق الضابط إلى المكتب كي نسألك بضعة أسئلة ..

- أية أسئلة .. وأين سيصطحبني؟!

كان عيشي بفرنسا لبضع سنين قد أنساني ما وجب عليّ معرفته عن ضباط مصر أو العرب عموماً الذين لا يهتملون الرد على الأسئلة .. بل يأمرن، والآخرن هم مجرد منفذين كالدواب أو أقل شأنًا .. لذا رد عليّ الضابط بغلظة ووجه ممتقع لا يعرف الهزل:

- ألزم الهدوء من أجل مصلحتك .. ونفذ ما طلب منك ..

تنحيت كما طلب جانباً .. واصطحبني ضابط أقل رتبة من رتبة الضابطين الآخرين

إلى غرفة صغيرة، كل ما كان فيها مكتب رمادي صغير وراء كرسي خشبي متهرئ ليس أفضل حالاً من الكرسيين المقابلين للمكتب، وخلفه شباك صغير يدخل منه نور الشمس ..

انتظرت هناك ساعتين بحالهما لا أفهم شيئاً مما يدور حولي، ولا أعرف سبب احتجازي بذلك المكتب الوضع .. وشغل بالي التفكير في بضعة احتمالات عن سبب تعاملهم السيئ معي .. فقلت في نفسي: يبدو أنهم قد علموا بما فعلته مع سارة إفرام من خلال علاقات والدها المتعددة التي قد تكون مكنته من الوصول إلى الضغط على الحكومة المصرية ليتقم مني .. أو أنهم يشكون بارتباطي بالموساد الإسرائيلي بسبب عملي عند إيزاك لفترة طويلة .. أو أنهم يشبهون بي لمجرد تشابه اسمي مع أحد آخر يطلبونه، وسرعان ما سيتأكدون من خطئهم ويعيدونني إلى ما كنت عليه مع اعتذار مهذب ..

وفجأة دخل عليّ المكتب شاب يرتدي بدلة سوداء ونظارة بنية ماركة ري بان .. بدا من وجهه وملابسه أنه أرفع شأنًا من الضباط الذين قابلتهم، فهو نظيف بشكل لافت عكس أولئك الذين تعطي جباههم حبات العرق الثقيلة .. اقترب مني وسألني بلطف ممزوج بالحزم:

- أنت سليم باهر الشافلي؟!

- نعم ..

- تفضل معي ..

- ألا يجب أن أعرف لماذا تصطحبني أولاً .. أو أعرف أي شيء عما يجري لي هنا!

لم يرد عليّ وهو يخرجني من الغرفة بدفعة رقيقة على كتفي، لم أقاومها، فشاهدت رجلين يرتديان مثله عند الباب، صحباني برفقتها بخطوات واسعة إلى خارج المطار عن طريق بعض الممرات الجانبية، وليس من الجانب الذي يخرج منه المسافرون ..

وفي خارج المطار رأيت رجلاً عريض المنكبين ذا شارب سميك بدا من هيئته وفتحه للباين الأمامي والخلفي أنه السائق .. جلس الرجلان إلى جانبي في الكرسي الخلفي وأنا وسطهما .. وفي الكرسي الأمامي جلس الرجل الذي دخل عليّ الغرفة، ثم نزع عن وجهه نظارته وأمر الآخرين أن يغموا عيني ويقيدوا يدي .. فسألته بوجل مرة أخرى عن سبب ذلك كله .. حينها رد عليّ مرعداً:

- لو نظقت حرفاً واحداً طوال الطريق فسأطلق عليك الرصاص وألقيك من السيارة .. هل فهمت؟

• • •

لم أحسب المدة التي قضيتها في السيارة مقيداً ومغمض العينين .. فقد كان عقلي متوجساً وقلبي منقبضاً على نفسه .. طافت بجسدي موجات الخوف كأنها في حلقة متصلة لا تنفصل وجِرض حلقي بريقي المحترق .. حتى توقفت السيارة .. واقتادوني منها مكبلاً ومغطى بصري إلى مكان اختفت من ظله الشمس .. سرنا فيه خطوات عديدة لا أكاد أسمع شيئاً سوى وقع أقدامنا على الأرض، قبل أن يوجهني أحد الرجال الذين اقتادوني معهم إلى يميني وهو يتزع عن عيني تلك الغمامة ويفك قيد يدي .. ففتحت ناظري على غرفة لا توجد بها أية نوافذ وغير مضاءة سوى بمصباح صغير مثبت بمنتصف السقف، وفيها كرسي خشبي واحد أقعدني عليه إنناك قلبي القلق المضطرب .. ثم أغلق عليّ باب الغرفة مدة جاوزت الساعة، حتى فتحه رجل طويل به بعض السمنة .. أصلع الرأس أسمر اللون ذو شارب محدد وعينان سوداوان حادثان كعيون كلاب الصيد .. اتجه نحوي يرمقني شزراً ويشمر عن ساعديه الغليظين سائلاً إياي بصوت خفيض مخيف:

- من أذن لك بالجلوس على الكرسي؟!

- لم أجد غيره في الغرفة فجلست عليه ..

انهال على وجهي بصفعة أطاحت بنصف نخي من مكانه إلى النصف الآخر،
والتصقت عيناى ببعضهما .. فأشعل نار الغضب بصدري واجتاز الحق كل أسوار
صبري .. وهممت برد الصفعة عليه لكلمات حتى أقتله، لكنني تذكرت في لحظة
حكايات والذي عن أيام اعتقاله بعد هزيمة سبعة وستين، وبالأخص حكاية صديقه
الراحل شاهين الذي أغضب أحد الضباط فصبوا عليه ماء النار حتى قتلوه، وتلذذوا
بصرخاته وعذاب جسده .. لذا دفعت كل السخط بداخلي نحو لساني المرتجف قائلاً:

- لم تضربني؟ .. أنا لم أفعل شيئاً يستحق هذا!

نظر إلى وجهي بخمول مصطنع، ثم أشاح بصره عني وهو يخبرني بهدوء كأن ما
فعله معي من همجية شيء تعود عليه ..

- هنا كل شيء بإذن .. حتى الهواء الذي تتنفسه يجب أن تستأذن للحصول عليه
.. فهمت يا ابن أميمة الجزائرية؟

اتسعت على وجهه ابتسامة مأكرة هازئة وهو يعاود النظر إلى وجهي من جديد
ويردف سائلاً:

- أين أبوك؟

لو أنني تركت الرجل بالسيارة يطلق علي الرصاص .. أو تركت ذاك الغبي يصب
فوق جسدي ماء النار، لكان أهون علي من سماع ذاك السؤال وأخف وطأة من هم
التفكير في الإجابة عنه .. صمت لبضع ثوانٍ لم تمنحني نظراته غيرها، أفكر في إجابة ما
أقولها له .. فمعرفته باسم أمي وجنسيته يجعل الكذب عليه مجازفة قد لا تُحمد
عقبها .. وإذا أخبرته الحقيقة فهل سيصدقني أم هو يعرف ما أعرفه وبسؤاله لذلك
السؤال ينتظر مني معلومات أكثر مما لديه .. فأجبت مرتبكاً:

- كما تعلمون .. هو في أفغانستان ..

صفق بيديه صفقتين واهتين استحساناً لإجابتي ثم قال لي:

- بداية جيدة يا سليم .. أعجبتني تلك الكلمة "كما تعلمون" .. فنحن هنا نعاني كثيراً مع أولئك الكذابين الذين يظنوننا مغفلين .. لذا سأخطئ بعض الإجراءات المعتادة بتعذيبك كذا مرة واستجوابك مرات أكثر .. وسأسألك سؤالاً محدداً .. أين والدك الآن؟!

- لقد قلت لك .. إنه في أفغانستان ولم أره أو أسمع عنه أية أخبار منذ أربع سنوات ..

لطمني مرة أخرى على نفس الناحية من وجهي، وصدم إصبعه السميكة أنفي فأرغفت وسال الدم منها وهو يفر بصوته الأجلج قاتلاً:

- لقد بدأت أستحسن أسلوبك العقلاي .. لم تريد إغضابي؟!

اغرورقت عيناى بالدموع وأنا أرد عليه بحزن وانكسار:

- أقسم لك أنى لا أعرف عنه شيئاً منذ أربع سنوات ..

- حسناً .. كما تريد ..

هتف بصوت عالٍ كأنه عاصفة تضرب باطن الأرض منادياً على شخص يدعى عبد الباسط، والذي جاءه مهرولاً ووقف بين يديه وقفة المتحفز لتنفيذ الأوامر ..

- خذ ابن الكلب هذا وضعه مع الكلاب الآخرين ..

- تحت أمرك يا فندم ..

التقطني عبد الباسط من قفاى بقبضته الغليظة، دافعاً إياى إلى خارج الغرفة .. وكدت أقع على وجهى عدة مرات وهو ينهزنى فى الرواق الضيق، حتى وصلنا إلى باب حديدي سميكة .. فأخرج سلسلة مفاتيح من جيبه وفتح الباب الذى كان صليله أكثر إزعاجاً من صوت المحقق .. وبانت لى فى الغرفة كومة من البشر شبه عراة متسخين ورائحتهم العطنة تغشى العقول .. لمحت فى وجوههم دماء متجلطة

ومواضع متفخة .. أما أجسادهم فكانت متورمة مغبرة .. كانوا أكثر من عشرة أشخاص متكديسين داخل زنزانة عرضها لا يزيد على الثلاثة أمتار، وطولها مثل عرضها، لا توجد بها نافذة واحدة في حوائطها الصلبة المتصلة .. والهواء الداخل إليها يأتيها من تحت عتبة الباب عمزجاً بشعاع ضوء رفيع قد تسلل خلسة من قبضة أولئك المتوحشين ..

لكزني عبد الباسط إلى داخل تلك الغرفة مزجراً ..

- ادخل يا حيوان ..

• • •

في لحظاتي الأولى بالزنزانة، تمتيت البكاء، لكن الجزع بداخلي كان حاجزاً منيعاً في عيني المتجمدتين هلعاً أو تحسناً لطريقي وسط السيقان المجروحة الممتدة، أنصت بإحكام لتلك الأنفاس المحملة بتأوهات الألم وحشرة نزاع الموت كأنها تحذرن من نفس المصير أو من الدهس على أجساد أصحابها فيزيد عذابهم أضعافاً مضاعفة ..

قضيت أسبوعين بذاك القبر المظلة أبوابه على سرادق جهنم .. أخشى النوم .. ولا أستطيع التلفت أو حتى الوقوف .. الأيام كلها ليالٍ، والظلام لا يبدله سوى الظلام .. لا يتردد في أذني سوى الحوقلة الخافتة والأنين اللاهث .. ولا تلمس يدي سوى الأجساد اللزجة المضرجة بالدماء .. أما أنفي فلم تشم سوى عفن العرق الممزوج بتخثر الدم في بعض الأيام، وفي أيام أخرى كنت لا أشم شيئاً حينما يطلق علينا العساكر خراطيم المياه فيشع الهواء بالزنزانة ويندر أكثر مما هو معدوم، فتستحيل تلك الجزئيات القليلة من الهواء إلى رطوبة خانقة تسبب في إغماء أكثرنا .. وعندما يفتح الباب تقفز أنوفنا من وجوهنا لبضعة ثوانٍ مطاردة تلك النسبات التي ضلت طريقها إلينا .. لكن سرعان ما يأتي خلفها ظل قائم لأشباح مفترسة آتية لتقمط أحناءنا بمهارة وخفة ودربة كي تصحبه إلى عذابه الوحشي المعد له من زبانية الجحيم .. بينما يصرخ المسكين ويصوت دون جدوى ..

أو ما ألعن تلك الأيام الكريمة البائدة .. التي كلما تذكرتها أهلع من تكرارها عليّ
في قعر الجحيم ..

في يومي الخامس أو السادس .. لا أدرك تحديداً ذاك اليوم المشثوم الذي جاء دوري
فيه لأذوق ما ذاقه أقراني .. لم يستطيعوا حملي أو قمطي بسبب مقاومتي الشرسة لهم ..
لذا تألبوا عليّ وأوسعوني لطمأً وصفعاً حتى اقتادوني إلى خارج الغرفة بالركل الموجه
وهم يسبونني ويسبون أُمي المتوفاة .. وبالطبع أبي ..

أدخلوني إلى غرفة صغيرة بها كل ما تتخيله من عتاد الشر وقهر الأنفس .. ففي
أول الغرفة رأيت سلكاً كهربائياً موصولاً بمقبس في الحائط .. أما في وسطها فوجدت
حبلين متدلين من السقف، يقابلهما حبلان مربوطان إلى الأرض .. وفي آخر الغرفة
يوجد ما يشبه الشواية الصغيرة تهج النار بها هجاً، ويتأجج بها الفحم التهاباً وهو
يخالط أسنة الأسياخ المحمرة انصهاراً ويتطاير منها الشرر مطلقاً .. وبالقرب من
الباب التقيت مرة أخرى بذاك الغليظ الذي صفعني من قبل .. يسألني ساخراً:

- أأعجبتك ضيافتنا المتواضعة؟ .. أعتقد أنها ليست مثل فرنسا، لكنها جميلة ..
ها ها ها ..

رددت عليه مذعوراً مما شاهدت وأنا أتلفت بين تلك المخالب الشيطانية التي
ستنهش في جسدي بعد لحظات:

- ماذا تريدون مني؟! .. أقسم لك أي أخبرتك الحقيقة .. والله ..

خنقني من صدغي وحدق في عيني بنظراته المرعبة هامساً كفحيح الثعابين:

- اسمعني جيداً يا ابن الوسخة .. لو لم تقل لي مكان والدك فسأجعلك تتمنى
الموت بأي طريقة حتى تُرحم ..

- والله كل ما أعرفه أنه في أفغانستان .. وقد انقطعت عني أخباره منذ أربع
سنوات ..

نزع يده عني وابتسم بخبلٍ في وجهي قائلاً:

- حسناً كما تريد .. ولأنك قادم من فرنسا بلاد الديمقراطية فسوف أدعك تختار الوسيلة التي سترتاح بها من بين تلك الألعاب الطفولية الرائعة ..

ويح سادته الفاجرة ووقاحته اللعينة وهو واقف أمامي بسذاجة يخبرني بأي طريقة أحب التعذيب .. فاحتضنتني من رأسي قائلاً بلطف مصطنع وهو يتمشى بي وسط الغرفة:

- أترى ذاك السلك الرفيع يا سليم .. إنه يجعلك ترى الدنيا كلها نوراً وتصرخ فرحة بضيائها .. أما تلك الحبال المدلاة من السقف فنطلق عليها العروسة، ونقوم بربط الضيف بها ونلعب معه دور العريس بسوط لاسع، فلا يذهب ذهنك إلى بعيد .. ها ها .. أما التي في آخر الغرفة فلا أنصحك بها فنحن نستخدمها في عمليات التجميل .. وأنا أرى وجهك جميلاً وحده فلا تضطرننا إلى استخدام تلك العمليات فيه وبالأخص أن جراحينا بقرهمج ..

تناقل جفناي بالدمع وأنا أدور بعيني الغائرتين بين المصائر المحتومة .. وتحسرج صوقي بتوسل قائلاً:

- أقسم لك أنني لا أعرف مكانه .. والله ..

- حسناً سأختار أنا لك إن لم تختَرَ ما يناسبك في ثلاث ثوانٍ .. واحد .. اثنان ..

- حسناً .. حسناً .. أختار الحبل المتدلي ..

- أها .. اختيار موفق .. علقوه ..

علقت يداي في الحبل المنسدل من السقف وتدلّى جسدي منه حتى شعرت أنه سيفصل عن كتفيّ بعد دقائق .. أما قدمي فقد أحكم ربطهما بالحبل الممدود على الأرض .. ثم أمسك الضابط بالسوط وغمغم من ورائي قائلاً:

- استعنا على الشقاء بالله ..

رحت أضغو وأنتفض في مكاني كالمسوس، أتمزق ألماً بيننا يصيح الضابط ورائي
سائلاً في صرامة:

- هل تذكرت الآن مكان أبيك؟

كنت أقسم له بكل الأيمان التي أعرفها لعله يرحمني، لكنه كان مُصرّاً بشكل
غريب على أني أعلم مكان والدي .. تمنيت خرسه لئلا يزيد ألمي آلاماً بصوته النكر،
داعياً الله أن تشل يده أو يغشى عليه لكن الله لم يستجب دعائي .. ظللت أصرخ
كالمجنون من ضربات السوط الحارق، واشتد هياج آلامي حتى ودع إدراكي العالم
وسقط رأسي على صدري .. ففكوا وثاقي وتحسس الضابط نبضي ليجدني حياً ..
التفت للوراء وأمر العساكر بجري إلى الزنزانة ثم قال هازئاً:

- خرع .. لم يحتمل بضع دقائق في أحضان العروسة .. شباب آخر زمن!

وفيما بدا أن أولئك العساكر ليسوا بالضباط .. ففيهم نزر من الرحمة التي لم تجف
بين صدورهم .. فقد جروني على بطني إلى الزنزانة ولم يجروني على ظهري .. ولو
فعلوا لكان اللحم كشط عن عظمي وتقرحت جراحي حتى صارت لحظاتي تحت
ضربات السوط كالجثة بجانب لحظاتي بعدها ..

وعندما طرحت أرضاً داخل الزنزانة وراحت تأوّهاتي تسابق أنفاسي، وجدت
يداً حانية رقيقة امتدت إلى ظهري لتصب عليه من ماء الأرض، فتمسح دمائي
وتلجم جراحي .. رفعت يدي كي تلامس تلك اليد وتمسستها، فوجدته جلدأ
لاصق بعظم ناحل تبرز فيها عروق متفخة .. ثم اخترق العتمة بيننا صوت هزيل
مشفق قادم من نحوه ..

- هل اشتدوا في عذابك يا أخي؟

همعت عيني وأنا أجيبه بذل:

- لقد جعلني أختار الطريقة التي أتعذب بها ..
- يبدو أنك قد أثرت بعضاً من الرحمة فيه .. فذاك الضابط عادة ما يفترسنا بالطريقة التي تتلذذ به نفسه المريضة ..
- سكت لدقائق وهو لا يقوم بشيء سوى صب الماء فوق ظهري ثم سألني عن اسمي ..
- سليم الشاذلي ..
- ولم أتوا بك إلى هنا؟
- يريدون معرفة مكان والدي الذي أقسمت لهم مائة مرة أنني لا أعرفه .. فقد سافر إلى أفغانستان منذ أربع سنوات ولم أره أو أسمع عنه شيئاً من يومها ..
- لا تبتس .. فأولئك الأوغاد تعودوا تكذيب الجميع ولا يصدقون حتى أنفسهم .. أنا اسمي محمد عبد التواب .. اعتقلت ظليماً مثلك ..



محمد عبد التواب نجعان .. إنه الشاب النحيف الذي عندما تحسست وجهه شككت بأنه ذو ثلاثة أنوف بسبب عظمتي وجتية البارزتين .. هو طالب جامعي بالفرقة الرابعة كلية التجارة جامعة القاهرة .. أي في مثل عمري تقريباً .. أبوه عبد التواب نجعان كان يعمل فراناً بمخبز إمبابة الآلي، أما أمه فقد توفيت وهو في السادسة بمرض السكر .. كانت له أخت أصغر منه اسمها إسرائ في السنة الثانية بكلية الحقوق جامعة القاهرة .. عاشوا جميعاً في شقة هي أقرب للعشة فوق سطح أحد المنازل القديمة بحي إمبابة، لا تغادر شفاههم تلك البسمة الراضية الرائقة وهم يحمدون الله ليل نهار على ما يملكون من نعم، قد لا تتوفر لدى غيرهم .. ولا يطمعون في شيء من متاع الدنيا سوى الستر .. حلم محمد بالسفر إلى الإمارات عند ابن خالته ليعمل هناك ويريح والده من عناء الوقفة أمام لهيب الفرن ولفحاته الحارة في

الصيف، وأيضاً كي يجمع المال الكافي لتجهيز أخته إذا ما تقدم لها عريس يطلب يدها .. أحلام بسيطة قانعة ظلت تراود ذاك الشاب الطيب حتى تفجرت جوانبها وبان من ثناياها ذاك الكابوس المرعب الذي بدد ضياء حياتهم وهنائها ..

فقبل ثلاثة أشهر من دخوله المعتقل، شاركت أخته إسرائ في مظاهرة طلابية بالجامعة نددت باعتقال زملائها بالكلية والذين قُبض عليهم بسبب توقيعهم على بيان يرفض وجود سفارة إسرائيل على أرض مصر .. وفي أثناء عودتها إلى المنزل اختطفها بعض رجال الشرطة واتهكوا عرضها داخل أحد الأقسام، ثم ألقوها فجراً عند كورنيش المعادي ممزقة الملابس مسحوجة الوجه تنازع الموت، حتى صرعها، فانتقلت روحها إلى بارئها من أرصفة الشوارع وليس كما تمنى لها محمد بالحياة المديدة في بيت جميل يحيط بها زوج طيب وأولاد بارون يتהלلون باسمه حين رؤيته ..

جن جنون محمد ونزف عقله آخر ما به من حلم .. فهاج في الشوارع يطلب قاتلها ليتقم منه .. وراح يزق في وسط الكلية أمام حرس الجامعة بأن من اغتصب أخته وقتلها سوف يقتله ولن يهنا باله حتى يرديه مثلاً وأد عذرية إسرائ الباسمة الطاهرة وأزهق روحها .. وكان له ما أراد عندما تم اختطافه هو أيضاً وقابله الضابط الذي اغتصب أخته وقتلها .. لم يستطع محمد بجسد أعجف محاط بثلاثة مخبرين شداد الاقتراب شبراً واحداً من ذاك السفاح، لكنه ظل يرمقه شزراً كأنها يسأل عينيه إطلاق السهام على ذاك الحقير فتمرق من قلبه الأسود وتقتله .. وبدلاً من أن يحاكم الضابط على فعلته أو ينكرها أو حتى يعتذر عنها، راح يضرب محمد بكل تبجح ويدوس على وجهه في الأرض .. ثم أمر بإلقائه في المعتقل أبد الدهر!

• • •

لا أعرف لم ارتاح قلبي إلى محمد وطابت نفسي بالحديث إليه .. قد يكون لحجم ألمه الهائل الذي حمله داخل صدره الصغير مقارنة بما في .. وقد يكون بسبب لطفه الفائق وصبره الذي حسدته عليه .. فكنا نهون على أنفسنا ظلمات السجن بثرثرتنا

الخافثة .. ونرطب جراحنا بمياه الأرض الفاترة ..

في آخر أسبوعي الثاني بالمعتقل، جاء خُدام الشر كي يصطحبوني من الزنزانة .. والذين تعودت عدم مقاومتهم لثلاثينكلوا بي مثلما فعلوا في أول مرة .. لكنهم في تلك المرة اقتادوني إلى غرفة بها مكتب ومقاعد وتكييف هواء وليست غرفة التعذيب إياها .. لم أبتهج بالمكان الذي أخذوني إليه فقد أيقنت بعقلي أنه تحقيق بشكل آخر ثم أعود لرفيق ظهري، ذاك السوط الحارق الصاعق .. وفجأة شاهدت نفس الضابط الأصلع يدخل عليّ المكتب حاملاً على وجهه علامات جادة لم أعتدها من وجهه الباسم الشامت في عذاباتنا ..

- لقد فتشنا حقبة سفرك ووجدنا بها تلك الرسائل ..

نظرت إلى الرسائل بهلع .. فذاك هو السر الذي أخفيته عنه طوال فترة سجنبي وتحملت العذاب بغصة كي لا تصل إلى يد أحد غيري فهي آخر ما تبقى لي من ربح أبي ..

- أرجوك يا حضرة الضابط .. أتوسل إليك اترك لي تلك الرسائل فهي آخر ما يربطني بأبي ..

- نعم يا روح أمك! .. هل ستسيرنا بمزاجك؟!

- انقلوا ما بها .. حللوا ما فيها .. لكن أرجوكم اتركوا لي تلك الرسائل .. فأنا أرى فيها وجه أبي الذي قد لا أراه مرة أخرى ..

- يبدو أنك تريد المكوث عندنا فترة أطول ولا تريد الخروج .. لقد نويت الإفراج عنك اليوم .. لكن ممممم ...

سرعان ما تشكل في رأسي جدول مفاضلة بين رسائل أبي ويقائي في المعتقل فوجدت أن كفة إطلاق سراحي أرجح وأثمن عندي من تلك الرسائل .. فأنا قد لا أرى النور مرة أخرى إذا ما أزعجت ذاك الأصلع البغيض ..

- حسناً يا سيدي .. كما تريد .. أنا على استعداد لفعل أي شيء تريدونه كي أخرج من هنا ..

رشقني بنظرة مأكرة متعالية ورد بصوته الكريه قائلاً:

- لا نريد من وجهك الكثير .. كل ما أريد معرفته اسم من أوصل إليك تلك الرسائل ..

- أقسم أني لا أعرفه .. فقد أعطاني الرسائل وهروا مسرعاً إلى خارج المنزل متحججاً بأن هناك رسائل أخرى يريد تسليمها ..

- هل تعرف أوصافه أم أنك لا تتذكر أيضاً وتحتاج إلى حضن العروسة كي تتذكره؟!

- كهل ذو وجه حنطي سمين بعض الشيء تبت على جانبي وجهه لحية مبعثرة ..

- أخرج صورة من درج مكتبه وألقاها أمامي بتعالٍ سائلاً بصرامة:

- هل هذا هو

- نعم .. إنه هو ..

١٢

اجتاحتم عمر رمزي مشاعر عديدة متوازية بين لهفة العاشق، وفرحة اللقاء، ابتهاج طفل بهدية العيد، وسرور تلميذ بنجاحه .. راح يحول بعينه من الطائرة بين بيوت مصر وضواحيها فبدت له كحبات لؤلؤ متثور على الرمال الصفراء .. فحدث نفسه قائلاً: أخيراً استطأت قدمي الأرض التي لطالما نازعني الشوق إليها وأرقت عليّ الهناء بالبلد الذي ارتضاه لي أبي .. هنا سأتقاسم الهواء مع أبناء جلدتي الذين أنا منهم وهم مني وليس أولئك العرب المسوخ بالأرجنتين أو غيرهم من الأوروبيين والغاوشو .. أخيراً سأكتشف السر الموجود بداخلي ناحيتها والذي لم أعرفه من قبل .. الآن أنا في وطني الحقيقي .. إلى هنا أنتمي ولن يكون لي مكان آخر أنتمي إليه غير هنا .. يا حبيبتني يا مصر ..

• • •

خرجت من معتقل الأصلع إلى سجن كبير، كل ما رأيته فيه لم أعرفه وخشيت منه .. لم أحتج لوقت طويل كي أدرك أنني لا أنتمي إلى هذه البلد، وأن كل ما فيها غريب عني .. الحياة .. الناس .. البيوت .. الشوارع .. لا يوجد بيني وبين أي منها رابط واحد .. اللهم إلا ذكرى كريستين وأيامي المملة بمدرسة سانت فاتيما التي كنت أَعدها حتى يحين موعد خلاصي وأسافر إلى فرنسا ..

عندما عدت إلى بيتي بمصر الجديدة لم أنظفه أو أضئ النور فيه .. كل ما فعلته أني ارتقيت على سريري وتركت غباره يلوذ إلى داخلي مصطحباً معه خيوط العتمة

الشاحبة ولم أمنعهما .. بالطبع كانت تلك النومه هي رفاهية لم أحلم بها حينما كنت في ذاك القبر الجهنمي أعرض على صنوف العذاب في الليل والضحي .. مكثت على هذه الحال بضعة أيام متكئا على أطلال كرامتي، مستظلا بدجن نفسي ذات العزة المبتورة لا ينقطع ماء عيني ولا نشيج أحزاني كأني حققت بمصل المهانة والذل .. الغريب أني كنت أوفر المعتقلين حظاً فقد سمح لي الضابط الأصلع باختيار طريقة تلائمني في تلذيب ولم يختَرْ هو كما اعتاد مع غيري من البؤساء المقهورين ..

انقضت أول ثلاث ليالٍ لي بالمنزل ممدداً على السرير، لا أتحرك يميناً أو يساراً ولا ترى عيني سوى ذكريات فرنسا الجميلة، ووجه أبي أو جسد أمي وهي في تابوتها، ثم فجأة تبادها مشاهدي المربعة بالمعتقل والتي كانت تمر أيامه أمام محجري عيني بكل تفاصيلها البشعة .. وفي يومي الرابع استجبت لطرق الجوع على جدار بطني ففتحت باب المنزل ونزلت إلى الشارع كي أشتري الطعام الذي لم أذقه لثلاثة أيام في سكرات حزني التي لم تتكالب عليّ هكذا عندما كنت في السجن أجتو مع زملائي على الأرض، نتحسها كي نجد كسرة خبز متبقية نسد بها فوهات معدتنا الفارغة ..

كان في جيب البنطال الذي أتيت به إلى مصر مائة جنيه، مقسمة إلى خمسة أوراق من فئة العشرينات، كنت قد حصلت عليها من صرافة بمطار شارل ديغول بعد تحويلي لآخر نقود أعطاني إياها البروفسير فايان .. كنت أنوي تسير أموري بها ليومين أو ثلاثة لحين أسحب المال الذي أودعه لي أبي بينك فيصل .. لكنني حينما أدخلت يدي في جيبتي وجدت كل الموجود به ثلاثة جنيهات .. حقيقة .. كان رد فعلي الأول على ذلك هو الضحك المستيري حتى ظنني صاحب البقالة مجنوناً .. فخرجت من عنده واشترت من المطعم الذي يليه بجنيه فول وفلافل وثلاثة أرغفة .. وعدت إلى المنزل لالتهامهم ..

• • •

أخرج عمر الدفتر الصغير من جيبه المسجل به أرقام هواتف أقاربه وأصدقاء

والده المقربين .. فاتصل بهم واحداً تلو الآخر .. وكلما اتصل برقم ما رد عليه شخصٌ ينكر وجود من يطلبه أو يجد الهاتف يرن ولا يجيبه أحد أو غير موجود بالخدمة .. أما الرقم الوحيد الذي اتصل به ووجد فيه ضالته فكان رقم عم والده ضابط الجيش عبد الحميد الزاهر، والذي مكث لدقيقة أو أكثر يردد اسم ابن أخيه حتى أسعفته الذاكرة .. فهلل مرحباً بعمر ودعاه إلى زيارته ببيته في مصر الجديدة ..

سرعان ما حمل عمر حقيته وقذف بجسده في أول تاكسي قابله، مبلغاً السائق جذلاً بالعنوان الذي أعطاه له عم والده .. بالطبع اشتم سائق التاكسي رائحة الغربة الطويلة تعبق بوجه عمر فاستغل الفرصة وطلب منه أجرة تفوق الطبيعي بعشرة جنيهات .. ولو طلب ما يزيد بائة ضعف لدفعها الأخير عن طيب خاطر، لكنه فيما بدا أن ذاك أقصى ما توصل إليه جشع السائق ..

ظل عمر ملتصقا بوجهه في شباك السيارة، يعاني بعينيه المبتهجتين كل حبة تراب أو وجه أسمر أو شرطي مرور مسكين، أو حتى قطعة ضالة فوق صفيحة مهملات .. وراح يرد على ثرثرة سائق التاكسي وهو يقلده في طريقة حديثه وإياءات رأسه وغمزات عينه، ظناً منه أن أسلوب السائق في الحديث هو نفس أسلوب الشعب المصري كله!

- أهلاً .. أهلاً يا عمر ..

هكذا هتف عبد الحميد الزاهر وهو فاتح ذراعيه في روبه الرمادي الحريري .. فتأمل عمر للحظات ذاك الوجه صاحب الشعر الأبيض الناعم المصفف والملامح السمراء الصارمة والأذنين الكبيرتين والشفاه السوداء من تدخين السجائر .. ثم احتضنه بشوق جارف وكأنه يعرفه منذ زمن أو يشاطره العديد من الذكريات السعيدة!

• • •

عبد الحميد الزاهر هو لواء متقاعد من الجيش الثاني الميداني .. خاض حروب ستة وخمسين وسبعة وستين وثلاثة وسبعين .. أصيب في حرب ثلاثة وسبعين بشظية قنبلة أصابت أعلى فخذة بحروق بالغة، نالت من ذكورته إلى الأبد .. كان يصبر مع زوجته منار التي تزوجها قبل هزيمة سبعة وستين بشهر واحد على عدم الإنجاب حتى يتنصر المصريون على الجيش الإسرائيلي .. فهو لا يريد أن يولد له ابن في وطن منكسر رايته منكسة ورأسه مطأطة .. وعندما أصابه ما أصابه بعد نصر العاشر من رمضان، لم يستطع الإنجاب كلية .. لذا طلق زوجته، وعزم على قضاء باقي أيامه كمقاتل في الجيش المصري، مهمته الدفاع عن تراب بلده، حتى أحيل إلى التقاعد في عام ١٩٨٣، ومن يومها وهو يعيش حياة وحيدة مملّة لا يصبره على إكمالها سوى لقائه الأسبوعي مع بعض المحاربين القدامى بنادي دار الدفاع الجوي، ليتذكروا ويتفاخروا بمعاركهم البطولية ضد الإسرائيليين، مخلوط بذلك بعض الثثرة .. أو الندوات التي تعقد كل عام بمناسبة ذكرى حرب أكتوبر، فيجد حينها نفسه ويشعر بقيمتها واعتزاز الناس به ..

وفيا يبدو فإن عمر واللواء عبد الحميد قد أنسا لبعضهما البعض وتمتعا بالحديث الطويل بينهما في لقائهما الأول .. فبعد انتهاء اللواء من سرد ذكرياته مع ابن أخيه رمزي انتقل للحديث عن حرب أكتوبر، بعدما استشف الشغف في عيني عمر لسماع القصص البطولية عن وطنه الذي أحب .. كما قام أيضاً عمر بقص حكايته في الأرجنتين وحكاية والده وطباع الناس هناك ونمط حياتهم وغيرها من الأمور .. وحينما حل الليل بستره الغامق الممتد على وجه السماء، استأذن عمر من اللواء كي لا يثقل عليه عازماً الذهاب إلى البيت الذي كان يعيش فيه والده قبل هجرته إلى الأرجنتين ..

- أي بيت يا ولدي؟!

- لقد أخبرني والدي قديماً بأن له شقة في حي يدعى العباسية .. وهذا هو مفتاحها، وذاك هو عنوانها ..

قهقه اللواء من تلك السذاجة التي بدت في عيني ونبرة صوت عمر قبل أن يسأله متعجباً:

- وهل تظن أن تلك الشقة ستكون في انتظارك حتى الآن؟!

استغرب عمر ضحكة عم والده الساخرة وسؤاله الذي بدا له غير منطقي إطلاقاً .. فرد على سؤاله التعجبي بسؤال استفهامي:

- وهل من المفترض ألا أجدها .. إنها شقة والدي وأنا وريثه الوحيد؟!

- يا ولدي شقة والدك هذه كانت إيجاراً .. والدك امتنع عن دفع إيجارها مدة طويلة لذا فهي الآن في خبر كان ..

لف عقل عمر ودارت له الدنيا على وجهها الحقيقي المخيف وهو يهوي بجسده على المنضدة مرة أخرى بعد أن همَّ بالمغادرة .. يقول مذهولاً:

- يا إلهي .. ماذا أفعل؟!

لم يتردد اللواء أو يفكر كثيراً قبل أن يجيب عمر بلين الأب الذي لم يشأ الله له الإنجاب وحشم ضابط الجيش الصارم:

- ستمكث عندي ..

ثم أردف مبتسماً:

- فأنا ليس لي أحد في الدنيا .. وأنت كذلك .. ويبدو أن الله قد أرسلك إليّ حتى ترث ما أملكه أو تسير في جنازتي حينها أموت وترحم عليّ وأنت تزور قبري .. فلم يتبقَّ من عائلتنا غيري أنا وأنت .. فالكل إما مهاجر أو متوفى .. ها يا عمر .. ما قولك؟

بالطبع لم يرفض عمر طلب اللواء عبد الحميد .. فهو على كل حال لن يستطيع

العودة إلى الأرجنتين مرة أخرى، كما أنه لا يوجد له أحد في مصر سوى ذاك العجوز الطيب ..

• • •

بعد ما امتلأت بطني بأكلة الفول وصل الدم إلى عقلي وعاد إلى التفكير مرة أخرى إذ كان متجلطاً جامداً .. فحدثني قائلاً: عليك يا سليم بدء حياتك لا أن تظل هكذا كئيباً محبطاً مدفوناً فيها قبل أن تقبرك أرضها .. هل نسيت حلمك وحلم والدك؟! .. هل ستجعل ذاك الضابط الأصيل اللعين يدمر حياتك؟! .. إلى متى ستظل هكذا راقداً على السرير تبكي أحياناً وتغرق في غمك أحياناً، وبين هذا وذاك يومك مقسم؟! .. عليك النهوض والعودة من جديد .. عليك إجبار العالم كله على احترامك ومهابتك التي تستحقها .. اذهب إلى الجامعة .. وابدأ في دراسة الماجستير ثم احصل على عمل مناسب يساعدك على المعيشة وما أكثر الشركات التي تتمنى أن يعمل لديها خريج جامعة لويس باستور .. وبعد أن تحصل على الماجستير عُد مرة أخرى إلى فرنسا فحينها سيكون إفرايم قد نساك وسكن غضبه .. فاحصل على الدكتوراه واجتهد في الأبحاث التي بالتأكيد ستوصلك إلى طريق المجد، فعبقريتك لن تتخذلك أبداً ..

تغلبت على كسلي وخمول حزني فقمت ونظفت الشقة بهمة ونشاط عالين .. وبعدها تحممت وأزلت عني قذارة المعتقل وآثار أيدي الجلادين التتنة .. ثم ارتديت ملابسني وخرجت إلى الشارع متجهاً إلى بنك فيصل كي أسحب المال الذي وضعه والذي باسمي قبل أربع سنوات .. وفي كل خطوة سرتها بالشارع، كنت أتخيل وضعي المبجل بعد بضع سنوات فتشد عضلات وجهي على ابتسامة خافتة تذوقت بها لذة آمالي وطموحاتي .. حتى وصلت إلى البنك بأناقتي ووسامتي وجيبي الذي لا يوجد فيه غير جنيهين .. فسحبت المال من حسابي والذي زاد بدرجة جيدة بعدما أضيفت له العوائد .. ثم خرجت من البنك عازماً الانطلاق إلى مبتغاي ..

١٣

مررت بست جامعات مصرية من داخل القاهرة وخارجها كي أدرس الماجستير .. وتقدمت إلى أكثر من عشر شركات للحصول على وظيفة أعمل بها .. وكانت الإجابة الوحيدة التي حصلت عليها من وجوه مشفقة أو شامته هي: "نحن آسفون .. لا نستطيع قبولك لدواع أمنية!"

كنت أسألم بتوسل وهوان عن كيفية الناصر من تلك الهوة التي انهار داخلها مستقبلتي فلا يجيبوني سوى بجملة واحدة: "عليك بالاتصال بالجهات المعنية .. نحن لسنا طرفاً في ذلك" .. وبالطبع أنا لا أستطيع الذهاب إلى مبنى أمن الدولة والسؤال عن الضابط الأصلع السمين الذي قام بتعذيبي على مدار أسبوعين كي أحصل منه على تصريح يسمح لي باستكمال الحياة .. فأنا لا أعرف اسمه ولا رتبته ولا المكان الذي اعتقلت فيه .. وإذا أخبرتهم بذلك فقد يرجعونني إلى المعتقل مرة أخرى دون رجفة ضمير ..

ما الحل يا ربي؟!

ذاك هو السؤال الذي كلما رفعت عيني إلى السماء أطلقتته نظراتي المنكسرة الراجية ودموعي المذرفة الواهية .. فقد أوصدوا بوجهي كل أبواب الدنيا .. ولم يعد لدي عمل أعول نفسي منه ولا أعد أملك مستقبلاً علمياً أطمح له سواء بمصر أو خارجها .. نعم لقد كان ذاك الأصلع محقاً حينما أخبرني: "هنا كل شيء بإذن .. حتى الهواء الذي تتنفسه يجب أن تستأذن للحصول عليه .."

كنت حائقاً ساخطاً على كل شيء .. وابتلعت نار غضبي كل ما بقي من روحي وعزيمتي .. لم تركها رماداً كما هو متوقع، بل كلها استعرت بداخلي، أوغرت في جرحي ووجدت ما تحتطبه .. كنت ألعن كل شيء حتى صنبور المياه إذا انقطع سيلانه حينها أغسل وجهي المتقنع .. ولا تتأرجح في رأسي سوى تلك التعجبات غير المفهومة السائلة: هل يكفي ذهاب والدي إلى أفغانستان كي يحارب السوفييت سبباً لاعتقالي وتدمير مستقبلي؟! .. نعم إن الحرب قد وضعت أوزارها، وعاد كثير من أولئك المجاهدين إلى بلادهم يحثون الناس على الانتفاض في وجه حكوماتهم، وشكلوا صداعاً موجعاً في رؤوس أصحاب السلطة، لكن والدي لم يعد، وإذا عاد فبال تأكيد كانوا سيعلمون .. هل ما حدث لي كان انتقاماً من رب العزة على ما اقترفت في فرنسا؟ .. لكنني فعلت ذلك جهاداً في سبيله ضد أولئك الكفرة .. هل هناك أمل في يوم ما أن أحقق طموحاتي؟ .. اللعنة أنا لا أستحق تلك النهاية النكراء .. أو يا إلهي ..

وعلى الرغم من قسوة المصير الذي حُكم عليّ به، فقد أخذت أفكر في حلٍ ما يُمكنني من المضي بالحياة وإلا فلأتحر وأخلص نفسي من عذابات الدنيا ملقياً بها إلى هلاك الآخرة .. فكرت أن أعمل بالمال الذي تركه لي والدي والذي لم أصرف منه الكثير بعد .. لكنني تذكرت تلك العبارة اللعينة "دواع أمنية" والتي لن أستطيع بسببها الحصول على أي ورقة من الحكومة وستوقف جل مصالحتي، فتراجعت عن الفكرة .. واقترح عليّ عقلي أن أودع المال الذي بحوزتي في البنك وأعيش على أرباحه السنوية .. لكن ربحه في أكثر البنوك ربوية لن يمنحني سوى مصاريف شهرين أو ثلاثة وليست سنة كاملة بالإضافة إلى أن قيمة المال في تناقص مستمر وليست ثابتة .. فما الحل ياربي؟!

• • •

مكث عمر أسبوعاً مع اللواء عبد الحميد يفكر في مشروع يقيمه بمصر يستطيع من ربحه الاعتماد على نفسه .. ورغم الكرم الزائد واللفظ السخي الذي أحاط

اللواء به عمر لثلا يشعره بأي حرج أو ضغط عليه للحصول على عمل، فإن عمر ذاك الشاب الذي تعود الأكل من كسب يده أو هز بدنه منذ نعومة أظفاره أبى أن يظل عائلة على عم والده ..

واجهت عمر مشاكل عدة في بحثه عن الرزق بمصر .. فأول المشاكل هي عدم إجادته لقراءة أو كتابة اللغة العربية .. بل هو يتحدث اللهجة المصرية بركاكة وبصعوبة، لذا فإن الفكرة التي عرضها عليه اللواء عبد الحميد بأن يعمل مترجماً في أحد الصحف أو التليفزيون لن يستطيع النجاح بها .. المشكلة الثانية هي عدم إكماله لتعليمه، وذلك يضعف فرصه في بلد أكثر عاطليه هم من حملة المؤهلات العليا .. وإذا رضي بالعمل في أي وظيفة من الوظائف الدنيا فلن يستطيع الاستمرار بها لأنه لن يتحمل مشاقها، فقد عمل طيلة حياته كراقص للتانجو ولم يقارع شمس الظهيرة بجسده يوماً ما، أو يتفصد جلده بالعرق المنهك .. المشكلة الثالثة هي قلة المال الذي بحوزته بالإضافة إلى عدم مقدرته على التصرف به بشكل يلئم حاجات السوق لشح معلوماته عن الحياة بمصر ..

عندما رأى اللواء ذلك الإصرار الشديد من عمر للحصول على وظيفة لم يجد أمامه سبيلاً إلا محاولة تلبية طلبه على الرغم من رغبته الخجول في بقاء عمر إلى جانبه بالبيت كي يؤنسه في وحدته، ويساعده في هرمه على حوائج الدنيا .. فكلم العديد من أصدقائه لعلمهم يجدون له عملاً ما يريح باله، حتى استطاع أحد أصدقائه المقربين التوصية له على العمل كنادل بكافيتريا نادي هيلوبليس لمدة ثماني ساعات يومياً، تبدأ من العاشرة صباحاً وتنتهي بالسادسة مساءً مقابل أجر لا بأس به، بالإضافة إلى البقشيش الذي سيعوضه بشكل كبير عن ضعف الراتب ..

فرح عمر كثيراً بذلك العمل وأصابته غبطة النجاح .. فكان يستيقظ مبكراً في الصباح ليعد فطور اللواء الذي أضحي يناديه بجدي .. ثم يعطيه أدوية السكر ويغادر بعدها إلى عمله الذي لاقى فيه استحسان كل المحيطين به من العمال ومدير

الكافيتريا وأعضاء مجلس إدارة النادي وبالطبع رواد النادي .. فأصبح في غضون أسابيع أو أقل من أشهر شخصيات النادي بوسامته وجاذبيته وشخصيته المرححة اللطيفة ونشاطه الحماسي .. وعند عودته ليلاً يكون مجهداً بعض الشيء فينام ساعة أو ساعتين، ثم يسهر بضع ساعات مع اللواء يلعب معه الطاولة وينصت بإحكام لحديثه عن أمجاده في حروب مصر ضد إسرائيل ..

ارتضى عمر ذاك العمل الجديد بل وأحبه .. ونتيجة لعمله بتلك الكافيتريا كون علاقات جيدة مع العديد من الشخصيات المهمة التي إذا قصدتها في أمر ما مستقبلاً فسوف يساعدونه بلا شك .. والأهم من ذلك كله أنه بدأ يفهم خواص الشعب المنتمي إليه، وعرف كيف يتعامل مع الناس، وأتقن اللهجة من أصدقائه العمال البسطاء في الكافيتريا الذين يتكلمون كالسواد الأعظم من شعب مصر ..

طموح عمر لم يكن إثناء عمره في تلك الوظيفة التي لا تناسب أحلامه .. بل كان هدفه هو التعلم والاستفادة منها حتى يستطيع إيجاد الفرصة الملائمة لاستثمار ماله في مشروع مربح لا يقصم ظهره ويبيد مستقبله .. بالطبع راودته أفكار عديدة لكنه كلما استشار يونس صديقه بالكافيتريا المتشائم دائماً، فإنه يسود الوضع في وجهه بعدة ملاحظات وتوجسات حول فكرة مشروعه تجعل عمر يتراجع عنها ويعود إلى حالته الأولى باحثاً عن شيء آخر ..



في عصف تفكيري المتواصل من أجل الحصول على مصدر رزق يعينني على قضاء أيامي القادمة، تفتق ذهني فجأة عن فكرة ستساعدني على الحياة ومواجهة مشاكلي ولو بشكل مؤقت، حتى أجد حلاً ما للمصيبة التي وقعت بها .. فقد ترامى إلى مسامعي قديماً حينما كنت بالثانوية أن حارس البناية التي بآخِر شارعنا يعمل سمساراً للعقارات ويقوم بتأجير الشقق لأصحابها الراغبين مقابل عائد شهري جيد .. اتجهت إليه دون تردد فترأى لي من بعيد جالساً على كرسي خشبي أمام العمارة

يدخن الأرجيلة بغطرسة وكبر، وكأنه وزير الإسكان بثوبه الرمادي الواسع وشاربه الذي يحتاج مقص أشجار كي يهذه .. حيننا دنوت منه نظر إليّ من طرف عينيه وأنا أسأله بلطف:

- هل أنت سمعان حارس البناية؟

- خير يا ييه؟!

- عندي شقة أريد منك تأجيرها ..

تبدلت ملامحه واعتلت وجهه ابتسامة عريضة بانث فيها أسنانه الصفراء القبيحة وهو يدعوني إلى الجلوس متهللاً بلهجته الصعيدية ..

- يا مرحب، يا أهلا .. ثوان ويكون الشاي جاهزا ..

- لا أريد تناول شيء .. شكراً .. هلا دخلنا إلى الموضوع من فضلك ..

- بالطبع .. الشقة كم مساحتها، وأين تقع، وهل هي ملكك؟

- الشقة ملكي وهي موجودة في البناء الأبيض القصير بأول الشارع .. مساحتها مائة وأربعون متراً .. ثلاثة غرف وحمامان وصالة .. بها بعض الأثاث ..

- نعم .. نعم .. أعرف تلك البناية .. وأعرف تفاصيل كل ركن بها ..

- ها .. ما قولك؟

- كم تريد إيجاراً فيها؟

لمحت في عينيه مكرا متوهجا .. لذا امتنعت عن إجابته حول المبلغ الذي أطمح فيه شهرياً من الشقة لئلا يكون أقل من الطبيعي فينهني ذاك الأفاق ..

- المعتاد ..

- أها ..

سكت قليلاً وهو يحك خده بصوت مزعج كأنها يفكر في طريقة ما يفترس بها حقي ..

- أربعائة جنيه كل شهر، لي فيها مائة ولك الباقي ..
- أدركت من نبرة صوته أنه قد لمح بفطته في جهلاً بإيجارات المنطقة، وبالتأكيد قد استغله وهو يبلغني الإيجار بابتسامته السمجة .. لذا ادعيت استيائي من المبلغ وأشحت بوجهي عنه قائلاً في حزم:
- خمسمائة جنيه لي لا ينقصون ملياً .. هل قبلت أم أذهب إلى أحد غيرك؟
- فأمسك بذراعي يجذبني ناحيته مستدركاً بود:
- الكلام أخذ وعطاء ..
- هذا ما عندي ..
- حسناً .. حسناً كما تريد .. لكن أخبرني أولاً هل ترغب في تأجيرها سياحي أم عائلات؟
- ما السياحي وما العائلات؟
- السياحي هو تأجير شقتك للسائحين العرب أو الأجانب الذين لا يقدرّون على إيجارات الفنادق، أو لطلبة الجامعة المغتربين .. أما العائلات فهي أن تقوم عائلة ما بتأجير بيتك لمدة معينة ..
- وأيهما أفضل؟
- لا أنصحك بالعائلات .. فمشاكلها مزعجة .. فتارة يخبرك رب الأسرة أنه ليس معه إيجار الشهر، ويرجوك الصبر عليه شهراً آخر، أو يكون له أولاداً أشقياء يخربون الأدوات الصحية بالشقة، ويطلبون منك إصلاحها على حسابك .. السياحي أفضل بكثير .. فأموالهم دائماً جاهزة ويسلمونك الشقة كما استلموها ..
- حسناً أتفقنا .. هيا بنا إلى الشقة كي تراها ..
- على بركة الله ..

١٤

لا أعرف لم شعرت في ذاك اليوم التيس بأني خنت والدي، ولوثت ما بيننا من ذكريات، فقد أجرت البيت الذي احتضن آخر أيامنا معاً وتركته للغرباء كي يميلوا على ما تبقى من ملامح ذكريات أبي فيه تراب التغيير، ويخلطوا أنفاسهم بما تبقى من زفراته .. كنت أنظر إلى الجدران وأنا أرى فيها كل لحظة من حياة أبي في شبابه .. وكل الوقت الذي قضيناه معاً .. أنظر إليها متسائلاً هل ستظل تحمل تلك البصمات غير المرئية وتخفي عن الآخرين سر الأيام الحلوة التي رافقتنا بها .. هل ستُنقش بقصص الآخرين وتتناسى قصتنا أم ستظل راسخة على عهد مالکها وتحفظ له مأوى ذكرياته ..

- اللعنة على كل شيء ..

تلك كانت تسييحتي الدائمة في سري بعد ما سلمت مفتاح الشقة إلى ذاك الحارس الصعيدي وقبضت منه عربونها .. اللعنة على كل شيء .. على إفرام وابتته سارة .. على خالتي سعاد وغضبها مني .. على مصر وأهلها .. على الضابط الأصلع السمين .. على الضابط الأصلع السمين ألف ألف مرة .. على العلم والعلماء .. على كل شيء .. لقد انتهى بي الحال إلى تأجير بيتي كي أستطيع العيش .. هل هذا هو المستقبل الذي وعدت والدك به؟! .. آو يا إلهي ..

خرجت إلى الشارع حاملاً حقيبة صغيرة على ظهري لا أدري طريقاً وجب عليّ سلكه .. فكل الطرق ستتهي بي إلى البعد عن أبعد مما تخيلته لنفسي .. لذا كنت أسير

بلا تردد وأندفع منطلقاً إلى الأمام .. فأمامي هو أبعد من خلفي الذي أهرب منه وهذا كل ما كنت أحتاج إليه لحظتها .. ثم تذكرت فجأة الوعد الذي قطعته لمحمد بالسجن .. وما أنسانيه الشيطان إلا أن أذكره .. فقد ترجاني محمد بالمعتقل الذهاب لزيارة والده بإمبابة للاطمئنان عليه وطمأنته على ولده .. لذا اتجهت إلى موقف العباسية لأركب منه الحافلة المتجهة إلى إمبابة للانتهاء أولاً مما وعدت به ذاك الشاب المسكين ثم الانصراف إلى حال سبيلي وترتيب أموري ..

• • •

كانت تلك هي أول مرة في حياتي أمشي بها في حي فقير كهذا، وفي حارات ضيقة كتلك ممتلئة الحفر المغطاة بالنفايات .. وترى عيناى مثل تلك البيوت المتهاكلة المتراصة بجوار بعضها .. بجدرانها الباهتة الراشحة بالرطوبة والعطن وقد اشرأبت من ثنايا جدرانها رؤوس الفقر الباكية وتسلل من نوافذها غمغمة الحائقين والقانعين .. كأنها بُعثت ذاك الحي من ظلمات العصور السحيقة ببدايته وهَرَمَ منازلُه ..

وصلت إلى البيت الذي وصفه لي محمد سابقاً بالمعتقل، وصعدت درجه الحلزونى الضيق وأنا أخشى انهياره بي .. يلاحقني في عتمته صوت خدش حقييتي بحائط المنزل الملاصق للدرج المسيج بالقضبان الصدئة .. حتى رست أقدامى أمام تلك العشة الصفيج البالية التي لن تصمد أمام عطسة طفل في العاشرة .. فطرقت بابها الخشبي المنهري متعدد الثقوب طرقة خفيفة وانتظرت على بعد ثلاث خطوات منه، حتى يفتح لي عم عبد التواب حتى أطمئن قلبه الممجوع على ولده وأرى إذا كان يحتاج شيئاً إليه له إذا استطعت ..

- محمد!

هكذا شهقت وأنا مذهولٌ تكاد مقلتاى القفز من مكانها، واحتضان جسد محمد حيناً رأيته واقفاً بجسمه المنحول وثوبه المجعد ووجهه البائس المحمل بفواجع بارزة على محياه كبروز الجبال على الأرض .. امتصصت رد فعله الفاتر على الرغم من رؤيته

لذهولي الفائر .. فسأله بنبرة مبتهجة مترنة:

- متى خرجت؟! ..

- بعد خروجك بثلاثة أيام .. تفضل ..

كانت نبرته غامضة خابية، وهو يدور بوجهه إلى الداخل ويدعوني بظهره إلى اللحاق به .. خالجنى إحساس متوجس بأن هناك مصيبة فادحة قد ألمت به، بددت ما في قلبه من فرحة الخروج من المعتقل .. فسأله بهدوء مستفهماً:

- هل حدث مكروه ما؟! ..

- لقد توفي والدي يا سليم .. مات بحسرتة ولم أدفنه بيدي ..

هذا ما أبلغني إياه وهو يرتمي على أريكته الخشبية المأروضة أطرافها .. مر يد وجهه متفحم غيظه، وقد نضحت عيناه بسيلين من الدموع اللذين شقا طريقهما على سطح ملاحه المكروب .. فانطبع قلبي بما في صدره من سخيمة متقدة .. وازدادت لعناتي لعنات على ذاك الضابط السادي الفاجر .. مسكين يا محمد .. سلبوك أهلك بأبشع الطرق دون ذنب .. وعذبوك بأفظع العذابات دون وجه حق .. ماذا فعلت لهم كي يقسوا عليك تلك القسوة الجهنمية .. هل كان حالك البسيط سبباً لأن يستهينوا بك فيسلخوا روحك عن جسدك بعد أن جعلك فقرك المدقع مطمعاً مستباحاً لشرطي الإنس؟! هل مازلت تمنى نفسك بشيء ما من هذه الحياة أم أن أحلامك البريئة قد تبددت في تيه عذاباتك الفسيح؟! هل لديك القدرة على التنفس أم أنك قد مُنعت حتى عن سراب الهواء في ظلمات وحشتك لتعيش به؟! ..

جثوت بالقرب منه وألقيت على وجهه نظرة رثاء .. ثم أحطت وجهه بكففي مواسياً بصوت رخيم:

- لا تحزن يا محمد .. أبوك وأختك في جنة الخلد وستلحق بهما إن شاء الله .. أما ذاك الباغي وأسياده فهم حطب جهنم .. الله متقم جبار إذا سمع شكوى المظلوم

أقسم بعزته وجلاله أن ينصرها ولو بعد حين ..

تطيرت من أنفه أنفاس رطبية وهو يتهدج في الرد علي ..

- لم يمنحوني فرصة دفنه والصلاة عليه يا سليم .. لماذا .. لماذا؟!

لم أستطع الإجابة عن ذاك السؤال الذي ألقاه في وجهي عاتباً بعينه وحركة يديه الواهتين .. لذا حاولت إخراجها من ذاك الحزن ولو حتى إلى حزن آخر أخف وطأة ..

- لم تخبرني كيف خرجت؟

سكت لبرهة كأنها يحاول اقتلاع نفسه من تلك الفواجع كي يستطيع الرد علي .. ثم أجابني بنبرة ساخرة ساخطة:

- يبدو أنهم قد أخطأوا في أمري فأخرجوني مع بعض المعتقلين الإسلاميين ..

- إذن وجودك هنا خطر .. فقد يأتون لاعتقالك مرة أخرى ..

أشار برأسه إشارة غير مبالية .. وتحذب جانباً شفته ببسمة هازئة ..

- أنا لا أساوي عندهم جناح بعوضة .. فعلام يتعبون أنفسهم باعتقالي مرة أخرى!

• • •

تبادلنا أنا ومحمد طيلة اليوم همومنا في حديثنا الشجن حتى طَفَلَت الشمس ودنا طيف الغروب .. كان حاله مشابها لحالي إلى حد ما .. فقد تم فصله من الجامعة بإيعاز من أمن الدولة .. وبالطبع لن يستطيع العمل أو إكمال دراسته في أي مكان مثلي .. كما أن غمه هائل البنيان يثقل كاهله بفتور جسيم جعله لا يريد فعل أي شيء أو التفكير في أي حل، كي يكمل حياته كما فعلت .. وكأنه ينذر نفسه لملاك الموت منتظراً أن يقبضه من خراب الدنيا إلى ربيع السماء ..

حينما أخبرته عن تأجير لي لشقة والدي وبحثي عن سكن رخيص أمكث فيه حتى يفرجها الله برحمته، دعاني بترحاب إلى البقاء عنده .. وهكذا اتكأت جراحنا وتفتحت

آلامنا على بعضها حتى شعرنا أن الأقدار توحد مصائرنا وتلزمنا الالتجاء إلى بعضنا .. فخطبت نفسي مشفقاً:

ها هو سليم باهر الشاذلي الذي عاش طفولة مرفهة في بقيق .. وسنة رغدة بمصر .. وثلاثة أعوام في ستراسبورج الساحرة .. يقبع الآن في ذاك الكوخ الخاشع بذل وتهالك بين أيدي السماء المكتومة .. لا تسمع أذني سوى غناء الباعة المزعج ونهيق حميرهم المنفر وزعيق السكان في شجارهم المستمر على المياه أو إلقاء القمامة، ونميم النسوة بين شرفات المنازل .. ولا تشم أنفي سوى العطن في كل شيء حتى في رغيف الخبز المتعفن بالمخلاة .. ولا ترى عيناى سوى الظل القاتم للحارات الضيقة الممتلئة بروث الدواب وما فيها من الحشرات والبيوت قبيحة العمران والوجوه السمراء البائسة لأصحابها ذوي الأردية البالية ..

حاولت كثيراً من خلال علاقات محمد مع سُفل ورعاع البشر إيجاد أي أحد يستطيع تهريبي إلى فرنسا .. فأعود إلى جامعتي وأكمل دراستي مهما كان الثمن .. لكنني لم أجد .. لذا كنت أرقد ليالي في بيت محمد ألوم نفسي وأندب حظي على عدم إطاعتي للبروفسير فايان الذي عرض عليّ كل ما أحتاجه، لكنني رفضت بحجة عدم تحميله كلفة زائدة أو خوفاً من ذاك القاتل المأجور الذي أرسله لإفرايم في إثري .. وماذا كان سيحدث إذا قتلني؟! .. فهل أنا الآن أفضل حالاً؟! .. أنا ميت في جسد يتنفس، لا حاضر له ولا مستقبل .. كم تمنيت أن أغمض عيني وتحملني الريح إلى ستراسبورج فأعود إلى الطريق الذي كنت سائراً به .. إلى كليتي ودراساتي .. إلى المكان الحقيقي الذي أنتمي إليه بين العلماء والطبيعة الخلابة .. بين التقدير وإعجاب النساء .. كل شيء هنا في مصر باهت وكثيب .. حتى ابتسامات الناس وضحكاتهم تخرج فواحة بأنين خفي تحمله صدورهم الضعيفة .. ومستقبل المغضوب عليهم من أمن الدولة أمثالي ليس أفضل حالاً من غيرهم .. فالكل وضعه في الحضيض ويحلمون بيوم يتغير فيه حالهم أو أن تحملهم الريح مثلي إلى مكان بعيد عن تلك الأرض الجذباء بكل ما ترغبه النفس البشرية ..

١٥

أحياناً تنجرف بك الأقدار إلى أبعد مما ألقته أو كرهته طوال حياتك .. فتجد نفسك شاردًا عن الحياة التي كنت سائراً بها، غريقاً منسياً في انحرافك الجديد .. تفتح أمامك دروب غير التي اعتدت رؤياها، وتُدفع إلى ساحاتها مهرعاً لا تدرك من أمرك شيئاً .. ثم فجأة تستيقظ على نزيف الندم الفاجعي داخلك، والذي كالعادة لا ينبثق جرحه إلا متأخراً فتنوح نواحيك ويشل نبض أفكارك، لكنك لا تملك سوى الاستمرار والإسراع نحوها وبتك التي سحبك إليها مصير حاكت شركة الظروف ..



في الجمعة الأولى من شهر أكتوبر عام ١٩٩٠ اصطحبني محمد إلى الصلاة معه في مسجد قريب من منزله .. الجامع ليس أفضل حالاً من البيوت المتاخمة له .. فهورث الهيئة متآكلة جدرانها يفوح التبن من حُصره المتصقة بها حبات الرمال الخشنة التي حملتها أقدام المتوضئين المبتلة ..

دخلت إلى المسجد قبل حضور الخطيب بربع ساعة .. وانزويت مع محمد إلى ركن بعيد لنجلس فيه .. كانت هيئتنا مغايرة تماماً للمصلين بالجامع .. فجميعهم ملتحنون وشعرهم أسود متفحم .. ملاحهم متحفزة وشبه ممسوحة المعالم خلف تلك اللحي الكثة الشعثة الملامسة لصدور ثيابهم البيضاء .. يغمغمون بتلاوة القرآن وترديد الأذكار فلا تجد بينهم شفة ملتصقة بأختها .. ظلوا على طنطنتهم تلك حتى ارتفع إلى المنبر إمام الجامع بهيئته الوقور، ووجهه القمحي النابت بلحية سوداء ناعمة، بها

بعض الخصل البيضاء اللامعة ببريق ممائل لتوهج عينيه الواسعتين وجبهته العريضة .. لم يكن الإمام متفرداً في ردائه عن بقية المصلين كما أنه ليس مختلفاً عنهم إلا قليلاً .. فهو يرتدي نفس الثوب الأبيض القصير، لكنه يحيط نفسه بعباءة سوداء مخملية، وعلى رأسه عمامة ترابية اللون ..

ألقى السلام على المصلين، ثم جلس مطأطئ الرأس يستمع في خشوع إلى الأذان منتظراً انتهاء المؤذن بجانبه حتى يدلي بخطبته .. ثم وقف على المنبر مرة أخرى ليجول بنظرة عميقة بين وجوه المصلين .. كأنها يشد أبصارهم نحو بصره ويؤهب آذانهم للإصناص إلى كلمة قبل أن يطرق برأسه مخفضاً ويقول بصوت رخيم:

- الحمد لله الذي رفع الساء بغير عمد .. وشكّل الأرض بوهد ونجد .. وخشع لعظمته كل شيء وسجد .. وخلق الإنسان في كبد .. ويعث محمداً بالحق ويتم رسالته شهد .. فخاب من زاع عن هداه وشرد .. وطوى لمن صبر على طاعته وصمد .. فيه نستغيث ونرجو العون والمدد ..

ثم هاجت حنجرتة بترديد آخر جملة برجاء المتوسل وضعف المغلوب قبل أن تنقلب نظراته ونبرة صوته مردداً إياها بقوة نافرة وحاس آسر كأنها جاءه المدد وهو واقف على المنبر! .. ثم سكّت فجأة وكأن أمراً ما قد حزبه وهز كيانه لوهلة سبقت عودته للخطبة مردفاً في حزن وابتاس:

- نعم .. فيه نستغيث ونرجو العون والمدد .. بعد أن أضحى الإسلام غريباً .. وأرض الإسلام مستباحة بين مشرق ومغرب كأنها القصعة التي حدثنا عنها الصادق قبل أربعة عشر قرناً .. فاضطهد الصالحون، ووسد الأمر إلى الجهلة المنافقين .. وساد الكفر والمجون .. وصار الإيثار تهمة مخجلة تودي إلى غياهب السجون ..

كمد لونه واحمر وجهه وهو ينظر بصرامة إلى رؤوس الحشد أسفل منه وشد حبال صوته بجهير صاعق مستطرداً:

- انظروا إلى حالنا عباد الله .. حال مقيبة بائسة لعينة، بعد أن حكمت بلادنا تلك الطغمة الكافرة العميلة الذين نحوا شرع الله وأشاعوا الفاحشة بيننا .. وعمموا الزنا والعري بين شبابنا .. ولعن بفسادهم شطرا الأمة بين راش ومرتش .. وهادنوا اليهود والنصارى، بل وناصروهم على المسلمين، ثم رضخوا لهم وسلموهم أمر بلادنا .. بلادنا التي استشهد صحابة رسول الله كي ترى قلوب أجدادنا نور الإسلام ها هي الآن تغرق في ظلمات الكفر والردة والخيانة والعمالة .. والذي نفسي بيده لن ينصلح حالنا إلا بالجهاد الذي هجرناه عشقاً في الحياة الفانية والمتع الزائلة .. لن تنهض أمتنا إلا بعودتنا لشرع الله وكتابه وننزع عن رؤوسنا تلك العلمانية الفاجرة والشيوعية الملحدة والديمقراطية الغربية المخربة ودكتاتورية العسكر الطاغية وغيرها من الأفكار البائدة .. فهبوا لنصرة دين الله يا عباد الله .. استمعوا لخطاب المولى عز وجل إلى عباده المؤمنين في سورة التوبة وهو يقول (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .. فهل من بائع .. هل من بائع ليشتري منه ملك الملوك؟

استرسل الشيخ في خطبته الهائجة كأنه سحاب مرزم لا ينقطع رعده .. تحدث بمرارة عن أحوالنا وبحقن عما آل إليه وضعنا .. سرد الحكايات عن الظلم الذي يتعرض له المؤمنون في ديار الإسلام وشحذ غيظ صدورنا تجاه أفعال حكامنا وصمت علمائنا عليهم .. فغفق كلامه قلبي وضجت بالغضب نفسي .. ثم استكان صوته بهوان خفيض وعلا بنحيب فديد داعياً الله أن يعيد بلادنا إلى حظيرة الإسلام وينصر المؤمنين على أولئك الكفرة الذين حاصرونا سواء من بني جلدتنا أو من بلاد الغرب والشرق .. ففجح المسجد بفوضى اللجب بين زاق زاعق ومجهش بالكُيُومُون بصوت مرعد وراء دعاء الشيخ ..

وفي الصلاة راح الشيخ يتلو بصوته المنذر الواعظ آيات الجهاد والولاء .. وما أعده الله للشهداء من نعيم وللكفار من جحيم فانتحب المصلون بدموع مستغيثة ..

وارتجت الأجساد بشهقات خروج الروح من الجسد .. واهتزت الجدران من أصداء حشرجة تأوهاتنا .. فقد كان للشيخ يد قابضة في صوته إذا ما وصلت إلى مسامعك كبلت قلبك وألانتة للإحساس بكل حرف في كلماته أو ما يتلوه من قرآن ..

• • •

بعد أن هدأ روعنا وسكنت أجسادنا الواجفة من تلك الصلاة العاصفة .. جلس الشيخ في المحراب ودعا المصلين إلى كتابة ما يريدون السؤال عنه في ورقة صغيرة وإرسالها إليه فيجيبهم عنها .. وفي سرعة البرق تخلق حوله الناس وأخرج الجميع الورق الأبيض من جيوبهم يكتبون فيه ما يريدون السؤال عنه، فكانت أسئلتهم في أغلبها تستفتي الشيخ في أمور الطهارة والهدي الظاهر ..

هممت بالخروج من المسجد لكن محمد جذبني من يدي وهمس في أذني مطالباً إياي بالجلوس قليلاً .. أذعنت لطلبه وأنا مضطرب الفهم .. فمكثنا ما يقرب من الساعة والنصف منتظراً لشيء أجهله لكنني كنت أحدث نفسي ساخراً: إلى أين سأذهب إذا غادرت المسجد؟! .. سأعود إلى تلك العشة فوق السطوح أكمل أيامي البغيضة بها .. لذا لم تفرق معي المغادرة من القعود .. وحينما ودع الشيخ الناس واستأذن منهم في لطف كي يعود إلى منزله .. أفسحوا له الطريق وهم ينظرون إليه بوقار وإجلال .. فقفز محمد من جانبي، واعترض طريق الشيخ وهو مخفض بصره استحياء يكلمه في خجل وأسى:

- اعذرني يا مولانا على الوقوف بطريقك لكنني أحتاجك بشدة ..

تفحص الشيخ وجه محمد بعين ثابتة ثم رد عليه بخنو:

- لا عليك يا محمد .. يبدو أن مصابك جلل وحملك ثقیل ..

اعتلى الدمع ناظري محمد وهو يمجيه بألم ساحق:

- نعم يا مولانا .. لقد أنهكت قلبي الهموم والأحزان واسودت الدنيا بوجهي ..

أرجوك ساعدني يا شيخ بركات ..

- لا عليك يا ولدي .. استعن بالله .. إن رحمته قريب من المحسنين .. لا قيني إن شاء الله بعد صلاة العصر في بيتي، لأفهم منك ما الأمر .. وبأمر الله لن تخرج من عندي إلا وأنت مرتاح ..

تفتحت بسمه على وجه محمد ومسح بيده الدموع عن خديه وفمه وهو يودع الشيخ ويشكره على السماح له بمقابلته والاستماع له ..

• • •

الشيخ بركات الحسيني .. إنه الرجل الذي لم أعرف عنه حتى الآن سوى البيت الذي سكن فيه وحيداً، وخطبه النارية التي كانت تلهب حماس المصلين واصلاً بها إلى لب عقولهم بمتهى السهولة .. لم أعرف أي شيء عن ماضيه وسبب عيشه وحيداً في بيته دون زوجة أو أولاد .. فهو نادر التحدث إلى الناس أو مخالطتهم على الرغم من إحاطة مريديه الدائمة له .. رجل غامض لا تستطيع الإطلاع على ما بداخله أو الريبة من أمره، إذا ما نظرت إلى وجهه المضيء الهادئ .. أكثر ما أثار استغرابي به هو أنه لم يمض ليلة واحدة بالمعتقل من قبل على الرغم من كل ما يقوله أسبوعياً عن الحكومة!

بعد صلاة العصر توجهت برفقة محمد إلى بيت الشيخ بركات الذي يبعد عن المسجد بحارتين .. كان منزله أفضل نوعاً ما من باقي المنازل المحيطة بالمنطقة .. فعلى الأقل الدرج واسع تستطيع الصعود عليه دون أن يحتك كتفك بحائط البيت، أو تحشى التعثر في إحدى درجاته ..

فتح لنا الشيخ باب شقته بترحاب رزين، دعانا به إلى الدخول .. وحينما ولجنا إلى منزله طافت عيناى بنظرة سريعة فيه، فوجدته بسيط الأثاث قليل المحتويات كحال أي رجل عَزَب .. جلس ثلاثنا على البساط السميك الرمادي وصب لنا الشيخ

بركات الشاي قبل أن يسأل محمد عما ينغص عليه حياته .. فحكى له محمد المصائب الرهيبة التي أملت به والظنك الذي يحياه .. كما أخبره عن أمري وكيف عرفني ..
وحينما علم الشيخ عن حكايتي سألني بذهول أخفى وراءه ابتهاجا لحظيا:

- هل أنت بالفعل خريج لكلية كيمياء بفرنسا؟!

أجبتة بفتور اليائس:

- نعم يا مولانا ..

عاد يستمع إلى محمد مرة أخرى مدعياً الاهتمام والإنصات بينما عيناه كانتا تبرقان بشيء غامض نحوي .. أكاد أجزم أنه لم يستمع إلى كلمة واحدة من حديث محمد بسبب نظره المتكرر ناحيتي، وكأنني صيد ثمين وقع له من كبد السماء!

بعد توقف محمد عن الحديث، أطلال النظر إلى الشيخ منتظراً مشورته أو الراحة التي وعده بأن يلقاها عنده .. فانتبه الشيخ من سرحانه بي ورفع رأسه كأنها سيلقي علينا إحدى خطبه الساخنة المعروفة عنه .. وقد كان .. فبدأ يلعن تلك الحكومة الكافرة التي تطارد المؤمنين والصالحين وتنغص عليهم حياتهم بينما تترك الفاسدين الكفرة يعيشون فيها خراباً دون حسيب أو رقيب .. واسترسل في حديثه الساخط عن النظام كأنها أراد مواساتنا والتخفيف من همومنا بتلك الخطبة ..

أدركت من طريقته المضطربة في الكلام أنه يخفي أمراً ما .. فهو رجل مَشُجٌّ لا تسقط كلمة منه إلا وهو مدرك لقوتها .. أما حديثه التقليدي الرتيب معنا فقد أوحى لي بأنه يخبئ شيئاً ما .. وأن كلامه ما هو إلا ستار اتخذته كي يستطيع الخلوة مع نفسه بعيداً عنا ليفكر بعمق بينما ترك لسانه يعمل بما يحفظه، ليلهينا عنه ..

وفي آخر تلك الجلسة طلب منا الشيخ الانتظار بضع أيام سيحاول فيها تدبير أمورنا .. وأنهى لقائه ببعض مرطبات القلوب من الكلام اللين عن جزاء الصابرين وأجر المظلومين .. ورفع يده إلى السماء داعياً لنا ببعض الأدعية الطيبة، قبل أن يودعنا

وهو يحوطني بهالة من مقلتيه ويتسم نحوي بسرور غامض!

• • •

مرت ستة أيام بعد ذاك اللقاء ونحن نتظر بشغف من الشيخ أن يحدث معجزة ويستطيع مساعدتنا .. فالمعضلة التي كنا بها لا تقدر على حلها سوى معجزة نبي أو سحر كاهن أو دعوة أم في سحر الليل وكلانا يتيم الأم .. وفي يوم الجمعة ذهبنا للصلاة في مسجد الشيخ بركات .. وبينما نحن ماضون للجامع، خايلني تصور أن الشيخ بعد خطبته سيعود إلى منبره ويحكي للناس قصتنا، طالباً منهم مساعدتنا .. لا أعرف إن كانت تلك أمنية أم مجرد تصور لما سيفعله الشيخ .. على كل حال، وبعد انتهاء الصلاة، مكثنا في مكاننا نتظر ولو إياها من الشيخ يدعونا فيها إلى الاقتراب منه وإبلاغنا بالفرج .. لكنه كان مشغولاً بأسئلة المصلين فلم نقاطعهُ أو نذكره بشأننا، وانتظرنا انفضاض الناس من حوله كالأسبوع الفائت .. وعندما همَّ بالخروج انقض عليه محمد وحاصره بجسده التحيل سائلاً في قلق خفيف تدلى من ابتسامته المضطربة:

- هل نسينا يا شيخ بركات؟!

رفع الشيخ رأسه وسقف حلقه وكأنها سيثاءب وهو يجيبه:

- بالطبع أتذكرك .. بالطبع ..

- الحمد لله يا مولانا .. هل وجدت لي ولصديقي حلاً ما؟

- إن شاء الله .. لمْ لا تمران عليّ بعد صلاة العصر ..

رد عليه محمد بابتهاج:

- حسناً يا مولانا .. سنكون عندك في مثل ميعاد المرة الماضية ..

لمْ أصدق تلك الحركة التي قام بها برأسه إذ حاول إيهامنا فيها بأنه تَبَشَّ عن ذكرانا

للحظات في ذهنه عندما رأى محمد، وكأنه قد نسي أمرنا .. فكيف لأي إنسان عرف بحكايتنا أن ينساها ناهيك عن تلك النظرات التي ظل يسدها نحوي في الجلسة الماضية؟! .. لذا أوجعتني حيرتي من أمر ذاك الرجل ولم أرتح له .. وأيقنت في بالي أنه يعد لنا شيئاً قد يكون خيفاً أو على الأقل ليس هيناً ..

اتجهنا لمقابلته بعد صلاة العصر كما طلب منا .. وجلسنا نفس الجلسة وشرينا من نفس كوب الشاي .. وراح هو يردد نفس الكلام ببلاغة أفصح وغيظ أحد .. حتى يوغر صدورنا من الحكومة أكثر مما هي محملة بالكراهية والبغضاء .. لم أحاول التركيز في خطابه بقدر ما ألزمت عيناى بعينه كي أرى ما يخفيه لنا وراء حديثه ونظراته .. فانتبه إليّ وأراد إحراجي بسؤال يفضح عدم إنصاتي لكلامه أو ليتأكد أنني مازلت تحت خدر خطابه الحماسي ..

- ما رأيك يا أخ سليم فيما قلت؟

رمقته بنظرات حادة بددت ابتسامته الراققة وأنا أجيبه بصرامة:

- لا أعرف حقيقة آخره كلامك عن الحكومة ماذا سيكون؟ .. فأنا وهذا الشاب نوقن تماماً أن من فعل بنا ذلك هي الحكومة .. وأنا وهذا الشاب لا نبغض أحداً في الدنيا قدر تلك الحكومة .. لذا فمهما تجربنا عن بشاعتها فلن تزيد كراهيتها شيئاً في قلوبنا لأنها قد وصلت إلى أقصاها .. ومهما حاولت تجميل وجهها فلن تستطيع بعد ما أضحي الحقد عليها هو الهواء الذي تتنفسه ..

سكت للحظات يبادلني النظرات الحادة المتحفزة وكأننا في مصارعة أعين كلا طرفيها يأبى الاستسلام .. ثم سألني بجدية:

- وما الحل من وجهة نظرك؟!

- أنا لا أعرف حلاً ولو كنت أعرف لما لجأت إليك أو إلى غيرك .. كل ما أريده هو العودة إلى فرنسا لأكمل تعليمي، وأصبح معي هذا المسكين، بعد أن ذبحت

حياته هنا على يد رجال الشرطة ..

- وهل هذا هو الحل بنظرك .. هل الحل أن تترك بلدك وتعود لبلاد الكفار .. أم تواجه مشاكلك وتحلها هنا .. هل الصحيح أن تفكر في نفسك فقط أم تفكر في أمتك كلها؟!

- وكيف أفكر في مشاكل أمة وأنا لا أستطيع حل مشاكلي؟! .. ثم أن فرنسا أفضل بكثير من مصر فأنا لم يحصل لي هناك مثلما حدث لي هنا .. وإذا كانت فرنسا كافرة فمصر مثلها كما تقول في خطبك لذا لا فارق بين هذه وتلك.

عاد للصمت مرة أخرى يمسد طرف لحيته برفق كأنها يناور لجولة جديدة معي يستطيع بدعائه فيها إخراج ما يريد مني ..

- لقد أخبرني محمد الأسبوع الماضي أن والدك تركك منذ أربع سنوات للجهاد في أفغانستان .. وهذا هو سبب اعتقالك هنا ..
- نعم ..

- لم لم يذهب والدك إلى فرنسا مع أمك ويعيش هناك حياة رغدة ناعمة ويأخذ الجنسية الفرنسية ويؤسس بيتاً سعيداً، والذي سيكون بالتأكيد أجمل من بيتكم هنا في مصر؟

- لأنه اختار الجهاد والموت في سبيل الله .. اختار الجنة ..

برقت عيناه وهو يقتلع تلك الإجابة من طرف لساني .. وهتف قائلاً:

- هذا هو .. الجنة .. لقد ضحى والدك بكل ما يملك من أجل الإسلام .. من أجل الجنة .. ولو فكر في نفسه لاتجه إلى بلد أخرى .. كما ولو فكر إخوانه المجاهدون في أنفسهم لما تحررت أفغانستان من السوفييت الملاحدة الكلاب .. لكنهم عاشوا للإسلام وقضوا نحبهم لإرضاء الله ..

- ماذا تقصد؟

- قصدي واضح يا سليم .. عش يا ولدي للإسلام وفكر بأمتك، منحياً أغراضك الشخصية الدنيوية مثلما فعل والدك ومن سبقه من الصالحين .. هل اتفقنا؟

لقد فطن الرجل إلى نقطة ضعفي وعرف كيف يتوغل إلى داخلي منها .. إنه أبي، الذي أحيا حائناً بسبب عدم قدرتي على تنفيذ وعدي إليه وأبیت ليالي حزناً لافتقادي إلى حضنه الدافئ ..

وضع الشيخ يده بحنو على رأسي وربت عليها كأنها يحكم قبضته عليّ سائلاً بلطف:

- ها يا سليم .. هل اتفقنا؟

- نعم يا شيخ بركات اتفقنا ..

وهتف من جانبنا محمد الذي كان يجلس كالصنم مردداً نفس العبارة .. فاستعت على وجه الشيخ ابتسامته الظافرة المريحة قبل أن يطلب منا الذهاب إلى بيوتنا والتفكير جيداً فيما قاله ثم العودة مجدداً في اليوم التالي بنفس الموعد ..

• • •

- الحقيقة إن ما أود قوله الآن يحتاج إلى ما هو أكثر من الأذان المصغية والعقل الواعي .. يحتاج إلى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. إلى قلوب عامرة بالإيمان لا تخشى في الحق لومة لائم .. إنه أهم كلام قد تسمعون في حياتكم لذا أعطوني أكثر من الإنصات ولا تخبئوا ظني بكم ..

أدركت حينما قال الشيخ تلك الكلمات بذاك الأسلوب الجاد وبتلك النبرة الهامسة بأن ما أخفاه عنا منذ أول يوم عرفنا به، قد حان وقت كشفه .. ثم وضع كفيه على كف كل منا يسألنا باهتمام:

- لكن قبل أن أقول لكما ما أود قوله أريد معرفة ما إذا فكرتما جيداً في كلامي بالأمس؟

هتف محمد من جانبي كأنها بحماسة تلك يتزع فتيل أي جدال قادم بيني وبين الشيخ:
- بالطبع متفقون مع كل كلمة قلتها يا مولانا ..

نظر الشيخ إليّ وكأنه ما سأل ذاك السؤال إلا لساع إجابتي أنا .. فأومأت برأسي موافقاً على ما قاله محمد كي أنهى ذاك التشويق المبتذل، وأعرف ما يريد قوله ويخشى ردة فعلنا منه .. فنهض من مكانه ووقف يحدق في وجوهنا، مطارداً بمقلتيه الصارمتين ذاك التزر اليسير من التردد بداخلنا .. ثم قال لنا باتزان وجد:

- الحمد لله الذي مَنَّ على مصر برجال يريدونها مصر عمرو بن العاص وليست مصر القومية أو الاشتراكية أو الديكتاتورية .. إنها مصر كعدها النقي الأول على شرع الله وسنة رسوله .. رجال كثر قد أفاقوا من وهم الرذائل إلى خلود التقوى .. فعاهدوا الله على إحدى الحسينين، النصر أو الشهادة .. معركتنا مع الكفر ضارية .. وستبدأ جولاتها الحاسمة بعد شهور قليلة .. ونحن الآن في مرحلة تجهيز المجاهدين وتنظيم الصفوف حتى إذا ما حانت اللحظة انقضضنا على رؤوس الأفاعي فنحصدها جميعاً في وقت واحد ..

خبط بقبضته على كفه عندما ذكر رؤوس الأفاعي وهو ينظر إلينا بعين تحمر حماساً .. لم أحاول في تلك اللحظة تفسير كل تصرفاته السابقة معنا، إنما تفسير ما قاله ساعتها .. فهمت أنه يريد منا الانضمام إلى أولئك الرجال، لكنني لم أعرف الكيفية أو مكان الانضمام أو خطة المعركة مع الحكومة .. أسئلة كثيرة لمحها الشيخ ببركات في وجهي لم ينطق بها لساني .. فدنا برأسه من رأسي قائلاً لنا:

- كل ما أريده منكما الآن هو العهد على طاعة الله ورسوله وكتمان السر والجهاد في سبيل الله مقبلين لا مدبرين ..

هتف محمد مرة أخرى فشق جدار السكينة الذي أحاطه بنا صوت الشيخ
الخافت:

- نعاهدك يا شيخ بركات ..

فرمقته بنظرة عاتبة بها بعض الاستياء، لأنه تحدث نيابة عني دون تفويضه لذلك
.. حينها تدخل الشيخ بركات بمكره كي ينال مني ذاك العهد، يسألني بلطف:

- هل لديك أي استفسار يا سليم؟

- استفسارات يا شيخ بركات .. فأنا لا أعرف ما هو الدور المنوط بنا القيام به؟
.. وأين تجمع هذا الجيش من المجاهدين؟ .. وكيف سنقاتل الحكومة؟ .. والأهم من
ذلك كله من أين لنا بالسلاح والمال؟ .. وبالتأكيد لن تسألني التبرع فأنا ومحمد لا
نملك غير تلك الملابس التي توارى سوءاتنا ..

ابتسم الشيخ بركات وهو ينهض مرة أخرى من جوارى لي جيئني بنبرة مطمئنة بها
زهو:

- بالطبع لن نسألكم التبرع .. فالمال لدينا وفير، يدفعه تقاة محبون للإسلام
ومصر .. ولا يريدون سوى وجه الله من ذلك .. أما دوركم فهو الجهاد بشجاعة ضد
الحكومة الكافرة وكل من يساندها أو يحمل في قلبه مثقال ذرة من الولاء لها ..
السلاح ليس مشكلة فهو متوفر أكثر من الرجال بأضعاف مضاعفة .. أما مكان تجمع
أسود مصر من المجاهدين فستعرفه حينما تعاهدني وتذهب إليهم ..

تبادلنا أنا ومحمد النظرات في تلك اللحظات القليلة الحاسمة .. فحزمت أمري
ونطقت بما انتظر الشيخ سماعه مني منذ أول يوم رأيي به .. فعاهدته على السمع
والطاعة والجهاد في سبيل الله مقبلا غير مدبر ..

• • •

ثلاث ليالٍ بأكملها مضت عليّ أنا ومحمد لم ننطق فيها سوى القليل من الكلمات التي قد يكون لا معنى لها أو غاية منها .. أطبق الصمت على رأسي وحل الشرود على عقلي .. نخشى ما قد تحمله الأيام لنا من سواد أسوأ مما أرتنا .. يكاد أحدنا يبادر الآخر ناصحاً بعدم المضي في ما عاهدنا عليه الشيخ بركات مخافة العودة للمعتقل الذي ستكون أيامنا الماضية به نزهة مقارنة بما قد نراه إذا ما دخلناه مدينين ..

وبعد صلاة المغرب ليوم التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٩٠، طلب منا الشيخ بركات إعداد أنفسنا وجمع أغراضنا والذهاب إليه في منزله الساعة العاشرة ليلاً .. سألته عن السبب .. فأجابني بأني سأعلم كل شيء في وقته ولا داعي للتعجل ..

شاركني محمد حقيتي لأنه لم يكن لديه شيء يضع به ملابسه .. وحملناها معاً بعد أن امتلأت عن آخرها متوجسين من تفتقها في وسط الشارع، حتى صعدنا إلى الشيخ بركات الذي استقبلنا باسماً كعادته، وأخرج لنا حقيبة أخرى من عنده لنضع فيها ما أثقل حمولة الأولى .. ثم تبدلت ملامحه واعتلت نبرة صوته جدية مقلقة، يبلغنا قائلاً:

الآن ستجهان إلى رمسيس .. سيقابلكما أخ هناك اسمه صالح، ستعرفانه من قبعة الحمراء وقيصه المشجر .. وستجدانه واقفاً عند بوابة المحطة الرئيسية ..

- وأين سيصحبنا الأخ صالح يا شيخ بركات؟

- ستسافران معه إلى أسبوط .. حيث ستلتحقان بالأخوة المجاهدين هناك في تدريباتهم ..

- وبعد ذلك؟!

- بعد ذلك سيكون لنا كلام آخر ..

تبادلنا أنا ومحمد النظرات المضطربة، قبل أن يستدير برأسه ناحية الشيخ بحركة خاطفة أجزمت حينها أنه سيبلغه بانسحابه من ذاك العهد وسألحق به على الفور .. لكنه سأله سؤالاً غريباً ..

- هل تضمن لي يا شيخ بركات قدرتي على الانتقام من ذاك الضابط الذي فعل بأختي ما فعل؟!!

فتوهجت عينا الشيخ بحماس غامر ..

- بإذن الله يا محمد .. سأتي لك باسمه وعنوان سكنه لنقتص منه كما أمر شرع الله

..

لا أعرف إذا ما اعتبرتها فرصة لي أنا الآخر فتوجهت نحوه سائلاً:

- والضابط الأصلع السمين بأمن الدولة ..

نظر إليّ مبتسماً وأجابني بثقة:

- أنت قصد المقدم علاء مجدي؟ .. أعدكم أن تقتصا منه هو الآخر ..

- هل اسمه علاء مجدي؟!!

- نعم .. وهو من أحقر وأكفر خلق الله .. لكن نهايته قريبة ..

- لي طلب آخر يا شيخ بركات ..

- ها يا ولدي؟

- أرجو أن تحاول معرفة أية أخبار عن والذي إذا كان حياً .. أو إذا ما كان الله قد

اختاره شهيداً ..

- بالفعل أنا أسعى لذلك منذ أول يوم عرفتكم به .. اطمئن .. قريباً سأتي لك

بأخباره إن شاء الله ..

١٦

كانت وجهتنا مع الرجل صاحب القبعة الحمراء الذي لم أره بعدها مرة أخرى إلى أسبوط .. ملتقى الشمس والدم .. البلد التي يُقتل فيها المرء دون ذنب، ويتم بها الطفل دون أن يبكي اعتراضاً، وترمل في شبابه النساء فينفجرن انتحاباً بصرخاتهن الملتاعة بين الطرقات .. الدم القاني هو لون الحياة بها .. والفقر المدقع هو متفلسها .. والقيظ الحارق هو جوها .. والبؤس هو كل تاريخها وحاضرها ومستقبلها ..

أول ما وقعت عيني على بيوتها الطينية الرثة .. ووجوه أهلها السمرء الغاضبة في ثيابهم الريفية البالية .. أدركت أن إمبابة بجانب أسبوط هي باريس .. مثلما أيقنت من قبل أن مصر الجديدة بجانب إمبابة هي باريس .. ومصر الجديدة مقارنة بأفقر أحياء باريس هي أسبوط .. فأه يا سليم كم باريساً فقدتُ في رحلتي بهذه الدنيا!؟

اصطحبنا الرجل بين الرِّقَبُ ماداً خطواته كأنه هارب من شيء ما أو متعجل لإيصالنا إلى وجهته في أسرع وقت .. حتى وصلنا إلى مكانٍ صحراؤه أعمّ من اخضراره .. تحيطه أسوار بالطوب الأبيض عالية، وله بوابة كبيرة يقف على مدخلها ثلاثة أفراد أشداء مدججين بالسلاح هبوا من مكانهم عند اقترابنا، وطلبوا كلمة السر للدخول على الرغم من أنهم بدوا لي يعرفون ذا القبعة الحمراء!

فُتحت لنا البوابة على عالم آخر لم أكن أتخيل وجوده خلف تلك الأسوار .. المكان عبارة عن ساحة واسعة بها كل ما تتخيله من وسائل تدريب الجنود البدنية، مثل القفز فوق الحواجز وتسلق الجبال وغيرها .. وفي ركن بعيد من أركانه المترامية توجد

خمسة مبانٍ متوسطة الحجم ذات دور واحد، وأمام كل مبنى منها دورة مياه خاصة به .. أما في الركن المقابل لها فيوجد بيت صغير بنفس طول المباني الخمسة الأخرى، ومجاور للجامع عادي الهيئة غير مزدان بنقوش أو ألوان زاهية، كما أنه أفضل حالاً من كل البيوت الموجودة حوله ..

لم يمضِ بنا ذو القبة الحمراء ناحية البيوت الخمسة، وإنما انطلق بنا ناحية المبنى الصغير الملاصق للمسجد .. اعتقدته لم يصل العشاء لذا فهو يتوجه للمسجد مسرعاً حيث كان أذان الصبح قد بدأ يتردد في الأنحاء، والبيت الصغير غير مضاء ولا يصدر منه أو قربه أي صوت أو حركة .. لكنه خالف ظني وأخرج سلسلة مفاتيح من جيبه وفتح بأحد مفاتيحها باب المنزل الصغير ودعانا للدخول إليه ..

صعدنا درجتين وولجت مع محمد من الباب الضيق إلى صحن البيت الذي تفرشه حصيرة طويلة، وتتناثر على جنبه وسادات زيتية متينة، وفي آخره توجد أوانٍ نحاسية ووعاء ضخمة به ماء .. وشت لي جذران البيت الطينية عن عمره وكذلك لون دهانها الأزرق الباهت الذي بان لي على ضوء لمبات النيون البيضاء .. أما نوافذ المنزل فكانت تعلو الأرض بمترين ونصف ولا أعرف سر تصميمها بذلك الارتفاع الذي لن يسهل استخدامها على ساكني المكان!

تركنا الرجل داخل المنزل وراح إلى حال سبيله .. فجلست ومحمد على الأرض متكئين على إحدى الوسائد الملقاة جانبنا فترة طويلة، حتى كدنا نغفو من الإرهاق والسهر وطول السفر .. ثم فجأة طرق أحدهم الباب، ودخل علينا بابتسامة لطيفة دعانا بها إلى صلاة الصبح جماعة .. انتفضنا من مكاننا مرحبين بتلبية دعوته، وخرجنا وراءه تجاه المسجد .. ويا ليتني ما استجبت لدعوته .. فقد صلى بنا الإمام ركعتي الصبح في خمسين دقيقة متواصلة، غُصَّت فيها أذناي بنشيج أصحاب اللحى من المصلين بجانيبي وتأوهاتهم الصاخبة الهائجة .. أما أنا فقد كدت أبكي من طول الوقوف كل تلك المدة في ركعتي الصبح اليسيرتين!

جلست بعد الصلاة أنظر إلى قدمي المتألمتين، وأخاطب نفسي ساخراً: هل تريد الجهاد وأنت لا تستطيع تحمل الوقوف بين يدي ربك ساعة من الزمن؟! .. هل بدأت تنزعج من التعب والإجهاد؟! .. ماذا سيقول عنك والدك إذا ما رآك تتذمر من الوقوف ساعة في صلاة الصبح؟ .. بالتأكيد لن تكون مصدر فخر له فتخجله بفشلك مرة أخرى كما أخفقت في أن تصبح العالم الكبير الذي رغب فيه ..

قطع عليّ تلك الخلوة الهذيانية بيني وبين نفسي، صوت أجش قادم من وجه صلد ذي قامة منتصبة وملامح قاسية .. يقول لي:

- الأمير بانتظاركما .. أسرعاً ورائي ..

سألت نفسي متعجباً عن كلمة الأمير تلك التي من المفترض ألا تطلق إلا بالقصور الملكية وليس في أسبوط! .. لكنني لم أفصح عما في بالي مخافة ذلك الرجل الصلب .. وحملت نفسي المنهكة مترنحاً في ثبات خطوتي من فرط التعب أسير خلفه، حتى عدنا إلى ذاك البيت الصغير الذي كنا فيه قبل الصلاة .. فوقف صاحبنا الطويل مطأطئ الرأس واستبدلت ملامح وجهه القاسية بأخرى هينة طيبة، وهو يطرق باب المنزل بكل هدوء، كأنها لا يريد أحد بداخله سماع صوت طرقة! .. وبعد طول انتظار أتنا صوت وقور من المنزل يدعونا إلى الدخول .. ففتح مُرافقنا الباب ودلف إلى صحن البيت بخفة ثم أشار لنا بالتقدم وراءه ..

الأمير .. كهل رقيق الملامح له لحية ناعمة بنية اللون .. خفيف اللحم لكن انتفاخة ثوبه تعطي لمظهره وزناً زائداً .. بدا لي بوجهه ناصع البياض كأنه ملاك هبط من السماء وبالأخص عندما دعانا باسمينا إلى التقدم نحوه بصوته الرخيم .. فاتجهنا صوبه وقعدنا بين يديه على الأرض، بينما كان هو يجلس على وسادتين فوق بعضهما ومسنداً ظهره إلى الحائط ..

- لقد أخبرني الشيخ بركات الكثير عن قوة إيمانكما وحاسكما المتأجج لنصرة الإسلام وإعادة مصر إلى دين الله .. أتمنى أن تجتهدا في تدريباتكما هنا فأرض المعركة

تحتاج إلى ماثرتكما وإخلاصكما .. وإن رغبتما في أي شيء فعليكما سؤالي مباشرة دون حرج .. الآن سيصطحبكما الأخ شاهر إلى المكان الذي ستمكثان به ويخبركما عن تفاصيل الحياة بالمعسكر، فأطيعاه والتزما أمره فهو القائد هنا من بعدي ..

- أمرك يا مولانا ..

ضحك الأمير ضحكة خفيفة راققة حينما سمع ردنا، كأنها يتهكم على كلمة مولانا هذه التي لا يقولها المصريون سوى لشيوخ الأزهر، الذين هم في نظر أمثال الأمير فقهاء السلطان وجهلة الدين المخربون .. وبالتالي لا يجب علينا التفوه بها مرة أخرى ..

• • •

الشيخ سعيد عبد الرحمن السرجاني .. طبيب أمراض جلدية سكندري .. نشأ في أسرة ثرية بالإسكندرية .. ولا أحد يعرف لم انضم إلى تلك الثلة من المجاهدين أو الخارجين على النظام وكيف أصبح أميراً عليهم؟! .. الشيء الوحيد الذي كان يتداول الحديث عنه الشباب بالمعسكر حول الشيخ سعيد، هو هويته الدينية السابقة كصوفي المذهب أو كما نطلق عليها وثنية .. وفيما بدا أن رواسب مهتته السابقة كطبيب، ومذهبه السابق كصوفي جعلاه لطيفاً هيناً، إلا إذا تنامى إلى مسامعه همز بالمعسكر عن صوفيته التي ينجل من انتماؤه إليها بالماضي، فإنه يتحول إلى وحش كاسر، فيصب جام غضبه على الجميع حتى يثبت أنه لفظ من رأسه تلك الأفكار الوثنية الواهنة .. هو عكس ساعده الأيمن شاهر نعمان الرقيب السابق بالصاعقة والذي استقال منها بعد انضمامه إلى الجماعة إلا أنه لم ينسَ كونه عسكرياً بالسابق، فهو منضبط إلى حد بعيد، وقاسي في التعامل مع الشباب بالمعسكر، حتى إنه قد طبق علينا تدريبات أصعب مما يطبقها الجيش على رجال الصاعقة .. وفي ساعات غضبه كان الكل يتجنبونه بما فينا الأمير!

اصطحبنا الرقيب شاهر إلى ثاني بيت من البيوت الخمسة والتي تشبه من داخلها

أي عنبر من عنابر مجندي الجيش .. فالأسرة من طابقين ومتراصة بالقرب من بعضها، ومفروشة بذاك الغطاء الرمادي الشائك .. أما عددها بطاقيها فيتجاوز العشرين، وكل زوج منها مبسوط تحته حقائب الملابس وأغراض النائمين عليه ..

أبلغنا الشيخ شاهر بغلظة عن جدولنا اليومي قائلاً:

- أنتم الآن مستجدان علينا .. لذا احفظا جيداً ما سأقوله لكما، حتى تتجنبنا العقاب .. الاستيقاظ هنا قبل صلاة الصبح بساعة ونصف كي تصليا التهجود وتتلوان القرآن في ذاك الجزء المبارك من الليل .. وبعد صلاة الصبح نمكث في المسجد حتى الشروق فنصلي ركعتين كي نحصل على ثواب عمرة وحجة تامة كما حدثنا رسول الله .. بعدها تعودان إلى هذا العنبر لتتناولا وجبة الفطور ثم تنضمان إلى طابور الصباح وتبدأن التمارين التي تنتهي في الوقت الذي أحده أنا، والذي من الممكن أن يستمر ليومين متصليين ..

ثم دنا برأسه من وجهينا يتفحصهما بنظرة ملتبهة ويستطرد قائلاً:

- هنا مصنع الرجال الحقيقيين .. فاغتنما الفرصة، وأثبتا أنفسكما حتى تنالا شرف الجهاد بالصفوف الأولى ..

ابتعد عنا متجهاً ناحية أحد الأسر وأشار ناحيتها مردفاً:

- هنا ستمكثان طوال فترة التدريب .. سأدعكما اليوم لتتعرفا على أجواء المعسكر وإخوانكم المجاهدين .. على أن نبدأ العمل الفعلي منذ الغد .. خذا كل وقتكما اليوم فهذا أقصى ما أستطيع منحه لكما من زمن .. يجب أن تكونا بالغد على أتم استعداد حتى لا نبدأ علاقتنا بمعاملة سيئة أرى أنكما لن تحتملها .. آه .. على فكرة، يوم الجمعة هنا تدريبه خفيف بسبب الصلاة واجتماع الأمير مع رجال المعسكر .. لذا اعتبره يوم إجازتكم الأسبوعية ..

وكان هذا جدولنا اليومي .. التمارين والصلاة، يتخللها درس فقهي بين صلاة

المغرب والعشاء يلقيه علينا الأمير .. لكنه ليس درساً فقهياً بمعنى الكلمة، إنها هو ترسيخ لفكرة كفر كل الفرق المخالفة لفكر جماعتنا وتبيان مدى ضلالهم ..

• • •

بعد أن تركنا الرقيب شاهر ألقيت بجسدي على السرير وكذلك فعل محمد في السرير الذي فوقه، وغرقنا في سبات عميق لم نستيقظ منه سوى على أذان الظهر الذي اخترق أذاننا .. كنت أنوي إكمال نومي إلا أن محمد لم يتركني في حالي، وظل يزعجني حتى سلب الكسل من بين عيني، وأبدله بسخط وارتفاع لضغط الدم .. توضأنا وصلينا الظهر الذي كان أخف وأرحم في الوقوف من صلاة الصبح على الرغم من أن الظهر أربع ركعات والصبح ركعتان .. وبعد الصلاة طلب مني محمد الالتحاق به في جولة استكشافية بالمكان، فرأيت العشرات من الشباب الذين يتدربون بجذ وصرامة على كل فنون القتال، بما فيها التصويب بالبندقية ورمي القنابل اليدوية .. الجميع كان يتأوه إنهاكاً وأحياناً ألماً، إلا أن الرقيب شاهر إذا ما لاحظ أن أحداً ما قد غلبه تعب جسده، حتى يوقفه بضربة من عصاه السمكية على مؤخرته فيعيده إلى التدريب بنشاط أشد ..

في الليل تداعى علينا الشباب بالعنبر مهئين ومرحين بانضمامنا وهم شبه مغمضي الأعين بعد أن تأكلت قواهم على يد الرقيب شاهر .. لكن مع مرور الأيام قُدر لي معرفة قصة كل واحد منهم، وسبب التحاقه بذلك المعسكر .. فقد كانت لكل منهم حكاية توازي بشاعة ما حدث مع محمد، أو أشد وطأة، أما أنا فبالنسبة إليهم شاب مترف منعم .. لأن ما حدث لي لا يساوي مثقال ذرة مما حصل معهم .. لذا أطلقوا عليّ البرنس الفرنسي وصار ذلك اسم شهوتي بين الجميع حتى نهرهم الأمير لأنهم هكذا يشبهونني بالكفار وهو ينأى بي عن ذلك ..

السرير المجاور لي بالعنبر كان لشاب بالخامسة والعشرين من عمره، اسمه نبيل أنور عبد ربه .. مهندس مدني تم اعتقاله العديد من المرات إبان دراسته بجامعة عين

شمس لأنه كان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين .. تم تعذيبه عذاباً فظيعاً على يد ضباط أمن الدولة وكذلك نال أبواه الإهانات المذلة عند اقتحام الشرطة لمنزلهم بمنشية البكري، مثل الصفع والبصق والركل .. لذا كره النظام ولعنه من داخله، إلا أنه ظل متأثراً بكتاب المرشد العام للإخوان قبل السابق المستشار حسن الهضيبي "دعاة لا قضاة"، لذا لم يكفر الحكومة .. وإنما هو غاضب منها ويريد الانتقام فقط .. ولن يتسنى له ذلك إلا بالانضمام إلى جماعتنا .. وعلى الرغم من تعارضه مع معظم أفكار الجماعة، فإنه كان قليل الإفصاح عن ذلك .. كما كان مستاءً من جماعة الإخوان المسلمين ويُكر عليهم سكوتهم عن ظلم الحكومة لأعضائها مقابل بعض فتات السلطة الذي يُلقى لهم به على الرغم من قدرتهم على الحصول على ما هو أكثر من ذلك بحسب رأيه ..

أصابني يقين حاسم بأن نبيل قد ورطه غضبه من الحكومة في الانضمام إلى الجماعة وبالأخص حينما كان يجتد النقاش بينه وبين حكيم عبد الستار، الشاب ذو التسعة عشر عاماً، الحاصل على دبلوم تجارة، الكاره للحكومة والناس وكل المذاهب أكثر من بغض محمد للضباط الذي اغتصب أخته .. حكيم هذا له اجترأ مستفز على الفتيا، فحينما كان يرى جمعا من الشباب يتحدث في بعض الأمور الدينية، يهب من بينهم ليدلي بكلمته مطالباً الجميع بتنفيذها .. كما كان له عادة حقيرة وهي التفتُّح في الكلام والتعالي علينا سفهاً وبذلك قد نال بغض الرسول عن جدارة واستحقاق ، حيث قال صلى الله عليه وسلم (إن أبغضكم إليَّ الثَّرائِرُون المُتَفَهِّقُون قيل: يا رسول الله، وما المُتَفَهِّقُون؟ قال: المتكبرون) .. لذا فهو الشخص الوحيد الذي كانت له القدرة على حرق دم المهندس نبيل بجهله الفاحش ووقاحته الفجة .. أتذكر جداً نارياً دار بينهما في أثناء عملية عاصفة الصحراء الأمريكية على العراق عندما علق نبيل حانقاً على صدام حسين عقب سماعه لنشرة الأخبار قائلاً:

- لقد دمر ذاك الطاغية السفیه إحدى أهم بلاد الإسلام برعوثه وغطرسته الكذابة ..

فهب حكيم معترضاً بنزق ..

- ولم لا نتحدث عن أولئك الكفرة الخونة الذين تحالفوا مع أمريكا على العراق المسلم؟! .. هم أولى بحقتك من صدام الكافر مثلهم ..

- وهل تظن أن أحداً من الدول العربية يستطيع رفض استقبال الجيش الأمريكي على أرضه ناهيك عن مساندته؟! ..

- نعم .. بالجهاد ..

- يا بني إن محاربة الأمريكيين تتطلب سلاحاً لا نملكه ونهضة علمية نحن أبعد ما نكون عنها ..

- أراك تردد كلام الجبناء الذين يعتقدون أن النصر بالسلاح وليس بالرجال .. لقد انتصر الرسول بثلاثمائة رجل على ألف في بدر ..

- يا غبي .. إن الحروب في الماضي كانت بالجرأة وليست بالتكنولوجيا .. الآن يستطيع أي عسكري شاذ في الجيش الأمريكي محو بلدة مسلمة من الخريطة بضغطة زر منه .. إن الحرب الآن ليست بالشجاعة إنما بالعلم ..

تعاطفت مع كلام نبيل إذ وجدته مقارباً إلى حد كبير لرأي والدي ووصيته التي تركها لي قبل سفره إلى أفغانستان .. إلا أنني سكت عن تأييد أي منها، لأنني لست من هواة الجدال وبالأخص مع شخص مثل حكيم يمتلك غباءً يفوق ما تحتويه زريبة بهائم ..

- ثم إن الشيخين ابن باز وابن عثيمين قد أباحا لملك السعودية الاستعانة بالأمريكيين ضد صدام .. أولئك هم شيوخنا الذين نسع لفتواهم في كل كبيرة وصغيرة تمس حياتنا؟! ..

- إن ابن باز وابن عثيمين هم أعلم أهل الأرض في أمور الطهارة والميراث والنكاح والسنن وغيرها من الأمور البسيطة .. أما في مسائل الحاكمية والجهاد والولاء

والبراء، فهم جهلة أو تستطيع القول إنهم يخشون قول الحق مخافة ملك السعودية ..
فضحك نبيل ساخراً من كلام حكيم:

- أنت تذكرني بما كان يقوله الخوارج عن الإمام البخاري .. نفس ما تقوله الآن ..
عصف غضب حكيم في حلقة، فرد زاعقاً:

- نحن لسنا مثل الخوارج الملاحين .. إنما نحن الفرقة الحق في زمن عمّ به الباطل ..
- ألا نستحل دم الناس مثلما فعل الخوارج مع الصحابة؟!

- نحن لا نستحل دم أحد إلا من ثبت عليه الكفر ولم يطبق ولي الأمر الكافر عليه حد الردة .. فنحن غرقى بالكفر ولسنا مثل زمن الإسلام الأول الذي كَفَّر فيه أولئك الخثالة صحابة رسول الله وأباحوا دمهم .. هل تستطيع إنكار حقيقة أن مساندة الحاكم الكافر ومبايعته والرضا بوجوده أو حتى عدم الانتفاض والتحريض عليه هو عمل كفري يستوجب القتال؟ .. هل تنكر أن أغلب أهل مصر يستحلون الحرام يساعدهم للأغاني الماجنة ومشاهدتهم للأفلام الفاسقة وتعاملهم مع البنوك الربوية؟ .. نحن غرقى في الكفر ويجب علينا محاربة ذلك حتى نسود البلد ونعيدها إلى شريعته الأولى ..

- يا بني لا تكفر الناس بذنب .. فهذا نهج الخوارج عليهم من الله ما يستحقون ..
- أنت الذي أراك تميل إلى عقيدة الإرجاء الفاسدة .. وتحاول ليّ الحق والالتفاف حوله ..

وهكذا مثل كثير من الليالي، يتحدث النقاش بينهما حتى يصلا إلى النقطة الفاصلة التي يسب فيها كل منهما الآخر، ويتهمه في عقيدته، ثم يتوجها إلى أسرتهما مترعة قلوبهم بالدمدمة والاحتقان ..

• • •

كانت هناك العديد من الأمور الغريبة التي تدور بذاك المعسكر لم أدرك من أسرارها إجابة حتى الآن .. فمن أين يأتي كل ذاك المال الذي نشترى به ثمن طعام عشرات الشباب بالمعسكر؟! .. ومن أين نحصل على الراتب الشهري الذي يرسله معظمنا إلى ذويه المحتاجين؟! .. والأهم من ذلك كله هو من أين يأتي ثمن السلاح المكسب بمخزن المعسكر؟! .. فالبندقية الآلية وحدها تساوي خمسة آلاف جنيه، وهناك المئات منها موجود بالمخزن، مع العشرات من القنابل اليدوية وبعض السترات المضادة للرصاص .. والأغرب على الإطلاق هي العلاقة التي كانت بيننا وبين مطاريد الجبل الذين نشترى منهم السلاح على الرغم من كونهم مجرمين عتاة لا يعرفون نبياً ولا إلهاً .. كما أنني لا أعرف سر سكوت الأمير عن بعض ممارستهم الإجرامية عندما يسطون على أهل القرية، أو يخطفون أحد شبابنا ويقدمونه للشرطة مقابل تغاضي الضباط عن نشاطاتهم غير المشروعة .. وعلى الرغم من قدرتنا الهائلة على ردعهم والتصدي لهم، فإن الأمير تجنبهم ولم يعاتبهم حتى على أفعالهم!

أما أهالي القرية فقد أتقنوا حرفة الصمت أكثر من حجارة الجبل .. هم لا يشنون بنا أو بمطاريد الجبل .. كما أنهم يتحملون وجودنا بينهم دون شكوى أو تضرر .. العلاقة بين الأطراف جميعاً كان يحكمها غموض مثير لم أستطع تفسيره حتى الآن ..

١٧

يوم السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٩١ .. إنه ذاك اليوم المشنوم ذو الصباح الحزين الذي بدت فيه الشمس محمرة، وخيوط توهجها متقطعة ذابلة .. واستبدلت فيه زقزقة عصافير الصباح بنعيق الغربان ونسيم الفجر بعادم خانق بارد .. إنه اليوم الذي فسدت به نفسي وفقدت براءتها الإنسانية .. آه، كم أتذكره بمرارة متمنياً لو كنت قتلت قبله أو حتى عدت إلى المعتقل!

استيقظنا كالعادة في كبد الليل على صوت الرقيب شاهر المزعج الذي يبدد بغلظته أمان الوسن وأحلام اليقظة .. فقام معظمنا إلى صلاة التهجد كسالى، وقليل منا قد وخز خوله زعيق الرقيب فنشط .. ثم أذن لصلاة الصبح فارتكن الجميع إلى قرآن يقرأه أو تسبيح يردده أو دعاء يتبتل به إلى الله .. لكنني انزويت في ركن المسجد كعادتي وجلست بجانب المهندس نبيل الذي بدا مكفهر الوجه عظيم الهم .. فألقيت عليه السلام، لكن شروده وعينيه الجاحظتين منعاه من رد السلام عليّ .. كررته على أذنه مرة أخرى .. ففتح فمه ببطء وكأنها وجد صعوبة في فتحه وهو يرد عليّ السلام بصوت خفيض مكتئب ..

- ماذا بك يا باشمهندس نبيل؟!

التفت صوبي بنفس البطء الذي فتح به فمه، وبدت ظلال الحيرة في عينيه، يسألني بهدوء الحكيم المفكر:

- هل ترى لما نفعله هنا جدوى يا سليم؟!

حقيقة لم أفكر في ذاك السؤال من قبل، لذا فوجئت به لبضع ثوانٍ، وسكت محاولاً إيجاد إجابة ما، لكنني أزدت فسحة من الوقت أكثر، لذا شغلته بسؤال آخر حتى يتفتح عقلي عن أية إجابة ..

- ماذا تقصد؟!

رمقتي بنظرة عتاب رقيق على إهانة ذكائه وهو يجيبني قائلاً:

- كل شيء يا سليم .. المعسكر .. التدريب .. تكفير كل من هب ودب ..

- أظن أنه علينا الاجتهاد والإقبال على الجهاد .. والله عليه النصر ..

ابتسم هازئاً من ردي ثم سألني بجد وغم:

- لكن لو أن أشخاصاً مثل الرقيب شاهر أو ذاك المتخلف حكيم أو الأمير نفسه قُدِّر لهم وحكموا مصر .. ماذا سيحدث لبلادنا؟ .. أظن الحكومة الفاسدة الطاغية أرحم من هؤلاء ..

سخطت من كلامه فرددت عليه مقطب الجبين:

- هل تساوي بين من أطعمونا وأكرمونا ووقفوا إلى جانبنا في الثأر، بمن دمروا مستقبلنا أولئك المنحطين الساديين الذين لا يرقبون في الله إلا ذمة؟!!

- مثلنا يا سليم مثل المقدم علاء مجدي الذي عذبك .. فهو يُكرَّم من الحكومة لقيامه بتعذيبنا .. ونحن نُكرَّم من الجماعة لأننا سنفعل بهم مثلما فعلوا بنا .. الفريقان خراب يا سليم .. خراب ..

- إذن ماذا تريد .. أو بماذا تفكر؟!

تنهد وأطال النظر إلى سقف الجامع ثم رد عليّ مبتسماً يائساً:

- لا أستطيع التفكير في شيء يا سليم .. لا حل للمأزق الذي نحن به .. فنحن قلة محكوم عليها بالموت .. وإذا نجحت ووصلت إلى ما ترنو إليه سنكمل الخراب

على مصر ونحكم على الجميع بالموت .. هيا إلى الصلاة فالرقيب شاهر قد أبلغنا بالأمس بأن هناك أمراً مهماً سيفتحنا به بعد الصلاة ..

• • •

بعد الصلاة سحب الرقيب شاهر بندقيته الرشاشة التي لا يتركها حتى في سباته ووقف إلى جانب الأمير الذي أمنا كعاداته في الصلاة .. ثم نظر في وجوه الشباب نظرة صارمة متحفزة وجذب أعيننا نحو عينيه الحادتين، فتوقف الجميع عن ترديد أذكار الصلاة وسكن المسجد تماماً حتى إننا سمعنا أصوات أهالي القرية من بعيد وهم يسوقون بهائمهم .. وفجأة وثب من فمه ذاك الصوت الغليظ الخشن إذ حدثنا قائلاً:

- اليوم هو يوم الابتلاء .. اليوم، سنعلم الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من المنافقين .. الشجعان المقبلين والخائفين المولين الأدبار .. سنختبر مدى فعالية ما تلقيتموه من تدريب في معركة حقيقية ..
تبودلت النظرات بين المصلين وعلا توجسهم، كل يسأل جاره بخفوت: "معركة حقيقية؟! .. فاستطرد الرقيب شاهر صائحاً:

- نعم .. إنها معركة حقيقية .. معركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر وأعوانهم من المرتدين .. هذه المعركة ستحدد من سيكون أعلى منزلة بيتنا ومن وجب عليه الاستمرار في التدريب حتى يشتد بأسه .. اليوم، قد تلاقون رب العزة في علاه .. فاغتسلوا لاستشهادكم، وأعدوا بالأذكار أنفسكم، وطهروا بالصلاة الخاشعة قلوبكم ..

وقبل أن يعود إلى جلسته، تلبدت سماء أذهاننا بأسئلة مستفهمة لا حصر لها، لكن أحدنا لم يجرؤ على سؤال الرقيب شاهر سوى المهندس نبيل الذي وقف من بين الصفوف رافعاً صوته لكن بأدب ..

- ما هي المعركة التي سنخوضها يا شيخ شاهر؟

نظر الشيخ إليه شزراً ، معباً بحدة وغضب أكثر مما اعتدناه به .. لكنه كظم غيظه وهو يرد عليه بهدوء واتزان :

- اليوم سنغزو مركز أسيوط، ونسترد أموال المسلمين من النصارى الكفرة تجار الذهب، ونقتل كل من يعترض طريقنا ..

باغته نبيل بكلام ناقد مستهجن ..

- أموالنا من النصارى! .. إنها أموالهم يا شيخ شاهر والله حرم السرقة ..

- وهل يدفع نصارى مصر الجزية للمسلمين؟

- لا ..

- إذن نحن نسترد حقنا منهم، والذي سلبوه بتواطؤ الحكومة الكافرة ودعم صليبي الغرب ..

- لكن يا شيخ شاهر نصارى مصر ينخرطون في الخدمة العسكرية ويؤدونها مثل المسلمين .. لذا فالجزية تسقط من عليهم .. فعلى حد علمي الجزية هي ضريبة الدم وماداموا يشاركوننا الدفاع عن هذه الأرض، فهي تسقط من عليهم .. وحتى لو كانوا لا يشاركوننا الدفاع عن بلادنا، فليس لنا الحق في سلب أموالهم ..

اختنق الرقيب شاهر وامتنع وجهه .. فرد بحنق ..

- من طلب منهم الدفاع عن ديار الإسلام؟! .. إنها بلادنا وليس لهم شأن بها ..

فقاطع الأمير ذاك الجدال المحتدم بنبرته الوقور ..

- لا تجادل يا باشمهندس نبيل .. واجلس في مكانك ..

- لا أجادل؟! .. إنها كما تسمونها معركة .. والصحابة كانوا يناقشون الرسول في

معاركه .. فهل الرقيب شاهر أفضل من الرسول أم أنا أفضل من الصحابة حتى

أسكت ولا أرد عليه؟!

اندفع شاهر بزعيقه العالي ..

- تأدب وأنت تحدث الأمير ..

صمت نبيل صمت العاجز اليائس إذ لم يرَ أحداً يناصره من المصلين .. ثم صاح غاضباً وهو يحول برأسه بين الجميع:

- أنا لن أشارك في هذا الظلم .. إن الله ورسوله بريئون مما تعزمون فعله .. إخواني .. ألا يوجد بينكم أحد سمع حديث رسول الله "من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة" .. هل تقبلون الخصومة مع نبي الله يوم القيامة .. أفيقوا من هذا الضلال قبل أن تمتد ناره وتحرقكم جميعاً ..

وقبل أن يستطرد نبيل كلامه، رفع شاهر بندقيته الآلية ناحيته وهتف ساخطاً ..

- اللعنة عليك أيها المرجع الكافر ..

وأمطر جسده بوابل من الرصاص في صحن المسجد .. فقتله دون شفقة أو رحمة أو خشية لحزمة المكان .. ووقف يرقبه بزهو وعيون تتطاير منها الشرر وهو يتساقط في بحر دمائه الطاهرة التي انفجرت بوجهي وعلى ثوبي، قبل أن يهوي على حجري ويحتضن برأسه الشريفة صدري، يتسم وينصحني بصوته المتحشرج الذي يتمسك بذيل روحه كي ينطق بآخر كلماته قبل أن يسمو بها إلى الرفيق الأعلى ..

- إياك يا سليم أن تسير وراءهم .. اللهم بلغت .. اللهم فاشهد ..

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أحداً يموت .. ويا ليتها ميتة طبيعية بل قتل وحشي لعين اشتد من هوله ذهول عيني حتى تحجرت، ووجف له قلبي فكاد نبضه يشق جدار صدري ..

لم أفق مثل كل المصلين من فزعنا ورجفة قلوبنا إلا على صوت شاهر الذي هو

أنكر عند الله من صوت الحمير، حينما نادى عالياً على اثنين من الشباب، فأتوه
مسرعين خاشعين .. فأشار بيده ناحية نبيل وزعق قائلاً:

- احملوا جثة هذا الكلب وادفنها عند السور الجنوبي .. لا تغسلوه ولا تكفنوه
بل ألقوه كالكلب .. اللعنة عليه ذاك المرجع الكافر ..

والتهب ناظريه يهددنا قائلاً:

- إياكم أن أعلم بأن أحداً صلى أو ترحم عليه .. والله الذي لا إله إلا هو لأقتل من
يفعل ذلك وألحقه بذاك الزنديق ..

ثم أردف آسفاً وهو يحدق في وجه الأمير المضطرب الخائف:

- سنضطر أن نؤجل معركتنا إلى الغد فقد أفسد علينا ذاك الخنزير عزيمة الجهاد
.. لذا سنصرف الآن كل إلى عباداته حتى نظهر قلوبنا ونجدد العهد بيننا وبين الله ..

وهكذا لفظ نبيل أنفاسه الأخيرة وسط الوجوه الشامتة مثل وجه المائق حكيم،
والوجوه العاجزة كوجهي، والوجوه القاسية كوجه ذاك الشاهر .. وحُرم من حق
المسلم على المسلم وهو يُلقى به في حفرة كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .. سحقاً لتلك
القلوب السوداء التي لا ترحم وتلك العقول التي لا تفهم .. هل سمعوا عن عبد الله
بن أبي بن سلول رأس الكفر والنفاق في مدينة رسول الله، الذي حينما مات صلى عليه
نبي الرحمة .. أما نبيل فقد مُنعت الصلاة والترحم عليه!

لقد فضّل نبيل مفارقة حياته على أن يسلب حياة غيره أو ماله .. كان نبيلاً كاسمه
.. ورعاً في إيمانه .. صادقاً في تدينه .. دفع ثمن خطأ اختياره للجماعة بوجه مبتسم
ورضا الصابر المحتسب قبل أن يمتد به خطؤه إلى جرائم أخرى ليس لها من دين الله
سند أو سلطان ..

• • •

بعد انصرافنا إلى مهاجعنا، التجأت إلى رياض ذكرياتي بدلاً من التفكير فيما حدث .. طاردت ظلال أيامي الجميلة مع إيزابيلا .. ألوذ بها من وحشة حالي وما آلت إليه أيامي .. تدثرت بدفء وجهها الضاحك المشاكس .. واحتضنت بخيالي جسدها حضن الخائف الملتاع .. شكوت إليها تصاريف أقداري وعاتبته على تركي وحيداً .. آو يا إيزابيلا .. كان حالي سيكون غير الحال لو اصطحبته معك وارتضيتني زوجاً لك .. كان من الممكن أن أكون أراقصك الآن في حدائق فيينا أو قصور ستوكهولم .. أو أنعم بجسدك الساحر في نوبة عشق شهوانية ممتعة .. وأتسامر معك في سكون الليل فنفض بقمهقاتنا تروس هدوئه ..

ظلمت أرتجف على سريري طوال النهار والليل، ثانياً ركبتني إلى صدري أعانقهما فزعاً عما أحاط بي من أهوال .. وعلى الرغم من تفكيري العاصف بإيزابيلا، فإن عيني قد سالتا بالدمع في تواصل لا ينقطع، وكأن جسدي المصعوق بها حدث لنبييل كان معزولاً عن عقلي المارب إلى ذكرى إيزابيلا .. تنهت بضع مرات من ابتلال وسادتي وخشيت أن يراني أحد فيبلغ الرقيب شاهر بأمري، فيقتلني مثلما قتل نبييل .. لذا كنت دافساً وجهي في الوسادة لا أرفعه إلا كل حين حتى تستنشق أنفي بعض الهواء البارد .. تباً لظلم أولئك .. لقد حرّموا على نبييل كل شيء حتى البكاء عليه!

في آخر الليل جاءنا شاهر كعاداته بهتافه المزعج يدعوننا إلى صلاة التهجد .. أتانا يدعوننا إلى الصلاة متناسياً جرمه، وكأن قتله لنبييل هو أضحجية تقرب بها إلى الله لا تستحق الرثاء لحالها .. فوقف بين الأسرة يتفحص وجوهنا، وكأنها يتصيد المترحين على نبييل من بيتنا .. وبعدما نهضت ومضيت متجهاً إلى الخارج كي أتوضأ .. لمح احمرار عيني فأوقفني بقبضة يده اليايسة وسألني مرتاباً:

- ما بال عينيك؟!

كنت أتمنى في تلك اللحظة الانتقاض عليه بقبضة يدي الأخرى فأهشم رأسه الخاوية وأصرعه .. لكنني اكتفيت بعدم النظر إلى وجهه وأجبتة بنبرة جافة:

- لأنني لم أتم جيداً ..

- ولم لم تتم جيداً؟!

- شُغلت بالذكر عن النوم .. هذا كل ما في الأمر .. أترك يدي حتى ألحق بالصلاة قبل أذان الفجر ووضيع علي ثواب قيام الليل ..

أفلت يدي بغضاضة .. وظل يرمقني بحيرة حتى خرجت من العنبر .. وكأن شيطانه يوسوس له بأن يلحقني بنبيل، لكنه يخشى فعل ذلك لئلا يكون بقلبي ذرة إيمان يُسأل عنها يوم القيامة .. وهل كان قلب نبيل خاوياً من الإيمان حتى يحرقه برصاصاته الغادرة؟! .. أم كان فارغاً من ذاك الهراء والضلال الذي يعتقونه .. ولهذا قُتل؟!

في تلك الليلة كانت أول مرة بحياتي أصلي فيها بخشوع الصحابة والتابعين .. وأنضرع إلى الله تضرع الزهاد العابدين .. أتشبث بستائر عرش الرحمن في سجودي وأنا أدعوه المغفرة والرحمة لنبيل .. أسأله الهداية والصواب لي وتجنبي غدر أولئك وغضبهم .. أو اعتقال الحكومة وسجنهم ..

وبعد صلاة الفجر، وقف الرقيب شاهر نفس وقفته بالأمس وراح يردد نفس الكلام بحماسة وهياج، حتى تبعه الأحق حكيم هاتفاً وراءه بجملة "حي على الجهاد" وهو ينظر إلى جموع الشباب، ويستحثهم بنظراته التريد مثله .. فضج المسجد بالصياح وفزع هواؤه إلى الخارج فراراً من لهيب أصواتهم الحارقة وتشنجاتهم المفتعلة .. خرجوا من المسجد ولحقت بهم خوفاً من ملاقة نفس مصير نبيل، أسمعهم يكبرون ويدبون بكموبهم على الأرض وهم يمرون بأزقة القرية الضيقة، حتى كادت تلك الطرق الطينية الهشة تشقق تحت دبيب أرجلهم وتهدم البيوت المتهاكة من حولهم .. ففر من أمامنا الأهالي البؤساء وظلالهم المنحنية المرعوبة .. واكتفوا بمراقبتنا من وراء شقوق أبواب منازلهم ونحن نحمل السيوف والبنادق الآلية، ويلمع في أعيننا تسعر الجحيم .. مطوقين بهاء متفضة وتدق طبول الشر حول رؤوسنا ..

في ذاك الصباح الذي خُلق توأماً في الشؤم لسابقه .. كانت أسيرت على موعد

جديد من إهراق الدم تحت أشعة شمسها الباهتة .. فلقد تسابق الأوغاد إلى القتل كأنهم كلاب مستشرية فتحت أشداقها وسُكِب لعابها، تنبح بشراسة لتروي ظمأً توحشها .. لم يعترض طريقنا أحد ولم يبلغ عنا أحد، فالأبواب كلها قد ارتاجت على ساكنيها الفزعين .. وراح أهل أسيوط يمارسون الصنعة التي احترفوها دائماً .. الصمت المطبق ..

وصلنا إلى ناصية أحد شوارع المركز المتراصة على جانبيها بعض محال الذهب لتجار مسيحيين .. وإذا بحكيم يهتف بصيحة مدوية: "حيّ على الجهاد" فركض مسرعاً دون هدف كأنه نمر جائع سقط بين أنبية شاهقة من اللحم الأحمر، لا يعرف بأيها يبدأ الاتهام .. وتدافع وراءه عشرات الشباب يكبرون من أعماق حناجرهم .. وقفت مذهولاً جزءاً من ذاك التوحش الذي لم أر مثله في حياتي، لا أشعر بشيء سوى بالخوف من رفاقي، وأنا الذي كنت أبغض الكفار دائماً وأتحين الفرص لهزيمتهم والنيل منهم .. لكن على الرغم من طول فترة تدريبي وبقائي بالمعسكر فإني لم أتقن التوحش مثلهم ..

فوضى عارمة أطبقت على ذاك الشارع البائس .. فهناك المحملون بالغنائم من الذهب والمال، وهناك من يطارد الفارين من أصحاب المحال حتى يطعنه بالخنجر من وراء ظهره أو يخترقه بطلقات من بندقيته ..

وبينما أنا واقف مكبل بذهولي، التفت إلى يساري دون قصد فرأيت لافتة كبيرة على محل ذهب بجانبي مكتوب عليها "مصوغات زكريا وصفي" .. صفعتني حينها ريح الذكريات وهي تنقل ذهني بجولانها إلى قديم الأيام، فتحرّكت قدمي ببطء نحو المحل، أهمس إلى نفسي قائلاً:

- زكريا وصفي .. والد كريستين!

دنوت من الباب فترأى لي المحل فارغاً من الناس .. دخلته بعين فاحصة في ذكرياتي القديمة مع كريستين أكثر منها في المجوهرات المتلاثلة .. وبان لي من تحت

المكتب الصغير بآخر المحل صلعة رجل .. اقتربت منه في حذر والتقطت أذني دعاءه المرتجف وهو يسأل الله النجدة والعون من تلك المذبحة .. فمددت يدي بحنو ناحية كتفه وأنفضته من رقدته الخائفة .. ثم سألته مستغرباً:

- هل أنت زكريا وصفي والد كريستين؟

أجابني الرجل بتلعثم واضطراب .. يتردد في حلقة كل حرف ثلاث مرات قبل أن يلحقه بالحرف الذي يليه:

- كريستين تعيش أنت .. ووالدها بالقاهرة .. في الفرع الرئيسي بمصر الجديدة .. أنا محمد عبد المقصود أدير المحل للأستاذ زكريا هنا بأسيوط ..

- محمد عبد المقصود!

هكذا رددت اسمه، مستغرباً عمل مسلم مثله في محل لنصري .. وفجأة انقض علينا وحش الموت من ورائي ليسدد الرصاص الميت إلى جسد ذاك المسكين وهو يصبح مكبراً .. لأحتضن في أقل من يومين الجثة الثانية وهي تسقط أمامي بأيدي لا تعرف الحق، وأنفُس لا تعشق إلا سفك الدماء .. فصرخت بمن قتله حائناً:

- إنه مسلم ..

فأجابني بلا مبالاة مستفزة:

- ألم يكن يعمل عند كافر؟ .. إذن فهو يستحق القتل .. هيا بنا بسرعة نجمع ما بهذا المحل من مصاغ قبل أن تأتي الشرطة ..

ظل ذاك اللص يتلفت يمينا ويساراً وهو ينهب ما ليس بحقه، ثم سحبني بعد انتهائه من ذراعي كي نهرب بسرعة .. وبينما أركض معه مرغماً، كنت أنظر إلى لافتة المحل وأقرأ اسم صاحبه بتأسف وخجل وحسرة ..

وهكذا بعد كل تلك السنوات التي لم أندم فيها لحظة واحدة على ما فعلته بكريستين، إذا بصحوة ضمير تنهش في قلبي، وأنا أساعد على سرقة مال أبيها وأسلمه شيئاً آخر عزيزاً عليه بعدما أهلكت ابنته من قبل ثلاث سنوات ونصف ..

١٨

أبستني ربح الخوف وأحكمت على فمي الخرس ببروز أنيابها المفزعة ..
 اللحظات تالت عليّ بزخات الرعب وحاصرت عقلي مراوغات القلق .. هكذا كان
 حالي في أرض الشمس والدم بعد تلك المجزرة .. محاط بمجرمين لا يتورعون عن
 إصدار فتاوى القتل في لحظات، ويطيحون بروحك من بين جذعك كأنهم يتزعون
 قشرة موز .. ثم يتحلقون حولك وهم يتفاخرون بذلك كأنهم سحقوا أعتى جيوش
 العالم، وليس بضعة أفراد عزل لا حول لهم ولا قوة .. سحقاً لما يتباهون به كذباً ..
 لقد كان ما أسميته جهاداً أشرف مما يدعو أولئك السفاحون ..

اجتاحني بلادة وشرود .. وصرت بينهم جسداً بلا روح يؤدي ما يطلبون في
 طاعة وتهذب، بينما يخبئ روحه في عمق سحق بداخله، نائياً بها عن تلك الأيادي
 الآثمة .. وبمضي الأيام توصل عقلي إلى حقيقة قائمة، أن مصر ما هي إلا ثلاث فرق،
 إما أن تكون مع الأمير أو تكون مع علاء مجدي أو تكون مثل الخراف التي تذبح دون
 مأمأة معترضة .. هذا هو الواقع الذي وجب عليّ التعامل معه .. فأنا لم أعد بفرنسا ..
 أنا في مصر .. حيث القوة هي الخصم والحكم!

العجيب بعد ذلك أن توازني بدأ يعود إليّ من جديد بخطب الأمير التي استلث
 روحي برفق من بين ضلوعي وداعبتها بلطف حتى إذا ما امتلكتها أخذت تشكلها
 كيفما شاءت .. فالأمير له منطق قوي وعقل ذكي وفصاحة مطلقة .. فهو إذا ما أراد
 إقناعك بأن الديك أصله إطار سيارة، سيستطيع ذلك دون أن تدري بأنك سُحرت
 ببلغته الراقية، حيث يكفيه فقط إيمانك بالحد الأدنى مما يؤمن به، فيشيد بناءه على

عقلك بكل سهولة .. لذا لم يمر أكثر من أسبوعين إلا وقد نسيت تماماً فظاعة ما حدث لنيل وتجار الذهب .. بل كاد يصل بي الإحساس إلى تحريمهم هم وتبرئة قاتليهم!

وفي منتصف مارس عام ١٩٩١، حان موعد تخريج الدفعة الثانية من المجاهدين .. كنا الدفعة الثانية، فلقد سبقنا إلى تلك الثكنة شباب سابقون لكنهم تدربوا فقط ولم يقوموا بأي عمليات مثلنا ..

بعد خمسة أشهر من الجهد والكد والتدريب الشاق، أصبح كل منا كفئاً للقيام بعمليات عسكرية توازي عمليات قوات الصاعقة المصرية، أو تقل قليلاً عنها نظراً للإمكانيات .. فوق الأمير بين فتانته يهتهم وبياركهم على ما وصلوا إليه، كأنه حفل لخريجي الكلية الحربية .. بالطبع لم يكن هناك أوسمة ينالها المميزون، لأن الأوسمة من اختراع الكفار .. لكن الأمير استبدل ذلك بترييت لطيف على كتف كل متميز بعد مصافحته .. كأنها علامة رضا منه وتكريم لذلك الفتى على تفوقه التدريبي .. وعلى عكس ما توقعت، فقد نلت ذاك الترييت على كتفي مع ابتسامة واسعة من الأمير، ودعوة خاصة لي باللاحق به إلى بيته بعد الحفل كي يحادثني في أمر خاص .. وهو الأمر الذي اختصني به دون غيري!

حامت في رأسي بعض الظنون والريب من تلك الدعوة الخاصة .. فالأمير ربت على كتفي إشادة بتفوقي التدريبي وصلابتي القتالية وعقيدتي الراسخة وتلك الصفات لم يكن لها أي وجود بي، لذا فإن استحسانه لي ودعوته للقائي أثارت في نفسي الشك مما يحدث ..

لم يدر في بالي سوى سؤالين وأنا متجه إلى بيته بعد الحفل هما: هل ابتسم في وجهي وربت كتفي مواسياً إياي على فشلي في التدريبات ومن ثم سيجعلني أنخرط في الدفعة الجديدة وهي مأساة كبيرة أن أستمّر بذاك المكان الموحش خمسة شهور أخرى؟ .. أم أنه قد كشف عما كان بداخلي من سخط تجاههم بسبب قتلهم لنيل وتجار الذهب وسيأمر بقتلي لذا أحب توديعي برقته الوديعة؟

على كل حال لم تنازعني الشكوك طويلاً .. فقد كانت المسافة كلها لا تزيد على ثلاثة دقائق من المشي المتأني من المسجد إلى بيت الأمير .. وتلك ليست فترة كافية لتهمزك ظنونك الشرسة ..

بعد صلاة العصر طرقت بابه طرقتين متتاليتين، ثم وقفت على بُعد بضعة خطوات من الباب منتظراً أن يفتح لي الباب، أو ينادي عليّ للدخول .. لكنه تأخر عليّ فأعدت الكرة بعد دقيقة فإذا به يفتح الباب بنفسه، فالتقت نظراتنا هتيةً من الوقت قبل أن أخفض عيني تأدباً وتوقيراً لمكانته .. دعاني للدخول بترحاب وهو يمسك بيدي كأني رفيق له، وهذا شرف لم يحظ به أي شخص من قبل بما فيهم الرقيب شاهر .. ثم أخبرني بمرح وهو يجلسني في مكان مجاور لمقعده بصحن البيت:

- سأصب لك شراب الخروب .. لا تقلق فأنا أعدّه بشكل ممتاز ..

- وما شراب الخروب؟! -

- ها ها ها .. توقعت ألا تعرفه .. على العموم هو شراب لذيق .. إذا سافرت إلى الإسكندرية في يومٍ ما فأنصحك بتجربته .. فهي أفضل مدينة بالعالم تعد شراب الخروب ..

بالفعل كان مذاق الخروب لذيقاً كما أخبرني الأمير .. فشربته بتروٍ كي أستمتع بمذاقه بينما كان الأمير يحرق في وجهي بعين باسمة حانية وكأني ولده! .. ثم قطع تحديق عيني بسؤال مفاجئ أزاح به ذاك الهدوء المزوج بصوت رشفاتنا للخروب ..

- هل تعلم سبب دعوتي لك إلى هنا؟

- الله ثم حضرتك أعلم بالسبب ..

ارتسمت على شفاهه ابتسامة خافتة أراد بها تبديد التوتر الذي أحسه بنبرة صوتي فوضع كوب الخروب على جنب .. وتحولت ملامح وجهه إلى الجد وصوته إلى الهمس ..

- هل تعلم عدد إخوانك بالمعسكر؟
- أربعة وخمسون ..
- هل تعلم كل شيء عنهم؟
- بالطبع لا .. لكني أعلم سن كل واحد منهم ومن أين أتى وفي أي كلية قد تخرج وأتذكر بعض القصص المؤسفة التي حدثت لهم وأخبروني عنها ..
- إذن لو سألتك عن مستوى تعليم هؤلاء ستجيبني؟
- أغلبهم من حملة الدبلومات .. وثلة من خريجي التجارة وقليل من المهندسين ذوي التخصصين المعماري أو المدني وطبيب ييطري واحد ..
- وهل هؤلاء برأيك يمتلكون من العلم ما يحقق لنا التوازن في معركتنا أمام الحكومة؟!
- صمت قليلاً لأنني خشيت مصارحته بالحقيقة المؤسفة وبالأخص حينما غزت خيالي بشكل مفاجئ صورة حكيم الغبي وأمثاله من الجهلة بالمعسكر .. لكنني استشعرت من نبرة صوته أنه أراد مني تلك الإجابة فمحتة إياها ..
- بالطبع لا .. فالحكومة تملك الرجال الكثر والسلاح والأجهزة المتطورة والاستخبارات وأمن الدولة .. وإذا أردنا مواجهتهم فعلياً أن نفوقهم بخطوة على الأقل في كل شيء ..
- أشار بيده في وجهي مُحطناً إجابتي .. ثم قال لي بجدية أكثر:
- كي نهزم الحكومة يجب أن نتحرك بطريقة صائبة .. علينا إتيانهم من نقاط ضعفهم .. الحكومات المستبدة يا سليم أكثر ما يثير غضبها ويزعجها هو اختلال الأمن ببلادها .. وإذا نجحنا في تلك النقطة فسوف نربح الكثير في حربنا معهم .. لكن المشكلة أمامنا هي ندرة الكفاءات التي تنفذ لنا تلك الطريقة بشكل فعال ..

- لم يا حضرة الأمير؟

- نحن نحتاج إلى كفاءات علمية واستخباراتية وهي عقبات يحاول القادة التغلب عليها بالمطالعة والقراءة .. لكن الممارسة شيء آخر .. العقبات الاستخباراتية يمكن التحايل عليها بالشفرات وتغيير الأماكن وغيرها من الأمور التي تعلمناها من الكتب لكن العقبة العلمية لا يمكن التغلب عليها سوى بالعلماء .. نحن نريد مفاجأة الحكومة دائماً وهذا لن يتسنى لنا بعمليات أسلحتها تقليدية كالتي تدربت عليها .. نرغب في تكبيدهم أعلى الخسائر دون أن نخسر رجلاً واحداً .. وهذا هو دورك يا سليم ..

برقت عيناى ذهولاً وتششت أفكاري وأنا أسأله مندهشاً:

- دوري أنا؟!

نهض من أمامي وراح يتمشى خلفي، ليخبرني بالسبب قائلاً:

- عندما اتصل بي الشيخ بركات وأبلغني بأمرك قبل قدومك إلى هنا، فرحت كثيراً .. فأنت بالنسبة لهذه الجماعة كالكنز الثمين، أو السلاح الفتاك الذي سنتصر به بحول الله .. فشباب مثلك من أب مجاهد عظيم يؤمن بكل ما نؤمن به، وتعلم في أفضل جامعات الغرب في كلية من أهم كلياته العلمية، وشهد له أساتذته الكفار جميعاً بالعبقريّة هو كنز يستحيل إيجاد مثيله مرة أخرى ..

- لم أفهم بعد كيف سأساعد الجماعة على النصر يا حضرة الأمير؟!

انحنى في حركة خاطفة وأمسك بكتفي ثم دار وألصق ناظريه بعيني خبراً إياي بنبرة أمرة بها نزر من رجاء:

- ابتكر يا سليم .. كل ما تريده سنلبيه لك كي تختبر لنا قتابل أو سلاحاً تعجز الحكومة عن مواجهته والتصدي له ..

نهضت ببطء من جانبه مفكراً بينما هو مازال منحنيّاً ينظر ناحيتي منتظراً أي إجابة تريحه .. فأخبرته حائراً:

- أنا أستطيع القيام بذلك .. لكنني أحتاج إلى مواد وأجهزة باهظة الثمن كي تساعدني ..

قفز كالزنبرك من جانبي ووقف أمامي يطالعني سعيداً فخوراً ليبلغني بفرح:

- كل ما ترغب به سيكون أوامر لنا وسنأتيك به .. فلا تحمل هم أي شيء ..

- لكن هناك مشكلة ..

- ما هي؟!

- أنا لن أستطيع القيام بذلك في بيت محمد بإمبابة .. فحجم الأجهزة التي سأطلبها كبير .. بالإضافة إلى أن سكان المنطقة عنده متطفلون بشكل لا يطاق ..

- ها ها ها .. ومن أبلغك أنك ستعود إلى إمبابة؟

- حسناً .. إلى أين تريدني أن أذهب؟!

- الطبيعي أن كل متدرب هنا يتم إرساله إلى مكان معين يختفي فيه عن الأنظار منتظراً أوامرنا .. لكن في حالتك يا سليم العملية ستحتاج إلى ترتيب آخر ..

• • •

الأيام .. إنها ذاك الرسول الذي عادة ما يحمل الخبايا المفجعة إلى عمر .. فقد أضفته بالترحال فيها .. وأنقلته بها لا يطيق .. شئت كيانه مرات وروعه في سكينته مرات ومرات .. دائماً ما حيرته في دهاليزها المتعرجة وأحاطته بقبضتها الفولاذية .. ها هي الآن على موعد جديد تسقيه منها ما تعودت سقايتها .. وكأنها لم تكتفِ بحمله على العيش في بلد لم يألفه منذ ولادته وبهروب أمه إلى أمريكا وبوفاة والده الذي رباها

وبخسائر صالة الرقص في الأرجنتين .. نعم إنها الأيام .. لا ترحم في ضرباتها التي تكيّلها عادةً بإحكام إلى الفؤاد فتخمد بريق الأمل فيه وتبدد الفرح من حواشيه ..

في السابع عشر من مارس عام ١٩٩١، وبالتحديد في الساعة الحادية عشرة صباحاً حينما كان عمر غارقاً في تلبية طلبات زبائن كافيتريا النادي .. ييازح البعض بنكاته الظرفية، ويداعب بأنامله شعر طفل بعطف ولطف كي يكسب ود أبويه .. يتحرك بخفة بين الطاولات كأنه يراقص إحدى فتيات بيونس آيريس رقصة التانجو ويوزع ابتسامته الأسرة على الجميع .. نادى عليه رفيقه يونس الكتيب ليبلغه أن عم والده اللواء عبد الحميد على الهاتف يطلبه .. فاستأذن عمر من جميع الزبائن بنظرة أسف خافته، نشرها في وجه كل الحضور، ثم هرول إلى ساعة الهاتف والتقطها بحركة بهلوانية تعلمها من زملائه بالكافيتريا ..

- صباح الخير على أشجع مقاتل عرفه التاريخ المصري ..

- أنا أحتضر يا عمر ..

بصوته الأسف المشفق، فجر اللواء تلك القنبلة المحزنة في وجه عمر دون مقدمات .. فثُلت أطراف الأخير بتلك الرجفة الفزعة وهي تسري بسرعة مع جريان دمائه في أنحاء جسده ..

لم يتبادل الاثنان الكلام لثوان معدودات قبل أن يياغت عمر عم أبيه بسؤال ساذج ألقاه بخوف ورجاء ..

- أنت تمزح؟! .. نعم أنت تمزح يا جدي ..

لم ينطق اللواء بحرف واحد .. فأعاد عمر عليه ذاك السؤال ثم انهال منادياً عليه في سماعه الهاتف وهو يبكي، يزعق، يتوسل إليه بصوت ملتانع أن يرد .. لكن اللواء كان قد فارق الحياة وهو محتضن لعمر بخياله، مودعاً إياه عبر موجات صوتيهما .. وبذلك المكاملة أعلن القدر انتهاء ذاك الفصل القصير من حياة عمر الذي كلما ارتقى

في كنف يحميه، ذاب من حوله راحلاً.. كما أعلن نفس النهاية من حياة اللواء الذي عاش زمناً طويلاً محروماً من أنس الولد حتى مُنح ذلك في أيامه الأخيرة القليلة ..

• • •

عندما أخبرني الأمير بالآمال التي تعلقها الجماعة على كاهلي شعرت بقلق وفخر .. نعم أحسست بالفخر، ذاك الإحساس الذي حرمت منه منذ ما وطئت قدمي أرض مصر حيث لم أذق سوى الذل والكراهية والاحتقار .. أعاد لي الأمير هيبتي التي أستحقها والتبجيل الذي سمعته له دائماً .. فعادت إليّ طموحاتي التي لا تعرف حدوداً، أحدث نفسي قائلاً: الآن سأركع من ركعوني وأذل من أذلوني .. سأخلع الأمان عن رؤوسهم الملعونة وأبدله بفزع وجنون .. سيذكر التاريخ لقرون تالية ما سيفعله سليم باهر الشاذلي بتلك الحكومة الكافرة التي عادته دون ذنب والشنم الباهظ الذي دفعته لجرمها في حقه .. الآن يا والذي أشعر بأنني أسير على خطاك وأهتدي بهداك وألبي رغباتك وأحقق أحلامك .. أعدك أن ترى مني ما لم تكن تحلم به، وأن أحقق أمانيك التي جاهدت من أجلها ..

لم يمر سوى يوم واحد على حديثي مع الأمير قبل أن يستدعيني مرة أخرى إلى بيته .. توقعت أن يكرر على مسامعي عبارات التحفيز والحماس والتفخيم لكنني لم أكن أحتاجها فقد قام لقاءنا السابق بكل ذلك على أكمل وجه .. على كل، ذهبت إليه كي أرى ما يريد مني .. وحينما فتح لي الباب، تلفت برأسه متوجساً في المكان، ثم أدخلني وأغلق الباب ورائي بإحكام .. واتجه إلى المطبخ كي يعد لي شراب الخروب اللذيذ ..

- لقد توقفتنا في حديث الأمل عند المكان الذي ستجوز فيه اختراعاتك لنا ..

هذا ما قاله بلطف وهو يقدم لي الشراب .. فأجبته على الفور:

- نعم ..

- حسناً .. لقد استشرت بعض الإخوة من القادة في أمرك واتفقنا على أن نمارس
عملك من منزلك بمصر الجديدة ..

أصابني تعجب ساخر من كلامه، وقُضحت ملامحه على وجهي بسبب ابتسامته
البلهاء التي حلفت حول فمه وهو يخبرني بذلك الأمر الذي جعلني أجزم أن أولئك
الناس لا يعرفون ما يفعلون ..

- سيدي الأمير إن شقتي ليست بالمكان الآمن .. فهي بالتأكيد تحت أنظار أمن
الدولة ..

أراح ظهره إلى الخلف وأجابني بثقة:

- لا تقلق .. فأمن الدولة قد أهملوك بعدما أفرجوا عنك ..

- وكيف تأكدت من ذلك؟!

دنا برأسه من رأسي وخالطت أنفاسه الحارة أنفاسي المضطربة، يجيبني بزهو:

- هل تعتقد أننا نلعب هنا؟! .. نحن نراقب منزلك منذ لقائك الأول بالشيخ
بركات في إمبابة .. وأجرينا تحرياتنا حولك للتأكد من صدق نواياك وقصتك التي
أخبرتنا بها ..

فقاطعت زهوه المبالغ فيه بسؤال متدالك مني ..

- سنفترض جديلاً أن أمن الدولة قد أهمل أمري كما أخبرتني .. لكنه مع مرور
الوقت ونتيجة لما سألته من تأثير، سيبحثون في ملفاتهم القديمة ويعودون إلي كي
يعتقلوني .. وحينما سيأتونني سيجدون عندي الأدوات التي استخدمتها في صناعة
القنابل ويعتقلوني ..

- أولاً، لا يوجد في قاموسنا كلمة نفترض جديلاً .. فكل شيء نقوم به نحسب
حسابه جيداً لذا ثق في كلامي وتوكل على الله .. ثانياً، بالنسبة للأدوات فهي ستأتيك

قبل العملية بمدة مناسبة، وعندما تصنع القبلة سنأتي لاصطحابها مع الأدوات ويعود بيتك كما كان .. وبالتأكيد لن نطلب منك القيام بشيء قبل التأكد من أمانك مائة في المائة ..

- هناك أمر آخر سيثير رغبة أمن الدولة بي ..

- ما هو؟!

- أنا الآن بلا عمل .. وعندما أعود إلى القاهرة كيف سيتسنى لي العيش من وجهة نظركم دون وظيفة، وبالأخص أني سأوقف تأجير شقتي ..

نهض الأمير من أمامي يداعب لحيته برفق ثم رد عليّ متلجلجاً كأنني أصبته في مقتل:

- لقد تناقشت مع الإخوة في ذاك الأمر .. ووعدوني أنهم سيجدون لك وظيفة ما في أقرب فرصة .. في الوقت الراهن ستكون حجتك أنك مازلت تمتلك مبلغاً جيداً من المال الذي تركه لك أبوك قبل سفره إلى أفغانستان ..

- ولم لا أقوم بهذا الأمر من بيت آخر .. وأستمر بتأجير شقتي والعيش من إيرادها حتى لا أثير الريبة .. بالإضافة إلى أن عملي في أي مكان قد يعطلني عن تأدية واجبي تجاه الجماعة على نحو كافٍ ..

- موقع منزلك ممتاز .. فهو سيسهل علينا تأمينك كما أنه في منطقة لا يتدخل بها أحد في شئون الآخر .. وتلك الخصوصية شيء نتمنه غالباً في بلد أغلب شعبه فضولي ..

سكتنا لبرهة كأن كل منا يسترجع شريط الحديث الذي دار بيننا في هذا الشأن من أوله لآخره بعقله كي نبدأ على أرض ثابتة لا خوف فيها ولا قلق .. ثم تنهدت مستحسنًا كلامه وأخبرته بهدوء المطمئن:

- حسناً .. توكلنا على الله .. متى أعود إلى القاهرة؟

- في الغد بأمر الله ..

• • •

كانت وفاة اللواء عبد الحميد هي النقطة الفاصلة في حياة عمر بمصر .. ظل أياماً طويلة بعد دفنه يفكر في حاله وما سيفعله .. تشغله شواغل عدة، أهمها أنه لن يجد أحداً يساند في مصر بعد رحيل آخر أقرائه .. ومن الممكن أن يكون له قريب آخر سيأتي مطالباً بحقه في ميراثه بشقة عم والده وأمواله وقد يطرده .. كما أن عمله بالكافيتريا ليس له مستقبل يَكْبُر فيه شأنه ويحتمي به من وهن الشيخوخة حينها يأتي أوانه، بالإضافة إلى أنه لا يستطيع الحصول على عمل أفضل منه لأنه لا يحمل شهادة في بلد لا تعترف حتى بأصحاب الشهادات العليا .. لذا فهو يحتاج إلى مبلغ طائل يجنبه شقاء القادم من أيامه ويمكنه من إنشاء مشروع مربح يتكأ عليه إلى آخر حياته، ويستطيع به تأمين نفسه جيداً ضد الفقر والعوز اللذين قد يواجههما إذا استمر حاله على ما هو عليه ..

وفي يوم من الأيام أشار عليه يونس بحل سحري ومشروع سيبقي له ذهباً .. فذهل عمر بفكرته واستحوذت كلية على رأسه، عازماً على تنفيذها فهي المفتاح الوحيد الذي سيوصل به على كل مخاوفه ..

كانت مشورة يونس هي أن يفتح عمر في بيت اللواء صالة لتعليم رقص التانجو .. وحينما استنكر عمر واستغرب تلك الفكرة، أخبره يونس أن ذاك المشروع سيدر عليه ربحاً هائلاً .. فمصر الآن قد نشأ بها جيل آخر منفتح على الغرب والشرق لا يشغل باله أي صراع فكري معهم، بالأخص أن الحروب قد ولت أيامها ولم يعد يهتم الشباب في بلادنا سوى بالرقص والأغاني وآخر صرعات الموضة وبالتأكيد بالكرة .. أما نساء النادي فمعظمهن زوجات لجيل جديد من رجال الأعمال المشغولين ليل نهار في رحى الدنيا باغتنام فرصهم للثراء التي لاحت لهم بشكل غير مسبوق في

تاريخ مصر .. وتلك الصالة تعد فكرة مثيرة لأولئك النسوة ستجذبهن بسهولة، وبالأخص إذا كان صاحب تلك الصالة هو ذاك الشاب الوسيم الذي كلما رأيته حلمن بمضاجعته ولو لمرة واحدة كي يطفئن ولع شهواتهن المهملة من أزواجهن .. وفي النهاية المشروع غير مكلف، وسينقل عمر بخفة إلى الطبقة العليا من المجتمع أو على الأقل سينال احترام أهل تلك الطبقة وودهم ..

١٩

ما أحلى العودة إلى نقطة الصفر بعد أن أغرقني الدنيا في تيه كثيب أسود لا نهاية له ولا حدود لأطرافه .. رجوعي إلي بيتي بمصر الجديدة سليماً بعد كل ما مرت به من شقاء هو أقصى ما حلمت به في ليالي الموحشة بإمبابة أو بأسويط .. وعلى الرغم من أن عودتي للسكنى في شقتي هي عودة محملة بمهمة جسيمة ومخاطر جمة على أمني الشخصي .. فإنني آثرت عدم الاكتراث لتلك المخاوف، والتمتع بحياتي الجديدة النظيفة بعدما هجرني لفترة ليست بالهينة من حياتي ..

لم يطلب مني الأمير المكوث في بيتي وانتظار التعليمات بل أبلغني أنه بمجرد مرور يوم واحد على دخولي بيتي بالقاهرة يجب علي الاتصال بشخص يدعى رفعت المحلاوي .. فهو المكلف بالتنسيق بيني وبين الجماعة وتلبية كل طلباتي والاهتمام بحمايتي .. لم يكن ذاك هو الأمر الوحيد الذي أبلغني به الأمير .. بل أمرني بحلق لحيتي وعدم لبس الثوب القصير حتى أستطيع التخفي وسط الكفار، مُطمئناً إياي أن هناك فتوى لشيخ الإسلام ابن تيمية تبيح للمسلم التخلي عن الهدى الظاهر في بلاد الكفر .. كما طلب مني عدم التحدث في أمور الدين نهائياً مع أي أحد.. وعدم المواظبة على الصلوات بالمسجد .. حتى صلاة الجمعة نصحني أن آتيها عند أذان الإقامة!

في صباح التاسع عشر من مارس عام ١٩٩١ وقفت في شرفة منزلي محتضناً بجسدي أشعة الشمس الملتوية عن البيوت الأنيقة حولي، أستنشق بعمق نسيم الصباح المنعش المكتسية لمسته نعمة من مسحه للوجوه النضرة القاطنة بمنطقتي ..

الشمس والهواء في مصر الجديدة يختلفان كثيراً عن إمبابة وأسيوط، وبالطبع عن ستراسبورج .. حتى زقزقة العصافير لها بهجة خاصة تخشع لسماعها القلوب .. على كل حال .. بعد انتهائي من تناول فطوري، اتصلت برفعت كما أمرني الأمير وتحدثت معه بالشفرة التي تدربت عليها بمعسكر أسيوط للقاءه ..

كان مكان لقائي برفعت غريباً لم أتوقعه .. فقد طلب مني الذهاب إلى إستاذ القاهرة الدولي وشراء تذكرة بالدرجة الأولى حيث مباراة الأهلي والزمالك .. وعندما أخبرته أنه بذلك سيستحيل عليه إيجادي وسط ذاك الزحام بالأخص أنه لا يعرف شكلي .. أخبرني أنه يعرف كل شيء عني بما في ذلك أدق ملامح وجهي الوسيم .. هكذا قالها لي وهو يضحك مازحاً إياي بالهاتف ..

وفي إستاذ القاهرة مر عليّ الوقت عصياً بالأخص أن الشوط الأول من المباراة قد انتهى ولم يظهر ذلك الرفعت الذي أخذت أسبه هامساً في نفسي وألعن الساعة التي اضطرتت فيها للتعامل معه .. وفجأة امتدت يد خفيفة إلى كتفي تستند عليّ وجلس صاحبها قربي يسألني مبتسماً:

- المباراة ملة .. أليس كذلك؟

لم أبادله الكلام واكتفيت بالتفرس في ملامح وجهه القمحية وشعره الأسود المنسدل على جانبي رأسه وعينيته العسليتين وأنفه الصغير .. بدا لي من منظره أنه مثل الشواذ الذين كنت أراهم في فرنسا بسبب ملامح وجهه الأنثوية وصوته الناعم وجسده الطري وكذلك إنباءاته المانعة ونبطاله الضيق ..

رفع يده من على كتفي حينما رأيّ أرقبه بنظرات متفحصة مرتابة .. فضم كفي يده بسرعة كأنه يصفق ثم أسند ذقنه عليها وأخبرني بصوت خفيض:

- أنا رفعت المحلاوي ..

لا أخفي عليك يا دكتور علي أنني ظلمت مصعوقاً مذهولاً لدقيقة كاملة بعدما

أخبرني اسمه .. فأنا أعرف رجال الجماعة جيداً، فهم غلاظ شداد أبعد ما يكونون عن التخنت ولو حاولوا لن يستطيعون .. ثم تحول الدهول داخلي إلى شك بأنه ليس تابعاً للجماعة بل هو عميل لأمن الدولة .. لكن سرعان ما ذاب ذاك الظن في صدري حينما رمقني بنظرة خبيثة غاصت في أعماق مخي وقلبي لتفتش بها عما أخفيه عنه .. ثم ابتسم في وجهي وهو يجذبني من يدي ويدعوني إلى الذهاب معه إلى الخارج .. وبعد أن فارقنا الأذان المصغية والتهافتات الزاعقة بالإستاد ابتدأ رفعت الحديث بيننا قائلاً بلطف:

- هذا اللقاء هو تعارفي فقط يا سليم .. أحببت أن نتقابل خارج إطار العمل حتى إذا كان هناك أمر ما يشغل بالك نصفه الآن كي تنفرغ لعملنا القادم ..

• • •

رفعت أدهم المحلاوي .. هو ابن لأحد أكبر العائلات الأرستقراطية بمصر وخريج كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة .. شاب في الثانية والثلاثين من عمره، قضى معظم حياته في التمتع بثناء والده حتى أفسده المال .. ففي الثامنة عشرة من عمره بدأ تعاطي المخدرات وشرب الخمر، لكنه لم يعاشر النساء بسبب عدم انجذابه لهن، فقد كانت بداخله بذرة شذوذ عكف على ردم نبتها الخبيث طيلة فترة دراسته بالمدرسة حينما كان يطالع زملاءه في الفصل بشهوة متأججة ثم يفض بصره عنهم حتى لا يفضح أمره وينكشف ستره .. لكنه عندما التحق بالجامعة وجد نفسه محاطاً بشباب كاملي الرجولة يافعين أثاروا رغبته التي ظل ينجبها أعواماً عن الجميع حتى تعرف على شاب يدعى أكمل عصام يدرس بكلية الألسن .. شاب ماجن لا يتورع عن فعل أي معصية من أجل لذته الشيطانية .. عنَّ له ممارسة اللواط مع رفعت فهي الرذيلة الوحيدة التي لم يقترفها بعد .. لكن الأمر كان مختلفاً مع رفعت فهو قد فعل ذلك عن حب وتعلق بأكمل .. لم تكن مرة واحدة التي مارسا فيها الفحشاء بينهما، بل في كل أسبوع كان الأمر يتكرر مرتين أو ثلاثة .. استغل

أكمل شغف رفعت به فابتزته للحصول على المال وإلا سينهي علاقتها ببعض ..
 وذلك كان هو الرعب الأكبر لرفعت الذي أيقن حينها أن عثوره على شاب مثل أكمل
 هو أمر نادر ببلد كمصر .. لذا رضخ للابتزاز بسبب عشقه لأكمل وحرصه على
 استمرار العلاقة الأئمة بينهما .. وفي يوم من الأيام هوى رأس رفعت على فاجعة
 أصابت صميم فؤاده بالوجع القاتل، حينما بلغه خبر انقلاب سيارة أكمل في طريق
 مصر الإسكندرية الزراعي بينما كان يقود سيارته مخدراً فإت بسبب ذلك الحادث ..
 ظل رفعت شهوراً طويلة لا يخرج من غرفته مداوماً على معاقرة الخمر والنحيب ..
 وإذا اقترب أحد والديه منه كي يسأله ما باله يزق في وجهه ويطرده من غرفته ..
 حاولوا معه عشرات المرات كي يشوه عما يفعله بنفسه لكنهم فشلوا .. فأشار عليهم
 أحد الخدم بالقصر بأن ولدهم ربما يكون قد أصابه مس شيطاني لذا لابد أن يجلبوا له
 شيخاً ما يتلو عليه القرآن .. فوافق الوالدان على ذلك بعد أن أخفقا بكل الوسائل
 معه .. وعندما جاء الشيخ سالم التركي بوجهه الملائكي البشوش ولحيته السوداء
 الكثة ودخل على رفعت .. رأى زجاجات البيرة الملقاة بكل ركن، ووجهه المترع
 بالمعصية، فظن لحاله لذا راح يتلو بصوت ناصح رخييم (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
 قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) فتكوم رفعت على سريره هيبة من تلك الكلمات وتأثراً بذلك
 الصوت، فألحقه الشيخ بآية أخرى (قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْظُوا أَيْنَ
 رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .. حينها أحس رفعت بأن
 روحه قد عادت إليه فارتمى باكياً في حضن الشيخ يحكى له كل شيء، وأنصت له
 الأخير دون إبداء أي غضب تجاه أفعاله السابقة أو نفور منه بل احتواه بحنان أبوي
 لطالما حُرِم منه رفعت، متفهماً ما يعانیه، ومساعداً إياه على تخطي محنته .. تحسنت حال
 رفعت كثيراً بزيارات الشيخ المتكررة، فتعلم دينه من عبادات وفقه وحافظ على تأدية
 الصلوات في أوقاتها، وداوم على إخراج الصدقات والصوم واستماع شرائط
 الكاسيت الدينية، والأهم من ذلك كله انتشاله من وحل الشذوذ .. فابتهج والداه
 بالتغيير الذي حدث لولدهما على الرغم من تحفظهما على تدينه المفرط، وأكرما الخادم

بمكافأة كبيرة لمشورته السديدة .. لكن الأقدار أبت على رفعت أن يهنا بالراحة النفسية مدة أطول من خمسة أشهر، حينما اعتقل الشيخ سالم بتهمة التحريض على قلب نظام الحكم وقُتل تحت وطأة التعذيب في سجون أمن الدولة .. حينها لم يعد رفعت للبكاء على الشيخ مثلما فعل مع أكمل .. بل أوقدت في قلبه نيران لا تعرف الانطفاء إلا بقتل كل ضباط الشرطة في مصر حتى آخر رجل فيهم، انتقاماً لما حدث لذلك الشيخ الطاهر الذي أعاد إلى قلبه الحياة .. وهكذا عرف طريق الجماعة وانضم إلينا ..

رفعت عقلية أمنية جبارة وداهية يُحشى من مكرها .. لا توكل إليه سوى المهام الكبيرة التي تحتاج إلى مثل حنكته .. كما أن له أقارب كثر يشغلون مناصب مهمة بالدولة لذا فهو يمتلك مصادر معلومات سخية دائماً ما أفادت الجماعة في أمور عديدة .. بالإضافة إلى أن اسم عائلته يحميه من أي شبهات قد تورده المهالك، لذا فهو من أهم المكاسب التي وقعت عليها أيدي الجماعة .. أما مظهره المخنث فهو تمويه على دوره بالجماعة حتى لا يشك به أحد .. وبالنسبة لحكايته، فلا أحد يعرفها سوى عدد قليل من الناس لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة، كنت واحداً منهم بحكم ما صارت إليه علاقتنا ببعضنا في أيامنا بخدمة الجماعة ..

• • •

كان المال الذي بحوزة عمر كافياً لتجهيز شقة عم والده اللواء كي تصبح أول صالة رقص للتانجو في مصر .. اضطر إلى توسيع الصالة، فضم إليها غرفة نوم من الثلاثة الموجودين حتى تصبح لديه مساحة أكبر .. وأضفت لمستة الفنية على الشقة سحر الجمال الأرجنتيني من خلال الزينة التي علقها بوسط الصالة، والنقوشات التي رسمها بنفسه على الحائط الموازي للحائط الآخر المغطى بالمرايا .. أما الجدار المواجه للباب في الطرف المقابل من الصالة فقد علق عليه عدداً من الصور الرومانسية الجميلة الملتقطة باللونين الأبيض والأسود لراقصي تانجو في أعلى توهج حسي بينهما، جلبها معه حينما ترك الأرجنتين ..

وهكذا انتهت عمر من إعداد كل شيء، ولم يتبقَ له سوى الحظ والتوفيق كي ينجح مشروعه ويجمع المال الذي يؤمنه شر المستقبل في أقصر وقت ممكن .. فأرسل لأعضاء النادي من النساء والرجال أكثر من مائة دعوة افتتاح مزركشة كتلك التي يرسلها الأثرياء لبعضهم في حفلات الزفاف وأعياد الميلاد ..

بالطبع لم يهتم الرجال بمشروع عمر الذي رأوا فيه فكرة سخيفة ودخيلة على مجتمعنا، في حين تبعه نساء كثر وأيدن فكرته من باب الفانتازيا أو ولعاً بحلم مراقبة ذاك الشاب الوسيم اللطيف وملامسة جسده .. فحصل عمر على اشتراكات شهرية من أولئك النسوة فاقت ما تصوره لمرحلته الأولى بالمشروع حتى إنه عزم على ضم الغرفة الثانية للصالة إذا ما زاد العدد على ذلك .. وقسّم اليوم إلى ثلاث حصص تدريبية، يحضر له فيها بكل حصة خمسة عشر شخصاً، ثلاثة أرباعهم من النساء اللواتي تتراوح أعمارهن ما بين الثلاثين والخمسين، يندربنهن الحسناوات الرشيقات اللواتي قد يلهين عقل عمر أو يفقدنه صوابه ..

• • •

انقطعت أخبار محمد عبد التواب عني منذ تخرجنا في معسكر أسبوط، فقد أوكلت إليّ مهمة من نوع خاص .. كما أنه بالتأكيد قد حُملَ بتعليقات ما هُيئَ إليّ أنها على الأرجح تشبه من سبقوه .. وهي الانتظار في بيته حتى يأمره الأمير أو أي أحد من الجماعة بالقيام بعملية ما ..

وفي يوم السابع من يونيو عام ١٩٩١، قدم إلى زيارتي رفعت على غير عادته دون ميعاد .. كان وجهه عبوساً وعيناه محمرتان عن آخرهما وهو يعصر بيده الرقيقة جريدة الأخبار لذلك اليوم .. فسألته مستفهماً عن حاله وكانت إجابته هي أن رفع الجريدة بيد خاتمة مناولاً إياها لي .. يطلب مني بصوت حائق خفيض:

- اقرأ صفحة الحوادث ..

فتحت على صفحة الحوادث، فوجدت عنواناً عريضاً في منتصف الصفحة يقول: (قتل بلطجي أطلق الرصاص على ضابط شرطة وحاول الفرار) .. وفي إطار الخبر صورة لمحمد وهو مغمض العينين تحلق على وجهه ابتسامة كالتى حدثني عنها أبي في رسالته الثانية عن صديقه سعد مشاري ..

كان الضابط هو الخسيس الذي اغتصب أخته وقتلها، والذي لا أعلم كيف عرف محمد بمكانه واسمه وخطط لاغتياله .. وفيما بدا أن الشيخ بركات قد صدق وعده، فتمنيت أن يبلغني قريباً بكيفية الانتقام من علاء مجدي الذي دمر مستقبلي أو أية أخبار عن والدي ..

لم يمت الضابط في وقتها مثل محمد، إنما ظل ينازع الموت في العناية المركزة بالقصر العيني أسبوعاً بأكمله، حتى وصل إليه عاشق الشرطة الأول رفعت المحلاوي بطريقة لا أعرفها، فأجهز عليه وهو يقول معزياً نفسه ..

- الآن تستطيع الاطمئنان في قبرك يا محمد .. هنيئاً لك الشهادة ورققة النبي ..

٢٠

أكثر ما كان يزعجني في حياتي الجديدة هو قيامي في الصباح يومياً واللف بالشوارع على قدمي بحجة البحث على عمل .. كانت تلك تعليمات الأمير وصدّق عليها رفعت موافقاً لثلاثي أشهر الشبهات والريبة في أمري .. أعود بعد ذلك إلى منزلي في الساعة الثانية ظهراً لأنام بضع ساعات، ثم أصحو لمتصف الليل أقرأ وأطالع كتب الكيمياء التي جلبتها معي من فرنسا وأركز تحديداً على ما يخص المتفجرات .. فتفتق خيالي عن بضعة أفكار جهنمية من خلال خلوقي العلمية وأنا أنتظر بفارغ الصبر أمر البدء كي أبهر الجميع بعقبرتي ..

في الأول من أكتوبر عام ١٩٩١، وفي الساعة السادسة مساءً تقريباً قُرع باب شقتي على غير العادة .. وهذا أمر لم أعتده بعد عودتي إلى منزلي اللهم إلا من رفعت الذي كان يتصل قبلها بساعة على الأقل كي يبلغني بقدومه ..

من طرفة الباب ظننت أنه أحد السكان المجاورين وجد غرضاً ما يخصني فأتاني ليعيده إليّ، أو أنه البقال قد نسيت دفع ثمن حاجياتي التي اشتريتها بالصباح فجاء يطالبني بالمال .. وبالطبع استبعدت احتمال أمن الدولة لأنهم لن يقرعوا الباب، بل سيخلعونه متفافرين بهمجيتهم .. كما لم أعتقد أنه أحدٌ من الجماعة وإلا قام رفعت بإبلاغي فهو لا ينسى احتياطاته الأمنية أبداً ..

نفضت تلك التساؤلات عن رأسي والتي بدأت الاعتياد على طرحها قبل القيام بأي خطوة منذ عودتي إلى شقتي، واهتمامي المفرط بأمني .. فاتجهت ناحية الباب،

أسير بتكاسل وأحك بنعلي بلاط الأرضية .. ثم سحبت مزلاجيه بترٍ وفتحته
ففوجئت بمن رأيت أمامي ..

- أيها النذل .. أخيراً وجدتك ..

كانت تلك الصيحة من فؤاد شعبان صديقي الذي عاش معي بستراسبورج ..
والذي حينما رأيته سرت في جسدي رعشة لذيدة اجتت كل الذكريات الحلوة من
أعماقي وهرولت بها في فرح بأرجاء قلبي .. يا الله إنه لم يتغير أبداً .. فهو مازال كما هو
محفظاً بوقاحته وشاربه الرفيع الذي لن يكبر أبداً ونظارته المضحكة .. لكن أناقته
بدت لافتة جداً!

• • •

عندما عاد فؤاد إلى مصر اتجه مع والده مباشرة إلى معبدهما المقدس الذي ظلا
يتعبدان به في أحلامهما لعشرين عاماً من الزمان .. سافرا إلى مبنى الأهرام بالقاهرة
كي يعين فؤاد بالجريدة كصحفي ويتحقق ما تمناه الوالد وولده ..

استنفر عم شعبان كل الوساطات التي حافظ على علاقاته بها طوال سنين عديدة
كان فيها الطرف الذليل ماسح الجوخ والذي تحمله بصدر رحب، حتى ما إذا ما
جاءت تلك اللحظة يجد من بين أولئك الوساطة التي توظف ابنه بالجريدة ..

ويشق الأنفس استطاع فؤاد العمل بجريدة الأهرام ولكن في وظيفة اعتبرها هو
وضيعة مقارنة بالمكانة التي يستحقها .. فقد تم تعيينه مراسلاً للقسم الرياضي
بمحافظة الغربية .. وعلى الرغم من وساطاته الكثيرة وشهادته الرفيعة التي لا
يمتلكها رئيس التحرير نفسه، فإنهم عينوه بتلك الوظيفة التي لن توصله إلى الوضع
الذي حلم به لنفسه ..

الوضع كان مغايراً مع الأب حيث سعد وجذل بتلك الوظيفة لولده .. فوزع
الشربات على كل زملائه وأهل منطقته، وكأن فؤاد قد تم تعيينه نائباً لرئيس التحرير!

.. لم يحاول الابن قتل تلك الفرحة في قلب والده ومثّل عليه دور الراضي السعيد، مع أنه كان يموت كمدأ بداخله .. كما لم يجد بُدّاً من الاجتهاد بوظيفته حتى لا يؤنبه رؤسائه بكلمة مستفزة وبالأخص أن جميعهم يغار منه بسبب شهادته .. وعلى الرغم من أن الرياضة أو كرة القدم هي شيء يبرع به فؤاد أكثر من أي صحفي آخر بمصر، فإنه لم يحب العمل بمجالها لأنه لن يوصله إلى المكانة التي تمنّاها طوال عمره، حينها كان يقرأ مقالات رؤساء التحرير وكبار الصحفيين بالأهرام ..

العمل كمراسل رياضي في محافظة الغربية هو عمل روتيني عمل يحمل ساعات فراغ ضعف دقائق العمل .. لذا فقد حصل فؤاد على وقت كافٍ للعن كل شيء، وعلى رأسهم حظه العاثر وتلك البلد التي لا تعترف بأي كفاءة .. فهو يمتلك إمكانيات وأفكار ستقلب العمل الصحفي بمصر للأبد، لكنه لم يحصل على الفرصة المناسبة أو التي يستطيع بها إبهار الآخرين بقدراته ..

ظل فؤاد مخلصاً لصداقتنا لا ينساني لا أنا ولا جوني ولا سونيا طيلة الوقت .. فهو يتصل بجوني وسونيا كلما جمع بعض المال .. ويمر على منزلي كل فترة منذ سبتمبر عام ١٩٩٠ لعلّي أفتح له الباب، لكنه لم يجديني ولا مرة بسبب الظروف التي حدثت لي ..

قبل ثمانية أشهر من لقائي به، أقيم حفل في مؤسسة الأهرام حضره لفيف من المسئولين بالحزب الوطني والحكومة المصرية إلى جانب مسئولى المؤسسة .. ووجهت دعوة إلى فؤاد بصفته أحد العاملين في الجريدة لحضور الحفل .. وكانت تلك الدعوة بمثابة القشة التي تعلق بها غريقنا بعدما ظل يعاني ملل وظيفته شهوراً طويلة، ممناً نفسه باستمالة مسئول ما لنقله إلى قسم أفضل من القسم الرياضي وهذا أقصى أحلامه ..

لكن القدر ابتسم لفؤاد حينما وجد أحد قادة الحزب الوطني يجلس وحيداً على جنب يتناول الحلوى من طبق ممتلئ عن آخره .. فحمل كوباً من عصير المانجو واقترب منه بوجه بشوش وخضوع منكسر، يعشق قادة الحزب رؤيته في عيون من حولهم، وسأله بصوت المتوسل المتسول أن يشرفه بقبول العصير منه، وهو يمد يده

بالكوب لذاك القيادي محني الظهر وعيناه مملكتان بالهبة لمكانة الرجل .. فتناول المسئول العصير من يد فؤاد وابتسم بغرور مستحسناً قرباين الهوان التي قدمها الواقف أمامه .. فانقض عليه صاحبنا مستغلاً تلك الابتسامة ليحدثه في أمره ..

- أريد أن أكلّمك يا سيدي في أمر يهمني .. وقلت في بالي والله، وبالله لن أحدث به أحداً إلا سعادتك، لما لك من تاريخ مشرف ناصع ساطع بالكفاح من أجل رفعة مصرنا والنهوض بأمّتنا والاهتمام بشبابنا .. فأنت علامة مضيئة في جبين هذا الوطن .. وأمثالك من العظماء يندر وجودهم في هذا العالم لأنك منه وهبتنا إياها السماء ..

فأشار له المسئول بكف يده داعياً إياه للدخول في الموضوع والكف عن إلقاء قصائد التملق التي يبدو أن رأسه أصيب بالصداع منها منذ دخوله الحفل .. فحكى له فؤاد نبذة قصيرة عن حياته، وأنشد معرباً عن مدى تأثره بمبادئ الحزب الوطني ورجاله .. ثم سأله متعجباً عما يحدث له ليجذب منه استككاراً عن وضعه بالجريدة، لعله بكلمة منه ينقله إلى أعلى عِلين .. لكن على النقيض من ذلك، أجابه المسئول بلا مبالاة وهو يلتهم قطعة الكنافة الكبيرة ..

- يجب أن تصعد الدرج من أوله .. كلنا بدأنا مثلك .. وإذا كنت جيداً فبال تأكيد ستصل إلى مرتبة أعلى ..

استاء فؤاد من رد المسئول، وتمنى لو استطاع الزعيق في وجهه وإخباره أنه لا مستقبل سياسي لعمله في القسم الرياضي .. لكنه تحكم في أعصابه وعزم على العودة إلى الحديث معه وهو شبه يائس ليحدثه عن مشروع حياته الذي خطط له طويلاً لعله ينال استحسانه فيتغير وضعه إلى الأبد ..

تنحج فؤاد ليشق بصوته ذاك الصمت بينهما، وأمال رأسه ناحية أذن المسئول كأنه يوشوشه فسأله بنبرة جادة:

- هل سمعت يا سيدي عن المعارضة العميلة؟

انفجر الرجل ضاحكاً واهتز لغده وكرشه المترهل، بينما ظل فؤاد يرقبه مغتاضاً، لا يفهم سر ضحكته .. ثم هداً المستول قليلاً من قهقهته المفرطة، وأخرج منديلاً من جيبه ليمسح ما تتأثر من طعام حول فمه، محرّكاً رأسه يمنة ويسرة من التعجب قبل أن يجيب فؤاد بنبرة ساخرة مغرورة:

- هل أنا سباك أم سياسي؟! .. وكيف لا أعرفها؟! .. عذراً على ضحكي فلهجتك الجادة الخافتة أوحى لي بأنك ستخبرني بسر القنبلة النووية ..

ثم أمال المستول رأسه قليلاً ناحية فؤاد مردفاً:

- بل وسأزيدك من الشرعيتا .. أو سرا، من أجل وجهك المضحك هذا .. نحن يا ولدي من ابتكرنا تلك اللعبة .. المعارضة العميلة ..

ابتلع فؤاد تلك الغطسة واستطرد قائلاً:

- كما أن هناك معارضة عميلة فإن هناك صحافة معارضة عميلة ..

فأنتبه المستول لغرابة المصطلح، وأوماً ساعماً لفؤاد بالاسترسال في شرح فكرته ..

- كما تعلم يا سيدي أن العالم مقبل الآن على صحافة حرة مطلقة وعالم مفتوح على بعضه، وهذا ما تراءى لي من خلال عيشي بفرنسا ثلاث سنوات .. لذا فإن ما نخفيه عن شعبنا منذ سنين طوال سيعرفونه، وما نجعلهم يسمعه أو يقرأونه في وسائلنا الإعلامية لن يقبلوا على الالتفات إليه بعد عشر سنوات من الآن، حينما تغزو تكنولوجيا الاتصالات والإعلام العالم .. وأنت تعلم يا سيدي قوة تأثير الإعلام على الناس، وبالأخص في دولة مثل مصر، حيث يلعب الإعلام دوراً رئيسياً في تحسين صورة المستولين مهما بلغ قبح أفعالهم، وتجميل شكل الوطن مهما بلغ انحداره وسوء أحواله .. لذا وجب عليكم كمستولين بالحزب أو بالحكومة إذا أردتم مواكبة العصر بطريقة تعزز مواقفكم وتحميها من عاصفة الإعلام القادمة والتي بكل تأكيد ستؤلب الشعب ضدكم مما قد يُحدث ما لا تحمد عقباه، أن تنفذوا الفكرة التي ابتكرها العبد

الله، ألا وهي الصحافة المعارضة العميلة .. فالأيام القادمة لن يكون بها مكان لتلك المقالات المضحكة التي يكتبها صحفيوكم في جمال الحكومة وإنجازاتها وحكمة الرئيس وفراسته .. كأنهم أحد شعراء البلاط الأموي المنقرضين منذ ألف عام ..
 انبهر المستول من صراحة فؤاد الصادمة، ودقت في قلبه نبضة شغف تحته على الاستماع لفكرته حتى آخرها .. فسأله بلهفة وقور:

- وماذا اقترح؟!

اعتدل فؤاد في جلسته، وسحب شهيقاً واسعاً، ثم وضع قدماً على قدم، لكن بالتأكيد ليست في وجه المستول .. وأجابه بثقة العالم ..

- عندنا مثل شعبي يقول: "كثرة الضغط تولد الانفجار" وهذا المثل يا سيدي يلخص ما سيحدث في مصر بعد عشرة أعوام إلى خمسة عشر عاماً إن لم نتصرف من الآن .. هناك دول كثيرة على خلاف مع حكومة مصر، وهناك دول أخرى تمقت مصر جملة وتفصيلاً .. وسيقوم أولئك بإبراز عيوب الحكومة وممارساتها الفاسدة بما سيوغر صدور الشعب ضدكم، كما أن المعارضين للنظام سيجدون فرصة مواتية للحديث والتعبير عن آرائهم من خلال تلك القنوات الإعلامية التي سيفتحها المعادون للنظام أمامهم .. ومع شظف العيش الذي يحيا فيه أغلب سكان هذا البلد ورؤيتهم أو استماعهم ليل نهار لتلك الرسائل الإعلامية الموجهة، قد ينقلبون على الحكومة، ومهما بلغت قسوة الشرطة فلن تستطيعون مواجهتهم .. ومن أجل امتصاص غضب الشعب والضغط الواقع عليه، جاءتني فكرة الصحافة المعارضة العميلة .. وهي تقوم على فكرة بسيطة لكنها مؤثرة وفعالة ..

- والتي هي؟!

- أن تنشئ الحكومة جرائد ومجلات أخرى من الباطن .. بحيث تصبح تلك الجرائد لها واجهة خاصة، لكنها في الأصل تابعة لكم .. وظيفة تلك الجرائد هي

مهاجمة الحكومة لكن في إطار معين، وبحدود معقولة بحيث لا تستثير الرأي العام أو تجعله يشك في عملاتها للنظام .. بالإضافة إلى أنها تعمل على ترسيخ حد أقصى للغضب في نفوس الشعب يتدربون على عدم تجاوزه .. أما في المواقف السياسية المصيرية الكبرى فتتحد بمقالاتها مع مقالات الجرائد الحكومية خلف الرئيس في وحدة وطنية تأصل عند القارئ فكرة واحدة، ألا وهي أن تلك الحكومة هي الوطن والوطن دونها يضيع ..

حك المستول خده بظاھر یدہ يفكر بعمق في كلام فؤاد، ثم سأله مستفهماً أو طالباً للاستزادة في معرفة جوانب الفكرة بشكل أكبر ..

- كيف ستهاجم الحكومة وفي نفس الوقت لا تهيج الرأي العام ضدها؟!

- هذه لعبتي .. بالإضافة إلى أنكم ستسألونني بالمعلومات ..

- ها ها ها .. هل ستمدك بالمعلومات كي تهاجمنا ..

زم فؤاد شفتيه من غباء الرجل .. فرد عليه ممتعضاً:

- بالتأكيد هناك أشخاص مغضوب عليهم داخل الحزب، أو هناك أشخاص ظنوا أنهم يفوقون حجمهم ويحتاجون إلى التأديب .. وهذا هو دوري .. بالإضافة إلى أنه حينما سأهاجم وزارة ما، فلن أهاجم وزيرها بل سأهاجم وكيلاً أو موظفاً كبيراً بها رامياً الكرة في ملعب الوزير، الذي سيهر الشعب بشرفه ونزاهته .. لا تقلق يا سيدي فهي لعبة أستطيع التحكم بها بشكل يفوق تصورك .. فلا تشغل بالك بتلك الأمور الفنية ..

عقد المستول حاجبيه وأشعل سيجاره الكوبي النفيس نافثاً دخانه عالياً قبل أن يرد عليه معلناً انتهاء الجلسة ..

- اترك رقم هاتفك وعنوانك مع ذاك الرجل، وسأرد عليك بعد أن أتناقش مع رفاقي بالحزب حول آرائك ..

ثم نهض من مكانه عازماً على المغادرة، فقفز فؤاد من مكانه وأمسك بقلم وورقة صغيرة كانا بجيبه فكتب ما طلبه منه المسئول قبل أن يتوقف الأخير سائلاً:

- هل لديك عضوية بالحزب .. يا .. ؟

- فؤاد يا معالي الباشا .. اسمي فؤاد شعبان .. وليس لي للأسف عضوية بالحزب ..

- غداً ستجد عضويتك جاهزة لتسلمها من هنا .. عقلك جدير بالاحترام ونحتاج أمثالك إلى جوارنا ..

- شكراً يا معالي الباشا .. إشادتكم وسام على صدري ..

وبعد ذاك اللقاء بأسبوعين، جاء بضعة أشخاص إلى فؤاد ليصطحبوه من طنطا، كي يقابل ذاك المسئول الذي أبلغه بالموافقة على فكرته، وأعطاه كل شيء يحتاجه ليبدأ عمله كرئيس لتحرير تلك الصحيفة التي أسماها "مصر وطني" .. بالطبع كاد قلب فؤاد يتوقف من الفرحه بشغله ذاك المنصب، وهو في تلك السن الصغيرة .. لكن والده لم يفرح له، فهو يرى أن أي رئيس تحرير لأي جريدة بالعالم لا يساوي قيمة مراسل رياضي في صحيفة الأهرام!

وبعد ثلاثة أشهر، صدر العدد الأول من الجريدة ولاقت إقبالاً هائلاً من المصريين الذين ولأول مرة يقرؤون فيها كلاماً يسم بدن الحكومة ويتحدث بلسانهم .. كما حققت الجريدة هدف الحكومة في وجود مساحة للمعارضة داخل الحياة المصرية تكون تحت سيطرتهم وتحرك وفق رغباتهم ..

• • •

قديماً كنت أحتقر بعض تصرفات فؤاد، لكنني لم أكرهه بل كنت أحبه وأعذره .. أما بعد أن حكى لي قصته، فقد احتقرته بشدة وكرهت الساعة التي عرفته بها .. الهذه الدرجة قد يكون الإنسان خائناً ووضيعاً من أجل مال أو سلطة؟! .. لم أفصح له عن رأيي فيما قام به ومثلت عليه دور المتفهم كي أجنب نفسي جдалاً عن الفضائل الوهمية

التي يصدع رؤوسنا بها كتبة الحكومة..

سألني عن حالي، ولم عدت من فرنسا قبل إكمال دراساتي العليا، فأخبرته عن سر عودتي وعن اعتقالي وعدم شغلي لأي وظيفة حتى الآن بسبب الدواعي الأمنية، ولم أحدثه فيما عدا ذلك .. اندهش فؤاد من حكاية سفر والدي إلى أفغانستان حيث لم أخبره بها من قبل فعذلني بهون ولم يقسو عليّ بحجة أن الصديق لا يجب عليه إخفاء شيء عن صديقه .. فسخرت منه في بالي قائلاً: تضلل ستين مليوناً تخفياً عنهم حقيقة وطنهم وتعاتبني على سر صغير بحجة الصداقة .. كم أنت أفاق!

صمت مدعيًا الأسف على حالي ثم أخبرني مُطمئناً:

- سأحاول إزالة ملفك الأمني، لكن يجب أن تعمل حتى ننتهي من تلك المشكلة .. فالمال الذي تركه لك والدك لن يستمر إلى الأبد ..

- كيف سأعمل يا فؤاد وكلما تقدمت لطلب وظيفة في أي شركة أو قطاع حكومي رفضوا طلبي بحجة ملفي الأمني ..

- ما رأيك أن تعمل معي؟

- وماذا أعمل معك؟! .. هل تحللون المقالات كيميائياً قبل نزولها!

- ها ها ها .. جدياً أنا أحتاج إلى من يتقن اللغة الفرنسية لترجمة الأخبار والمقالات الأجنبية ..

- ولم لا تقوم أنت بذلك؟! .. هل نسيت الفرنسية بعد مضي عام ونصف لك في مصر؟! ..

كانت لهجة إجاباتي عليه لازعة لأنني أحسست بالشفقة في كلامه .. وآخر ما أود رؤيته في أعين الناس هو الشفقة عليّ كأني شحاذ على باب مسجد .. فأحس بذلك وهو يخبرني:

- أنا بالفعل أحتاجك .. فأنت الوحيد الذي أستطيع الوثوق في لغته الفرنسية أكثر من فولتير نفسه، كما أن أعباء رئاسة التحرير كثيرة ولا وقت لدي للترجمة أو غيرها ..

- دعني أفكر وسأرد عليك ..

- حسناً يا سليم .. فكر كما تريد لكن اعلم أن الجريدة ترحب بك في أي وقت تريده ..

غَيَّرَ فؤاد دفة الحوار وانتقل إلى الحديث عن ذكرياتنا بفرنسا وحينه لأيامنا الخوالي .. وبالطبع لم تخلُ كلماته من البذاءات والضحكات الفجة كعاداته .. مكث معي حتى منتصف الليل ثم ودعني على وعد منه بزيارتي بين الحين والآخر، مشدداً عليّ في طلبه بقبول العمل لديه كأنه يرجوني ..

• • •

لم تمر سوى نصف ساعة على مغادرة فؤاد لمتزلي .. كنت ساعتها قد ألقيت جسدي على السرير محاولاً النوم .. لكن فجأة قُرع جرس الباب ولم يكف عن رنينه المزعج وكأن من وقف وراءه حاول شدي من السرير وجري إليه .. اعتقدت أنه فؤاد وقد نسي شيئاً ما في منزلي وعاد لاستعادته، لكن فؤاد ليس بتلك الوقاحة كي يظل واضعاً إصبعه على زر الجرس ولا يرفعه! .. وعندما فتحت الباب شاهدت رفعت واقفاً عنده يمدجني بنظراته المستريبة ثم دخل إلى البيت دون إلقاء التحية وطلب مني بهدوء إغلاق الباب خلفه ..

- ما الذي كان يفعله فؤاد شعبان هنا؟!

هذا ما سألني إياه بصرامة وجدة .. حقيقة .. فاجأنتني معرفة رفعت بوجود فؤاد في منزلي .. وسألت نفسي مندهشاً: أهذه الدرجة يحاصرني كالهواء الذي أتنفسه؟! .. فأجبتته متوتراً:

- إنه صديق قديم .. جاء لزيارتي واستذكّار الماضي ..

- فقط؟!

- كيف عرفت بوجوده عندي .. هل تراقبني حتى بالليل؟!

- هل تعتقد أنني ألعب يا سليم في تأمينك؟! .. أخبرني أولاً كيف عرفت فؤاد

شعبان وكيف وصل إليك هنا؟!

على الرغم من أنني قد قصصت قبلاً حكايتي كلها على الأمير من الألف للياء، فقد اضطرت أمام نظرات رفعت لقصصها منذ البداية، بينما هو جالس أمامي يتفرس في وجهي، مطارداً بعينه وأذنيه أي شيء مثير للشك في كلامي .. ثم ختمت كلامي داعياً إياه لسؤال الأمير ليتأكد من صحة قصتي .. فابتسم إليّ معتذراً عن قدومه في مثل ذاك الوقت، وعن حدثه في استجابي لكنه فعل ذلك لأنه يخشى عليّ ثم استطرده سائلاً:

- هل تعرف عمل فؤاد الآن؟

- أخبرني أنه يرأس تحرير صحيفة معارضة تُدعى "مصر وطني"

- معارضة! .. ها ها ها .. إنه من أكبر كلاب الحكومة الضالين ..

- وكيف عرفت بشأنه؟!

- هي مسألة لا تحتاج إلى التفصي .. فشاب مثله قفز من مراسل رياضي صغير بجريدة الأهرام، إلى رئاسة تحرير جريدة معارضة وهو في تلك السن الصغيرة، يستقد الحكومة ليل نهار ولا يمسه أحد بسوء .. فهل يحتاج ذلك إلى محلل عبقرى كي يخبرك أنه مجرد مدعٍ أفاق؟!

هكذا وكعادته دائماً، يبهرني رفعت بذكائه وفطنته .. فعرفت ساعتها لم يוכלون إليه المهام الخطيرة .. فهذا العقل يفكر بمنهجية وترتيب فطري لا يخطئ .. أخبرته عما

عرضه عليّ فؤاد.. وعلى عكس رفضه القاطع المتوقع، طلب مني رفعت مهلة للتفكير واستشارة الإخوة بالجامعة..

• • •

بديهيّة وتلقائيّة أدرك القائمون على الجامعة أهمية عملي بالجريدة، بغض النظر عن وجوب حصولي على عمل في أسرع وقت بأي مكان، لثلا تأثير الشبهات حولي .. إنها فرصة عظيمة جاءتهم على طبق من ذهب لذا وافقوا عليها دون تردد ..

عملي بجريدة "مصر وطني" فتح لي أبواباً على عالم من الأسرار والخبائبا التي أفادت الجامعة كثيراً .. فبحكم وظيفتي وعلاقتي المتينة مع فؤاد، استطعت الحصول على معلومات في غاية الخطورة عن تحركات المسؤولين وقادة النظام بالإضافة إلى بعض الأسرار المهمة عن علاقاتهم الخاصة وأين يقضون لياليهم الحمراء .. كل هذا تهادى أمامي كي توظفه الجامعة كما تريد .. فأضحي القيام بعملياتنا في غاية السهولة بعد شغلي وظيفه المترجم بصحيفة فؤاد ..

عمل الترجمة لم يكن مملأً أو مرهقاً والراتب الذي منحني إياه فؤاد كان كافياً جداً لحياة هانئة .. أما الطريقة التي عوملت به سواء من فؤاد أو من العاملين بالجريدة، فكانت في منتهى الاحترام والتبجيل وهذا استثناء حصلت عليه بتوجيهات من صديقي الطنطاوي .. لكن المال والتبجيل لم يكونا هدفي من العمل عند فؤاد، بل جلب المعلومات وتوظيفها لخدمة الجامعة بالإضافة إلى غطاء ممتاز يعمي عيون أمن الدولة عني ..

مع مرور الوقت اكتشف فؤاد فيّ ميزة لم أرها من قبل .. وهي قدرتي على كتابة المقالات الصحفية .. وهذا ما لاحظته من خلال تعليقاتي على الأخبار المترجمة والتي كنت أكتبها بأسلوب أدبي راق .. فطلب مني كتابة مقال كل أسبوع بالإضافة إلى عمل الترجمة أعلق فيه على سياسات الدول الخارجية وتأثير ذلك على مصر .. بالطبع أخذت وقتاً طويلاً كي أنقن صياغة المقال بطريقة لا تغضب الحكومة المصرية، أو

تقلل من شأنها، وفي نفس الوقت ترسخ مفهوم المؤامرة لدى القارئ على أن بلدنا مستهدفة من كل العالم، ولولا حكمة الرئيس وحكومته لانقرض الشعب المصري منذ عقود .. وبالطبع لا يوجد مانع من انتقاد سفير ما في أي دولة نكرة، كي نحافظ على مصداقية الجريدة كصحيفة معارضة .. على كل حال كان جريان أموري بالجريدة يبشر بيزوغ نجم صحفي من طراز فريد اسمه سليم باهر الشافلي .. وهذا ما لم أسع له أو أهتم به .. لكنني لم أرفضه .. فمن منا يستطيع رفض تبجيل الآخرين ونيل عبارات الشناء منهم؟!

٢١

الثالث من يناير عام ١٩٩٢ .. إنه ذاك اليوم ذو البرودة الهابطة والنسيم الثلجي .. اليوم الذي أتاني في صباحه صوت تحرك خلسة من بين أطراف المسافات وضجيج الكون حتى وصل إلى رأسي العائمة في محيط النوم فتسلل إلى أذني وأرسي حموله داخل عقلي .. تحكم بأحلامي وطوقها بتيجان البهجة الأبدية .. فتشكلت بخيالي رؤيا ساحرة احتضنت فيها إيزابيلا وراقصتها رقصة صفق من كمالها ضيوف حلمي وهم يتأودون طرباً واستمتاعاً بالنغم .. لم أكن أقرب خطواتي أو أنتبه للأرض من حولي، بل كانت عيناى ملتصقتين بعينيّ إيزابيلا، أقبل شفتيها بشغف ونهم، بينما يداعب وجهي شعرها المنسدل وهو يتطاير بشقاوة وعفوية يمنة ويسرة في حركاتها الرشيقة ..

وكأي شيء جميل بالدنيا لا يستمر بقاءه طويلاً .. راحت تلك الموسيقى التي صدحت في أذني بذاك الصباح يخفت صوته .. فأخذت تتلاشى صورة إيزابيلا بين أمواج العدم وأنا ألثت وراء طيفها أرجوها عدم البعد .. حتى غاصت تماماً في صفحة بيضاء لا ظلال فيها هي ومن حضروا برفقتها .. فصرخت صرخة عالية منادياً باسمها، وفتحت عيني من قوتها على شباك الغرفة الذي نسيته مفتوحاً بآخر الغرفة قابلاً بخشوع في سكون الصباح تحت السماء الغائمة ..

حتى بعد استيقاظي، ظللت لدقيقة أو دقيقتين أردد منادياً بصوتي المتحشرج الخفيض اسم إيزابيلا .. ثم استغفرت ربي من ذاك الحلم الشيطاني الذي حرك شهوتي جنباً إلى جنب مع مشاعري .. وبينما أرتب فراشي مغمماً بأذكار الصباح،

سمعت صوت موسيقى مشابهة لتلك التي حلقت برأسي وأنا نائم قبل صحتي ..
فهتفت هامساً بعفوية:

- إيزابيلا ..

لم أنحكم بنفسي حينما جثوت على سريري أنصت بذهول لموسيقى التانجو القادمة
من النافذة وأحدد اتجاهها بمجسات أحاسيسي .. كم كانت خلابة كعهدي بها ..
رقيقة وهي تجذبني إلى عالمها المكتظ بالمشاعر الفياضة .. ألفتني طريحاً في عذوبتها
وسبحت بي فوق نهر الذكريات الشفاف لأرى وجه حبي المفقود إيزابيلا .. المرأة
التي عرفت في حضنها سر الحب وسطوته .. عذاب الفراق وآلامه .. من عاهدتها
على العشق الأبدي فتركتني وحيداً أواجه ضربات الوجد .. إنها موسيقى الحياة
ورقصة القلب .. التانجو ..

• • •

لم أفق من غيوتي إلا على غيبوبة أشد استلاباً للعقل وأنا أسير مسحوراً بالرواق
الممتد خارج شقتي ناحية صوت الموسيقى القادم من الشقة المقابلة .. لا أعرف ماذا
أقول أو ماذا أفعل، كل همي هو تتبع الصوت والاقتراب من محيطه .. لم تر عينا
سوى إيزابيلا وهي تختال أمامي وترميني بابتساماتها الخابلة .. كأنها تأمرني بالمضي
وراءها حتى ولو إلى نهايات الكون الذي لا نهاية له ..

وقفت أمام باب الشقة المقابلة كتلميذ خائب يرجو تعطف أستاذه عليه .. لا
أكف عن التلفت حولي ترحجاً .. ثم طرقت الباب بدفعة من كفي استسلمت لها
قبضة يدي .. وانتظرت المجهول ليستقبلني .. لا أخفي عليك يا دكتور علي أنه قد
راودتني أمان ساذجة بأن تفتح لي إيزابيلا الباب وتفاجئني بحضورها إلى مصر من
أجلي، فتعيدني إلى عالمها وأترك الدنيا من أجلها .. لكن تلك الأمان كانت تذوب إلى
رواسب عقلي مدركاً بأن ما أفكر فيه هو هذيان حالم لا أمل له .. ومع اقتراب

خطوات صاحب الشقة المقابلة اضطرب نبض قلبي وعملت مكانن الفكر في رأسي حتى أجد سبباً ملائماً أبرر به للقادم سر طريقي على بابه .. لكن الزمن لم يمهلني الوقت الكافي حين فتح لي الباب ذاك الشاب الوسيم ذو البسمة الرائقة السمحة، وراح يتأمل وجهي المتوتر منتظراً فتح فمي بأي شيء .. فبادرني قائلاً بعدوية:

- صباح الخير ..

لم أجد ما أقوله .. فازداد احمرار وجهي الحجل من حالي، أخطب نفسي قائلاً: تباً لحماقتي .. هل سأخبره أنني طرقت بابك من أجل سماع الأغنية التي تشغلها؟ .. وماذا لو علم رفعت أنني فعلت ذلك؟ .. أو يا إلهي .. أي غباء قادني إلى هنا؟!

- صباح الخير ..

هكذا كرّر عليّ تحيته مرة أخرى عاقداً حاجبيه بلطف متعجباً من حالي .. فلم اعد أدري ماذا أصنع .. لكنني حرّكت لساني راداً عليه التحية حتى لا يظن أنني مخبول بعد ما أتيت به بوجه لا يوحى إلا بالجنون:

- صباح النور ..

وقف منتظراً مفاتيحه في سبب طريقي على باب بيته لكنني وقفت صامتاً بضع ثوانٍ قبل أن يلهمني عقلي بشيء أقوله .. فاندفعت مرتبكاً بحدِيثي قائلاً:

- أنا سليم جارك بالشقة المقابلة ..

- أهلاً وسهلاً .. تفضل ..

دلفت إلى داخل الشقة بمشية متمهلة، فأجهز ما رأيته على النزر الباقي من عقلي .. وقفت مشدوهاً وسط الصالة التي لم أر مثلاً إلا حينما شاهدت إيزابيلا لأول مرة .. فأغمضت عيني واستنشقت عبير المكان .. ترنحت روحي بين ضلوعي وراح قلبي يشب في صدري محاولاً الفرار منه قبل أن تقضي عليه انتفاضات مشاعري

وتأجج شوقي لمعشوقتي الأرجنتينية الفاتنة .. وبعد أن تركني أبحر في خيالي وقتاً
قطع خلوتي حينما أخبرني بتهذب:

- أنا اسمي عمر .. عمر رمزي ..

مرة أخرى شعرت بالحرج من نفسي بتصرفاتي الحمقاء البلهاء .. لكن عذوبة
ابتسامته امتصت ما بداخلي من توتر حتى سكنت نفسي تماماً وسألته بهدوء:

- هل تسمع موسيقى التانجو؟!

- أنا أدرب رقص التانجو ..

- حقاً؟!

هكذا صحت سائلاً باندعاش في وجهه، لكنه بدا متفهماً لاستغرابي فأجابني
قائلاً:

- نعم .. أعلم أنها فكرة غريبة على مصر .. لكنها تلاقي قبولاً جيداً لدى البعض ..

- وأين تعلمتها؟

- في رحلها ..

- هل تقصد؟!

- نعم .. الأرجنتين ..

لولا الدهول الذي أقعدني لكنت قبلت خديه .. هذا ما شعرت به حينما أخبرني
عن الأرجنتين .. رغبت في احتضانه وضمه إلى صدري لأنه يحمل رائحة إيزابيلا بين
كتفيه .. وظننت أنه يعرفها أو يعرف مكانها .. فسألته مرتبكاً:

- هل كنت تعيش هناك؟

- نعم .. فقد ولدت بالأرجنتين وعشت بها طوال عمري ..

- هل شاركت بمسابقات لرقص التانجو؟
الحقيقة .. لا .. لم أشارك ..
- هل تعرف إيزابيلا كارلوس فيرون .. إنها راقصة تانجو شهيرة؟
زم شفتيه كأنها يستدعي ذكرياته من قعر خه ثم أجنبي آسفاً:
- الأرجنتين مليئة براقصات التانجو ومن الصعب إحصاء أسبائهن ..
واستطرد مستفهاً:
- يبدو أنك مهتم برقصة التانجو!
فرددت عليه بولع يتراقص على أوتار صوتي:
- بل أعشقها ..
- أمسك يدي بابتهاج .. يبلغني مبتسماً:
- إذن أنت مدعو لحضور حصة مجاناً، فإذا أعجبك الأمر تستطيع الاشتراك
بسعر مخفض لأنك جاري ..
- انترعنتي دعوته الرقيقة من أعماق خيالاتي السارحة فانتبهت لوضعي ومكانتي
وظروفي الصارمة الذين يُحرّمون عليّ ما يدعوني إليه .. فأجبت بتردد:
- قد لا أستطيع أن
- لكنه قاطعني بحزم:
- الحصة الأولى سوف تبدأ بعد نصف ساعة .. احضرها معنا وقرر بعد ذلك ..
هيا لا تتردد ..
- لم أستطع مقاومة إلحاحه، فاتصلت بفؤاد بالجريدة وادعيت له مرضي الشديد كي

يمنحني إجازة لآخر اليوم .. لم يوافق فؤاد على منحي الإجازة فحسب، وإنما أصر أيضاً على الإتيان إلى بيتي والاطمئنان بنفسه عليّ، لكنني صمدت أمام إصراره فمنعته من القدوم .. ثم انتظرت بشغف توافد المتدربين على الرقص متذكراً أيامي الجميلة مع إيزابيلا .. وبعد اكتمال العدد وقف عمر وسط المتدربين يخبرهم بمرح:

- معنا الآن ضيف جديد .. أرجو أن ترحبوا به جميعاً في أسرتنا الصغيرة ..

فصفق الجميع وسلموا عليّ واحداً واحداً ببشاشة افتقدتها لزمّن ليس باليسير .. ثم طلب عمر من الجميع اختيار الشريك المناسب للرقص معه، فتهاقنت نحوي أربع نساء تخرجت ثلاث منهن من شكل الموقف، واكتفين بمتابعة الرابعة وهي تكمل طريقها نحوي دون تراجع .. وبعدها شُغلت الموسيقى الساحرة التي كلما سمعتها انتشلتني بعذوبتها من تزامم أفكار المسموم إلى فضاء واسع لا ترى فيه عيناى سوى ما أحببت .. لم أدر شيئاً عما يحول حولي حينما رقصت على أنغام الموسيقى كما علمتني الماهرة إيزابيلا في ليالينا الجميلة بستراسبورج .. فرحت أجوب برشاقة تلك المواضيع وألف بينها بخفة مثلما كنت أفعل وأنا محتضن للمرأة الوحيدة التي أحبها قلبي حتى توقفت الموسيقى .. فانتزعت عيني من وجه شريكتي والتفت حولي فشاهدت الجميع يقفون مبهورين فاغري الأفواه قبل أن يلحقوا دهشتهم تلك بصفقات حارة أتى من خلفها صفير إعجاب عال ..

- يبدو أني وجدت مُعلماً لكم أفضل مني ..

هذا ما صاح به عمر للجميع، وأنا أستدير إلى المرأة التي كانت تراقصني فرأيتها ترمقني بإعجاب ووله، وتتففس بسرعة أقرب للهاث، كأنها خارجة من نوبة حب هائجة أشبعت كل رغباتها الجسدية وشوقتها للمزيد ..

بعد انتهاء الحصة ومغادرة المتدربين أجلسني عمر إلى جانبه مبهوراً بي، سعيداً بمقابلتي وكأنه عانى من وحدة مريرة في صحراء الحياة حتى وجدني .. حكى لي كل شيء عن حياته ولم يحمل أي تفصيلة صغيرة .. كما ألح عليّ للاشتراك بحصصه

الراقصة ولو مجاناً .. فوجودي معه سيجذب المزيد من الزبائن، وقد يحتاج حينها إلى تأجير قاعة كبيرة مثل أفخم قاعات الرقص ببيونس آيريس ..

لم أستطع رفض طلبه، فرقص التانجو بالنسبة لي هو الشيء الوحيد الذي يشعرني بكياني وينشئ فيه أجمل ما بداخلي .. كما لم أستطع القبول حينما تذكرت الجماعة وما قد يفعلونه بي إذا علموا بسري الصغير المخجل .. لذا علقت الإجابة عليه، واستأذنته للمغادرة على وعد مني بزيارته مرة أخرى والتفكير جدياً بعرضه ..

في السابعة مساءً اتصل بي رفعت يسألني عن سبب عدم ذهابي إلى الجريدة فأخبرته أنني مريض بعض الشيء، لكنه كعادته المستريية من كل شيء أصر على المجيء إلي .. وحينما جلس أمامي لمح بوجهي سراً يود المطول على طرف لساني، لكنه لم يسألني عنه وظل يحدق بوجهي منتظراً إخباره بنفسه .. وكان له ما أراد فحكيت له عن تعرفي بجاري الجديد ومكوئي عنده فترة الصباح، لكنني كذبت عليه حينما أخبرته أنني قد اضطررت إلى الرقص عنده ولم أرفض لكلاً يشك أحد في أمري .. فنهض من جواربي وأدار لي ظهره ثم قال لي يهدوء وخبت:

- أحسنت صنعاً بتعرفك على ذاك الكافر .. فهو غطاء جيد لك ..

- تهللت سعادة من إجابته فقفز لساني بسؤاله:

- إذن أنت لست متزجراً عما فعلت؟!

- بالطبع لا .. كي نصل إلى مبتغانا يا سليم يجب علينا التخفي بعناية وسط أولئك الكفار .. فهم أقوى منا وأكثر عدداً .. والحرب خدعة ..

- نعم .. معك حق .. هذا ما كنت أفكر به وأنا في شقته ..

نظر إلي وقال مشاكساً:

- قد آتي معك في مرة إلى تلك الصالة حتى أتأكد من إتقانك لدور الزندقة ..

- ها ها ها .. قد يذبحنا الأمير إذا علم بأمرنا ..

- وهل تظن الأمير لا يعرف بكل خطواتنا؟! .. الأهم يا سليم أن يكون قلبك عامراً بالإيمان ولا تسمح له أبداً بأن يتخلله حب الدنيا وشهواتها فتهلك بغضب الله .. الأيام القادمة ستشهد صدق ما نذرت له نفسك .. فاستعد لها واستعن بالقوي الناصر جل في علاه ..

٢٢

منتصف مايو عام ١٩٩٢ .. إنه اليوم الذي فُتحت فيه أبواب الجحيم الشاهقة على بلد الأمن والأمان .. وافترشت أجنحة شياطينها السوداء المشوهة سماءها الصيفية الصافية .. وعقد فيه قران شروري على شرور الكون فتمخض من زواجهما الآثم الويل والشبور لكل من تنفس حولي .. إنه اليوم الذي بدأت تسطر فيه أسطورة سليم باهر الشاذلي في صفحات الخراب ولغائف الدمار بمداد أحمر قاني لا يجف مصدره مادامت أنفاسي الحارة تتلاحق وخطواتي الخطرة تمضي بغبي في سيبلها الضال ..

في ذاك اليوم كنت على موعد مع خطيئتي التي لن تغتفر والذنب الذي لن تمحقه توبة حينما جاءني رفعت طالباً مني بحماسة تحديد قائمة بالمواد المطلوبة لصنع قنبلة موقوتة سوف يتم استخدامها ضد الكفار .. فأعطيته قائمة الهلاك وأتاني بمحتوياتها بعد يومين .. ثم عاد إليّ بعد مثلهما، لأسلمه جسماً صغيراً لا يتجاوز حجمه حجم الهاتف المنزلي الضئيل، لكنه قادر على قتل العشرات ممن لا ذنب لهم في هذه الحياة إلا أنهم قد وقعوا أسرى تحت مجرى بركاني الفائر الذي لا يعرف إلا شيتين بالحياة لا ثالث لهما .. الكراهية والغضب ..

وبعد ذاك اليوم بأسبوعين، حصلت ثلاثة تفجيرات اهتزت لها أرجاء القاهرة في نفس الوقت .. أولها كان بمدرسة للإعدادية في المطرية، والثاني بمقهى في التحرير، والثالث بمحطة حافلات حكومية في شبرا .. لم أعلم أي تلك التفجيرات كنت صاحبها .. فالثلاثة قد انتهوا بنفس البشاعة إلى أشلاء مشورة، ودم مراق بالشوارع،

وأفواه لم تطلق صرختها قبل لقاء ملك الموت، وغبار عاتٍ عائق بقامته العالية وجه السماء الباكي ..

شعرت بمرارة كبيرة حينما شاهدت جثث الأطفال الأبرياء الذين لم يبلغوا الحلم يُصنع بهم ذاك الصنيع الوحشي الممجي .. تمنيت أن تكون قبيلتي هي التي انفجرت بالمقهى أو بمحطة الحافلات لا التي سفكت دماء أولئك الأطفال .. لكنني كنت على يقين لا أعرف سببه بأني صاحب قبلة المدرسة على الرغم من تأكيدات رفعت لي لاحقاً بأنه لا علاقة لي بمأساة المدرسة وأن ما حدث خطأ لن يتكرر وقد عوقب من اقترفه بحد القتل عقاباً على فعلته الغبية ..

• • •

بعد ذاك العمل الجنوني لم أكف بالنقاش المحتد الذي دار بيني وبين رفعت حول فظاعة ما حدث، فطلبت لقاء الأمير بصفة عاجلة .. لكن رفعت فاجأني حينما أعلمني بأن مكائتي الآن بالجماعة تفوق مكانة الأمير .. فانا أتلقى تعليماتي مباشرة من ولي الأمر الذي يحكم الجماعة من أسوان إلى الإسكندرية، وتلك المكانة لا يختص بها إلا أمراء الحرب كما يسموهم ممن هم على شاكلة أميري السابق وبعض المقرين أمثالي ..

وكان لي ما أردت حينما اصطحبني رفعت إلى المقطم لمقابلة ولي الأمر، والذي جثناه إلى فيلا جميلة من دورين، تطل على حمام سباحة صغير، وتسيجها الزهور المنسقة وأعمدة الإنارة القصيرة واهنة الإضاءة .. دخلت وحدي إلى غرفة مكتبه الفاخرة المطعمة في جوانبها بتحف ولوحات فنية بديعة، وفي منتصف جدارها الأيمن موقد للتدفئة بالشتاء أمامه كرسيان هزازان كبيران، أما مقدمة الغرفة فتطل على حمام السباحة مباشرة، بواجهتها الزجاجية المغبشة الكائن تحتها مكتب عريض يتصفه من ناحية الواجهة الزجاجية كرسي فخيم، وعلى الطرف الآخر كرسيان من الجلد المريح، جلست على أحدهما أتأمل في ذاك الذوق الفني الأخاذ وكأن صاحب تلك الفيلا هو أحد نحاتي روما القديمة!

وفي وسط دهشتي التي استمرت لربع الساعة تقريباً، قطع عليّ هدوئي ديب
قدمين على الأرض لرجل في أواسط العقد الخامس من عمره، بدت على وجهه
الحليق النعمة وفي بنيته المكسوة ببذلة أنيقة هيبة أجبرتني على النهوض تبجيلاً له،
فمد يده نحوي، يخبرني بصوت رقيق:

- أعتذر عن التأخير يا سليم ..

فسألته مذهولاً لا أكاد أصدق ما تراه عيناى:

- هل أنت ولي الأمر؟!

ابتسم بنعومة وبانت أسنانه البيضاء المتراسة كحيات اللؤلؤ، ثم أغمض عينيه
وفتحهما كأنه يميني بالإيجاب .. وبعدها حدثني بصوته الوقور الخفيض ..

لقد أخبرني رفعت أنك تطلب لقائي بشكل عاجل .. خير يا سليم؟

ارتبكت بعض الشيء، وتبخر من رأسي كل ما رتبته من كلمات .. ثم تماكنت
نفسي وعادت إليّ رزانة العقل، فحدثته بنبرة أقرب للجدية منها إلى الحدة قائلاً:

- إن ما حدث قبل شهر هو خطأ فادح وخسارة لنا أكثر مما هي خسارة لأعدائنا
ويجب ألا تتكرر ..

أريد وجهه بحمرة غضب كبلها صبر سرعان ما كان سينفد، لو أكملت بنفس
الأسلوب الحاد .. فرد عليّ بصرامة قائلاً:

- دورك هو تنفيذ الأوامر لا مناقشة جدواها ..

- أعتذر سيدي إن أخطأت استخدام العبارات المناسبة لكنني ما جئت هنا إلا
ناصحاً لا عاتباً .. فتفضل بالسماع ليّ، ولك الأمر يا ولي الأمر ..

أراح ظهره للوراء ووضع ساقاً على ساق، وأوماً برأسه لي آذناً باستكمال حديثي
.. فاستطردت قائلاً:

- نحن نستطيع هزيمة النظام لكننا لن نستطيع هزيمة الشعب .. علينا أولاً توحيد الناس في معركتنا مع الحكومة، حتى لا يعادونا ويتحالفون مع الشرطة للقضاء علينا .. لذا يجب ألا نوجه عملياتنا ضد عوام الناس بل إلى الحكومة فقط ..

- الشعب الذي يوافق على العيش تحت ظل هذه الحكومة الكافرة، يستحق الفناء معها ..

- إنهم يا سيدي مكرهون ..

- ولم لا يتفضون بوجهها؟! ..

- لأنهم خائفون من بطش الشرطة ..

- إذن أولئك لا يستحقون الحياة فهم كالخراف خلقت للذبح .. وجودهم مثل عدمهم .. كما أن استهدافنا لهم يأتي توسيعاً منا لدائرة المعركة بيننا وبين النظام حتى نشغلهم ونفتت تركيزهم .. وكى نال منهم في مقتلهم الذي سيميتهم وهو أمن المجتمع ..

- لكنهم لو تحالفوا مع النظام ضدنا فسيقضون علينا .. وتوسيعنا للعمليات بقدراتنا المحدودة التي تعرفها سينهي أمرنا ..

انتفض من مكانه غاضباً وزعق عالياً:

- لا تظن أن الحرب بيننا وبين ذاك النظام الكافر يحكمها عتاد أو عدد .. بل رضا الله ومؤازرته .. لذا فالنصر حليفنا لا محالة .. فلا تردد تلك العبارات الخائبة مرة أخرى ..

- أعتذر يا سيدي عن سوء اختيار تعبيراتي مرة أخرى، لكن أرجو أن تسمع اقتراحي ..

جلس على مقعده الوثير مرة أخرى وهو يتوعدني بالويل في نظراته إذا ما كررت

على مسامعه كلمة تغضبه .. لذا دخلت إلى مضمون اقتراحي مباشرة، آملاً من الله نيل استحسان ولي الأمر حتى لا يأمر بقتلي مثلما حدث مع نبيل بأسيوط ..

- أقترح يا سيدي تركيز عملياتنا على قادة الحكم فقط .. فبسقوطهم ينهار ذاك النظام العميل الكافر، وتؤول إلينا مقاليد الحكم بسهولة .. وبينما نقوم بذلك يركز خطبائنا في مساجدهم على استمالة الشعب نحونا .. وهكذا نحقق أهدافنا .. القضاء على النظام والحصول على تأييد الشعب وولائه لنا ..

- وكيف سنركز عملياتنا على قادة النظام وأنت تعلم أن ذلك يحتاج إلى تخطيط وإمكانات لا نمتلكها حالياً؟!

- دع لي هذا الأمر يا سيدي .. فبحكم عملي بجريدة مصر وطني أستطيع تحديد خطوط سير العديد من مسؤولي الحكومة، ومساكنهم، والأماكن التي يقضون بها أوقات فراغهم .. وبفضل المولى عز وجل ثم بمساعدة رفعت ومباركتكم سيدي، أستطيع تكييد الحكومة خسائر لا حصر لها تعجل بسقوطها بأمر الله ..

تنهد وصمت شارداً ينظر ناحيتي ثم أفاق من غيبوبته اللحظية ليخبرني بهدوء الخائر:

- انتظر مني رداً على اقتراحك خلال يومين ..

• • •

وقبل مرور اليومين، اتصل بي رفعت ليلغني بموافقة ولي الأمر على اقتراحي، وكان ذلك إيذاناً بانحسار الأمن كلية عن حكومة مصر تحت سطوتي الشرسة ونواياي الدموية .. فبدأت بتجميع المعلومات عن أقطاب النظام بحرفية عالية علمني إياها رفعت، كما استرجعت بذاكرتي الكتب التي قرأتها بستراسبورج عن المقاومة الفرنسية وكيفية تدبيرها لعملياتها ضد الجيش النازي، حتى أكون نداً لمناقشة رفعت وإجباره على احترام رأبي ونحن نضع تكتيكات العمليات ..

استمرت تحضيراتي الخبيثة فترة طويلة، ولم يتعجلني أحد للبدء، سواء ولي الأمر أو رفعت لثلاث تكون لي حجة إذا ما فشلت .. وكان هذا هو كل ما أرغب به .. مهلة مفتوحة أتقن فيها نسج خيوط أفكار الشيطانية، وترتيب احتشاد وساوسي العدوانية كي أسدد ضربات متتالية للنظام تسقطه في دماثة مترنحاً فاقداً لصوابه، فينهار كما ينهار الملاكم تحت شدة اللكمات ويعلن استسلامه بخنوع .. وتلك كانت إستراتيجيتي .. ضربات متتالية متعاقبة تتداعى على كل شبر في هيكل أعدائي وتتخن جراحه حتى يتصدع ويتشرخ عن آخره ..

كان جدول يومي يسير بتناقضات عجبية، ففي الصباح أذهب إلى عملي كالمعتاد .. ثم أعود إلى منزلي لأغفو ساعة أو ساعتين، وبعدها أستقبل رفعت في منزلي وأعقد معه جلسة مطولة نراجع فيها كل حرف بخططنا الإرهابية المتعددة .. وفي الليل ألوذ بروحي إلى شقة عمر أرقص عنده التانجو، وأتلذذ بافتان النساء بي من حولي وأحاديثهن المترفة الساذجة .. وبعد انتهاء حصّة التدريب الليلية، نسهر أنا وعمر تبادل القصص عما مررنا به في حياتنا ..

كان عمر هو الجزء المفضل لديّ في يومي .. أحبيته بشدة وصار لي أكثر من الأخ الذي لم يهيني الله إياه .. استغربت مشاعري تجاهه، فأنا لم أحب صديقاً مثله من قبل ولم أطمئن كليةً ناحية أحد غيره .. وفيما بدا أن تأثير التانجو على علاقتنا جعلني أحبه وأنس بقربه ولا أفكر في كفره من إيمانه، فنحن متشابهان لدرجة هائلة .. فهو ذكي .. وسيم .. تربي بالغربة .. يتيم منذ زمن .. له طموح بداخله يدفعه لرفض الحياة العادية .. والأهم من ذلك كله عشقه لرقص التانجو مثلي ..

حياة غريبة بالفعل التي كنت أحيها .. ففي الصباح إنسان عادي يسعى لرزقه وفي العصر مخطط إجرامي يشحذ همته لتدمير كل ما يرغب، وفي آخر يومي أكون الراقص الحالم الذي يمنحه الليل أبهى ما يجنّبه في عتمته وتحت بريق قمره ..

٢٣

قديماً وأنا أعمل في مكتبة إيزاك، كنت شغوفاً بقراءة كتب الأساطير والخرافات هروباً من تزاخم حياتي بالكتب العلمية المملة .. لكنني لم أتخيل أن أصبح في يوم ما أسطورة من تلك الأساطير ومجسداً لها!

فقد جاء عام ١٩٩٣ على مصر بما كانت لا تحسب حسابه .. فهو العام الذي تلبس فيه إلهي القسوة والتدمير الهندوسي شيفاً والشر الفرعوني ست جسداً واحداً عنوانه سليم باهر الشاذلي .. فطافا بي فوق رؤوس الناس لأقطف ما عنَّ لي من أرواح، وأحرق ما اخترت من بيوت، وأسحق ما شئت من حيوات، فلا يسلم إلا من أردت له السلم، ولا يخرب إلا من ابتغيت هلاكه .. فحكمت بالفزع أنفس البشر وأجملت بالخوف حركاتهم وروضت بالرعب آمالهم وأحلامهم ..

هذا ما كنت أشعر به وأنا أرى شجرة أفكار الخبيثة قد آتت أكلها اللعين، بعدما تفجرت مصر بسببي إلى فوضى مهولة، أجبرت كل نفر فيها على التلفت حوله، والارتياح بمن هم أقرب الناس إليه .. عمت محاولات الاغتيال وساد العنف بين الحاكم والمحكوم فلا هذا يدرك عدوه ولا ذاك يعلم من سلب أمنه ..

أيقظت رؤياي لأعين الناس كل ما بداخلي من كبرياء وتكبر .. فشعرت أخيراً في هلعهم بالرهبة التي حلمت بها منذ زمن والهيبة التي أستحق .. أغلب الأحيان كنت أذهب إلى برج القاهرة وأصعده كي أقف أعلاه، وأرقب ما اقترفت يداي فأحتفل مع

شياطيني وأتبادل معهم أنخاب النصر وسط الصرخات الملتاعة الصاعدة والدموع الحارقة النازلة ..

لم أشعر بسواد الذنب الذي أقترفه ولم أهتم سوى لكبريائي التي استردتها بعد غياب .. تمنيت وجود أبي بجانبني كي يحتفل معي بما يحققه ولده .. وتحيلت ساخراً منظر المقدم علاء مجدي وهو مغتاض هائج لا يعرف من أمره شيئاً ويؤرخ من رؤسائه على فشله فيطردوه من عمله ويقطع عيشه مثلما فعل بي دون ذنب .. لا أخفي أنني كنت أشعر أحياناً بالقلق والإشفاق على الإخوة الذين يقعون تحت يديه، لأنهم بالتأكيد قد رأوا عذاباً لم يشهد التاريخ مثله .. لكن لكل معركة ضحايا وهذا قدرهم .. كم رجوت الله أن أنجح في اغتياله لكنني فشلت مرتين .. المرة الأولى حاولت تفجيره في أثناء ذهابه إلى عمله، لكنه أفلت بأعجوبة وقُتل بدلاً عنه مرافقاه، وفي المرة الثانية خططت لقتله وهو يرافق موكب وزير الداخلية عبد الحليم موسى لكنه نجا .. وهذا هو الإخفاق الذي اضطررت على مضض إلى قبول التسليم فيه، بعد أن اشتهم ولي الأمر رائحة الانتقام تفوح من مطاردي له، فخشي على الجماعة من أن يصيبها مكروه أو تفهقر بسبب رغبة الثأر الدفينة داخلي والتي قد تعمي عيني وتشتت ذهني ..

• • •

في منتصف عام ١٩٩٣ أضحت مصر على شفير الهاوية بسبب أفعالي، فقد فاق جنون الإرهاب مداه، والرعب في قلوب الشعب أقصاه .. ترنح النظام على الرغم من تظاهره بالثبات واضطرب تفكيره بخوف قادته من أن تنالهم يدي الطائلة .. وفي يوم الحادي عشر من يونيو تحديداً، طلب ولي الأمر مقابلي، فاصطحبني رفعت وتوجهنا إلى فيلا بحي الزمالك وذاك مكان مغاير للمكان الذي لاقيته فيه المرة السابقة ..

حينما دخلت على ولي الأمر بهو الفيلا، نهض من مقعده مبتسماً ومد خطوته ناحيتي فاتحاً ذراعيه كأنه نسر يحلق بالساء ثم احتضنتني بابتهاج وتراقص بي في فرح

هاتفاً بحماسة وفخر:

- سليم .. يا من أحب إلي من ولدي ..

استغربت تماديه في التَّوَمُّقُ لكنني تفهمت حالته، فما قد فعلته بمصر فاق تصوره وجعل أحلامه أقرب للحقيقة .. فك ذراعيه من حولي ثم تخلل أصابعه بين أصابعي ليجذبني برفق ناحية غرفة موصدة على يمين البهو .. عندما فتح بابها ظهر لي خلفها رجل متوسط البنية أصلع الرأس ناعم الخدين، وجهه كالبدر من البياض اللامع، وتبرق زرقة عينيه الدقيقتين خلف نظارته الدائرية، يجلس بسكينة على كرسي جلد ..

تقدم بي ولي الأمر ناحية ذاك الرجل، يصيح بزهو:

- ها هو سليم الذي أخبرتك عنه يا أخي ..

التبس عليّ الأمر قليلاً من كلمة أخي، حيث لا يوجد أي تشابه بين ولي الأمر وذاك الرجل، لكن سرعان ما عاد إلي فهمي الذي فارقتني بعض الشيء من ترحاب الأمير، وأدركت قصده من كلمة أخي ..

حينما رأيّ ذاك الرجل وسمع ما سمعه من ولي الأمر نهض من كرسيه ونظر إليّ نظرة المهنيّ المغتبط، ثم صافحني بحرارة أحسست بها على الرغم من برودة يده وبياضه الثلجي ..

- هذا يا سليم أخونا في الله بهجت ولي أمر المسلمين في أوروبا ..

بالطبع لم أصدق ما قاله ولي الأمر بخصوص اسم ذاك الرجل .. فأنا وعلى الرغم من عظمة أعمالي بمصر ومدى قربي من ولي أمر مصر، لم أعرف اسمه الحقيقي حتى الآن، وهو الذي يرأسني مباشرة، فما بالي بولي أمر أوروبا .. على كل، تجاوزت تلك الملاحظة بلا مبالاة ورحبت بالرجل ودعوت له بزيارة هائلة في مصر فضحك الاثنان من كلامي ورد عليّ ولي الأمر مشاكساً:

- وهل يوجد هناء في مصر بسبيك؟!

فابتسمت لمفاكهته قبل أن يحتضنني ويحدثني بحنو قائلاً:

- بارك الله فيك يا سليم .. فقد استخدمك الله لنصرة دينه وإعادة أرض الكنانة إلى حظيرة الإسلام، بعد أن جمحت بها السبل إلى مدارج الكفر والضلال ..

- وفيك يا حضرة ولي الأمر .. أشكر لك إطرارك الطيب .. وأسأل الله أن أكون عند حسن ظنك دائماً ..

جلس ثلاثتنا بالقرب من بعضنا البعض متقابلين واكتسى وجه ولي الأمر بجدية وهو يبلغني بصوت خفيض:

- لقد تحدثت مع الإخوة عن بلائك العظيم بمصر، وما تحققه من نجاحات للجعاعة، والأرق الذي تسببه للحكومة .. فأشار عليّ الأخ بهجت بأمر أريد تبليغك به ..

- تفضل يا سيدي ..

هنا سكّت ولي الأمر، وتحدث المدعو بهجت بلغة عربية فصحي كأنها أراد إخفاء لهجة بلده الأصلية عني لذا لم يتسنّ لي معرفتها ..

- أنت تعلم الآن يا سليم أن النظام في مصر آيل للسقوط .. قريباً إن شاء الله .. لكن هذا قد لا يتحقق إلا بعد خمس سنوات على الأقل ..

- أعلم سيدي .. وذاك ما وضعته بحسابي حيناً وضعت الخطط لعملياتنا وتدرجها الزمني ..

- نحن يا سليم نستطيع اختصار تلك المدة في سنة أو اثنتين على الأكثر ..

- كيف يا ولي أمر أوروبا .. إن هذا مستحيل عملياً!

ابتسم من اندفاعي الاستكاري لما قاله وأجابني بنفس الهدوء قائلاً:

- أنت تعلم أن النظام المصري صديق للغرب الكافر .. وتلك الصداقة مبنية على المصالح الخاصة التي ينفذها النظام في بلدكم بخنوع للغرب وإسرائيل .. فإذا استطعنا الوقعة بين الغرب وحكومة مصر سنعجل بذلك سقوطها ..

- كيف؟!

- ستستمر العمليات في مصر كما هو محدد في الجدول الزمني الذي وضعته لكننا على التوازي مع ذلك سنقوم ببعض العمليات في أوروبا ضد منشآتهم ومؤسساتهم الحيوية المهمة .. ونمرر رسالة وراء كل عملية نبلغهم فيها أن ذلك نتيجة دعم حكوماتكم لحكومة مصر الكافرة .. فإذا تخلّيت عن مساندتها وساعدتونا على إسقاطها سنكف أيدينا عنكم ..

استحوذت فكرة بهجت على اهتمامي وأثارت فضول عقلي الذي أخذ يقلب فيها بإعجاب .. فسألته مستفهماً:

- وهل سترضخ الحكومات الغربية لمطالبنا؟!

- ها ها ها .. لقد أخبرني ولي أمركم أنك عشت بفرنسا ثلاث سنوات للدراسة .. فكيف تسأل هذا السؤال؟! .. ألم تفهم العقلية الغربية بعد يا سليم؟! .. إنهم لا يهتمون بشيء سوى أمنهم واستقرارهم ومصالحهم .. فإذا أفسدنا عليهم ذلك أذعنوا لمطالبنا العادلة ..

استحسنّت فكرته وتحمست لها، لكنني لم أفهم بعد سر طلب ولي الأمر لحضوري وفتحهم ذاك الحديث معي .. فسألته مرة أخرى:

- وما علاقة ذلك بي؟!

تبادل بهجت النظرات مع ولي الأمر قبل أن يخبرني الأخير بأنه تم اختياري كأحد

العناصر الرئيسية للمجموعة التي ستكلف بتلك العمليات في أوروبا .. فقفز قلبي بفرحة عارمة وكاد يُغشى عليَّ سعادة بذلك التكليف .. فسألته بارتباك جنوني:

- هل سأذهب إلى أوروبا؟

- نعم .. حتى يتسنى لك قراءة الأرض هناك وإعداد عمليات ناجحة كالتي خططت بمصر ..

هنا لم أدرك ما يدور حولي .. وكأن العالم أضاء في وجهي بنور احتفالي وصدق الكون في أذني بغناء ابتهاجي .. تنهدت نفسي راحة وهي تحدثني قائلة: وأخيراً سأعود إلى أوروبا وأترك تلك البلد الكريهة التي لم أرَ فيها سوى الشقاء والبؤس والليالي الكثيرة الموحشة والعذاب والقهر والفقر .. سأرجع إلى رياض أوروبا وأتعمم بها كما كنت قبل سنوات .. وقد أعود إلى إكمال دراستي بفرنسا وأحصل على الماجستير ومن ثم الدكتوراه ولن يعارض ذلك أحد من الجماعة ..

لم أصدق نفسي للحظات فتحسست الكرسي الجالس عليه ودرت بعيني في المكان لأتأكد بأنني جالس بالفعل في حضرة ذلك الشخصين .. فتنهت فجأة على سؤال هامس أوحى لي به ذهني سرعان ما رده لساني ..

- ومن سيتابع العمليات في مصر؟!

- دع الأمر لرفعت فهو يعلم تماماً ما سيفعله .. ها يا سليم هل عندك أي استفسار آخر؟

- لا يا سيدي .. لا يوجد أي استفسار آخر ..

- على بركة الله .. انتظر مني اتصالاً قريباً أبلغك فيه بميعاد سفرك بعد أن نجهز أمورك هناك ونستخرج لك ثبوتات شخصية أخرى تسهل مغادرتك إلى أوروبا ..

٢٤

بعد ذاك اللقاء تكالبت عليّ أهازيج أفراحي وجبور أمانّي .. سعادة بالغة صهرت صلابة عقلي وأطاحت به إلى عالم من الأحلام الجميلة المتصلة .. فقد تحقق المستحيل بأعجوبة وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من العودة إلى جتتي التي أحببت .. المكان الذي خلقت من أجل التمتع به .. إلى أوروبا قارة الروائع والعلم .. أرض النساء والنعم ..

وحينما أطل الليل عليّ بوجهه الساحر ظللت أرقص التانجو عند عمر كالمختل دون توقف، وبنشاط استغربه كل الحضور .. لم أحرّم امرأة حلمت قبلاً بي من مرافقتي، ولم أكف عن إبهار الجميع بحركات راقصة أثارت ذهولهم .. نثرت ورود سروري على المحيطين واحتضنتهم جميعاً دون تكلف .. فتعجب عمر من حالي وألح في سؤاله عن سر سعادتي، لكنني لم أخبره واكتفيت بتشتيت انتباهه في المازحة وسرد النكات ..

عدت إلى شقتي بعد ذاك اليوم المرهق ولم أدخل إلى النوم كنتيجة طبيعية لما مررت به من إنهالك بل اتجهت إلى الغرفة التي أعد فيها متفجراتي الإجرامية عازماً على تحضير قنبلة ستذهل الجميع من فتكها الدموي، كنت قد أخفيت بعض مكوناتها في مكان سري دون دراية رفعت، ودون هدف مسبق مني .. ورحت أبتكر فيها متراقصاً كأني أعزف على آلة موسيقية بينما كان لساني يترنم بأغنية "دي دي" للشاب خالد الذي تنبأت أُمّي له بمستقبل واعد، وقد كان .. وبعد ساعتين من الجهد المتواصل في إعداد إنثم جديد أضمه لرصيد ذنوبي الزاخر، غلبني نعاسي وأغلق النوم عيني ..

تمددت على الأرض فقد خارت قوايكلها ولم يتبقَ منها ما يحملني إلى سريري ..
وتسللت إلى رأسي أحلام ممتعة عن أوروبا رسمت على وجهي الساكن ابتسامة بريئة
كأنني رضيع تلاعبه الملائكة .. كانت ليلة قصيرة ممتعة لم أذق في حياتي يوماً رائقاً مثلها
وهبتي تلك الليلة حتى فززت في الصباح على صوت جرس الباب المزعج، فارتطم
رأسي بالطاولة التي كنت أصنع عليها قبلتي وهوت من قوة اصطدامي إلى الأسفل
قنينة حمض النيتريك فتكسرت على رأسي ..

وهكذا انقلب السحر على الساحر .. وذاق الصانع مر ما اقترفت يده الأثمتان ..
كان الألم مريعاً وكأن أحد خزنة جهنم قد اجترني على وجهي في قعر الجحيم ..
احترقت بنار موحشة لم يجرب فظاعتها أكثر ضحاياي بؤساً .. وشوي جلدي ببطء
اليم، وكان قطرات الحمض كانت تتلذذ بسلخي، كما تلذذت من قبل في قتل النفس
التي حرم الله دون ذنب ..

رحت أصرخ وأركض كالمجنون في الشقة متجهاً ناحية بابها ففتحته بوجهي
المشوه واضعاً كفي المحترق عليه، أصرخ من أعماقي مستغيثاً طالباً النجدة ..
فالتقطني من كان واقفاً وراء الباب قبل أن أكمل جريي المختل تجاه الشارع ..
وسألني بوجل عما حدث .. تبينت من صوته أنه رفعت فجذبته من قميصه وأوقعته
أرضاً أصبح في وجهه سائلاً العون والنجدة ..

- اهدأ يا سليم .. اهدأ يا أخي أرجوك ..

نهض رفعت من تحتني وهروا تجاه الهاتف ليطلب الإسعاف وبينما يحدثهم بان له
ما كنت أصنعه بالغرفة المجاورة .. وفور انتهائه من إبلاغهم انطلق مسرعاً ناحية
الغرفة ليخفي ما فيها وتركني بالصالة أصرخ متألماً وحدي حتى أغشي علي من هول
مصابي وغرقت في بحر لحي معتم تلاطمني أمواجه السوداء المخيفة نحو مجهول
مرعب ومصير محتوم لم أتخيل فظاعته قبلاً في أبشع كوابيسي ..

• • •

شهر بأكمله مكثته طريح الفراش بالعباية المركزة تحوطني أجهزة طبية كثيرة ومغروسة في ساعدي الأمصال .. لا أفيق إلا لدقيقة أو دقيقتين كل بضعة أيام ثم أعود إلى غشيتي مرة أخرى .. قد أصادف وجه ممرضة أو طبيب يتسم لي بإشفاق، حينما تعمل عيناى في تلك الدقائق المعدودات .. لكنى فى عفوتى لم أكن أرى إلا ما يزيد عذابى من وجوه كريمة وأهوال مفزعة وجحيم مسعر ..

وبعد ذاك الشهر سمح الأطباء لمن يريد زيارتي بالدخول إليّ وكان أول الداخلين عليّ هو رفعت الذي رأيت في وجهه تعبيرات جامدة تخللتها للحظات بعض نظرات الإشفاق والحزن ..

ظل مطرق الرأس زمناً طويلاً وكأنها شق عليه رؤيتى بتلك الحال ثم رفع بصره ناحيتى يسألنى بصوته الآسى:

- كيف حالك الآن يا سليم؟

جاهدت للرد عليه لكنى لم أستطع تحريك لساني أو فغر فاهى فاكتفيت بإيلاء مبتسمة من رأسى، ودمعة لامعة استلقتها من عيني ففهم ما بي .. دنا بمقعده من رأسى ودار بعيني في المكان ارتياباً قبل أن يربت بحنو على كتفى، ويبلغني هامساً:

- ولي الأمر يدعو الله لك بالشفاء العاجل .. ويوصيك بالصبر على مصابك ..

نهض من مقعده مُنحياً وجهه عني وكأنها ينجل من شيء ما .. واستطرد بتهدج وارتابك قائلاً:

- بالطبع ستأتى الشرطة لتسألك عن كيفية وقوع الحادثة .. أبلغهم أنك بحكم تخرجك من كلية الكيمياء وعدم عملك بالمجال الذي تحبه فضلت المراجعة الدورية لما درسته من قبل لئلا تنساه، لذا فإنك تحتفظ ببعض المواد الكيميائية الخطرة التي تجري عليها تجاربك البسيطة .. فوقع لك هذا الحادث المأساوي بالمصادفة ..

لم يلقى على وجهي نظرة وداع حينما غادر، وأردف بصرامة مصطنعة قائلاً:

- احفظ ما قلته لك جيداً .. فهذا لسلامتك وأمنك .. شفاك الله يا سليم وهون عليك مصابك ..

• • •

في اليوم التالي من زيارة رفعت، جاء عمر لرؤيتي وجلس بقربي يبكي لا ينقطع دمعته، وكأن ما أصابني قد ذبحه .. لم يكلمني بل اكتفى بالنظر نحوي والانتحاب على حالي .. ثم برقت عيناه فجأة بوميض ناري وكأنها انتبه لشيء ما أزعجه فانتفض من مقعده إلى خارج الغرفة مهرولاً ناحية الرواق يصيح في عصبية سائلاً عن الطبيب أو الممرضة المسؤولين عن الجناح الذي أرقد فيه .. فأتته الممرضة راكضة بفرع ..

- ماذا هناك؟!

- كيف تتركون مرضاكم بهذا الإهمال الجسيم؟! .. انظري إلى الغطاء القذر البالي الذي دثرتم به هذا المسكين ..

هذا ما أخبرها إياه وهو يزعق ويشير بيده المضطربة ناحيتي .. فخافت الممرضة من نظراته الحانقة المخيفة وهرعت نحوي لتبدل الغطاء، ترددت بتوتر كلمات الاعتذار الخجلة، طالبة العفو والصفح .. وبعد خروج الممرضة من الغرفة زرف إليّ بخطوات واهنة وجلس على كرسي مواز ليدي المحترقة الممدودة .. فأحاطني بنظرات حب صادقة ولامس أصابعي برفق ثم خاطبني بلطف:

- لا تقلق يا سليم .. سوف تبرأ قريباً وتعود إلى الرقص وسحر النساء .. شد حيلك كي تخرج بسرعة ..

امتلات مقلته بالدموع مرة أخرى وحاول حبسها عني، لكنه حينها رأى بعيني ذاك اليأس الجارف والحزن الموجه، أجهدت بالبكاء مدة طويلة، ثم مسح خدي به وشق التصاق شفثيه بابتسامة مواسية، يستطرد مداعباً مشاكساً:

- هل تعرف تلك المرأة المجنونة التي اسمها نجلاء؟ .. عندما علمت أنك ممد

على الفراش بالمستشفى قالت لي: هذه فرصتي بالنوم جانبه دون مقاومة منه وتمنع ..
ها ها ها .. أنظر كم هي مفتونة بك أيها الراقص الساحر!

لم يتركني عمر طوال شهر كامل قضيته بالمستشفى بعد شهري الأول الذي مكثته
بالعناية المركزة، والذي علمت عنه فيما بعد أنه كان يأتيني فيه يوماً للاطمئنان على
حالي .. شهران كاملاً أهمل فيهما عمله كي يكون قريباً مني ويخفف عني .. بالفعل
كان عمر هو الأخ الذي لم أرزق به .. والأب الذي حرمت منه، والأم التي فقدت ..
كان يمضي بقربي يوماً في المستشفى قرابة الست ساعات يمازحني فيها ويطعمني
بيده .. فهون عليّ حزني باحتضانه لي وأزاح عن قلبي خوفاً من الأيام بابتسامه في
وجهي ..

كان عمر هو الوحيد الذي يزورني بالمستشفى هذا إذا استثنت الزيارات الخاطفة
لفؤاد .. وهو الأمر الذي استغربته .. فقد تصورت أن يكون رفعت هو ذاك
الشخص الذي يرعاني لكنه لم يأتي سوى مرة واحدة ليبلغني بتعليقاته ثم انصرف
ولم يعد مرة أخرى على الرغم من انتهاء تحقيق الشرطة معي حول الحادث!

٢٥

الحياة يجب أن تستمر .. وركبها لا بد أن يسير .. فما قد ولى لن يعود .. وما راح مني لن يرجع .. قد يكون انتهى أمري من الدنيا .. أو مازال لي وجود فيها .. من الممكن أن تكون أحلامي قد تبددت بعد ما أصابني .. أم هناك أمل لاستردادها .. هل هناك أمل في شفائي وعودة وجهي إلى جماله السابق .. أم لا يوجد كما أخبرني أطباء المستشفى .. وما أدرهم أولئك الجهلة .. الطب في أوروبا متقدم بسنين ضوئية عن تلك البلد القابعة في قيعان التخلف .. بالتأكيد هناك حل ما .. بالتأكيد هناك أمل أعيش من أجله وإلا فقد قُضي علي ..

هذا ما كنت أحدث به نفسي وأنا أسير برفقة عمر متسنداً عليه في ليلتي الأولى بعد خروجي من المستشفى .. لا أنصت لكلامه ومحاولاته الحثيثة لانتشالي من يأسِي ومراة بؤسي .. فقد كان كل ما يدور بخلدِي هو تجنب نظرات الناس الفرقة من شكلي والعودة إلى البيت سريعاً للاتصال برفعت، ومعاتبته على عدم زيارتي بالمستشفى، ومن ثم سؤاله عن موعد سفري إلى أوروبا .. فأوروبا هي الأمل الباقي لي ..

أدخلني عمر إلى البيت وأجلسني على سريري ثم استأذن مني بابتسامة لطيفة كي يذهب لابتِباع طعام العشاء، ومن ثم العودة مرة أخرى حتى نأكله معاً .. بالطبع ارتحت لمفارقته لي كي أستطيع الاتصال برفعت والاستفهام منه عما شغل بالي طيلة فترة وجودي بالمستشفى حتى تلك اللحظة .. التقطت سماعة الهاتف وانطلقت أصابعي طرْقاً على أزراره بلهفة للتكلم معه .. ظلمت لدقيقة كاملة لا أسمع سوى

صَوْنِي الرنين المتكرر وأنفاسي المضطربة، ممتناً نفسي أن يرد عليّ لكنه لم يفعل .. سرعان ما تذكرت تعليمات رفعت لي سابقاً بأنه إذا ما أردته في أمر ضروري ولم أجده على النمرة المعتادة فيجب عليّ محادثته على رقم الطوارئ فهناك دائماً أحد ما ليستقبل مكالماتي ويبلغه إياها .. أخرجت الورقة الصغيرة التي كتبت عليها سابقاً رقم الطوارئ من غياهب دولاب ملابسي حيث كنت أخبئها .. وطلبت الرقم، لكنه كان مثل سابقه .. رنين ولا أحد يجيب!

عاد عمر بالطعام الذي ظل يلح عليّ بتناوله معه لكنني كنت حائراً أفكر بقلق بها يحدث حولي وما مر عليّ .. ثم طرأت إلى ذهني النتيجة التي لم أحسب حسابها قبلاً .. أن الجماعة قد تخلت عني .. وهذا ما أكدته لي الأيام حينما وجدت ظرفاً أدخل إلى شقتي بينما أنا نائم فيه مبلغ عشرة آلاف جنيه، ورسالة صغيرة مكتوب فيها: حمداً لله على سلامتك يا سليم .. نرجو أن يحفظك الله من أي سوء في المستقبل ويجنبك الشرور .. يوجد بالظرف مبلغ عشرة آلاف جنيه كهديّة مقدمة من الجماعة على إخلاصك وتفانيك في الجهاد في سبيل الله طيلة الفترة الماضية .. نتمنى لك حياة مستقرة زاخرة بالطاعات ونعدك بإكمال المسيرة عنك ..

لم تذيل الرسالة بتوقيع أو تحية كما لم تبدأ بإلقاء السلام .. وكأنهم رغبوا في التخلص مني بأي شكل، وفي أسرع وقت .. لم يعطوني فرصة لشرح حالتي لهم، فأننا لم أصبح عاجزاً بل مشوهاً فقط؟! .. لم يساعدوني على السفر إلى أوروبا فهي الأمل الأخير لاسترداد وجهي والعودة إلى الحياة التي حلمت؟! .. لم خانوني وباعوني هكذا كأني كلب في آخر أيامه وأنا الذي لم أقصر في حقهم بشيء من قبل فكل ما هم فيه من نجاح تم بفضلتي؟! .. لم حرمني غنيمة نصري وتنعموا بما ليس بحقهم؟! .. حتى رفعت نخلي عني ولم يقف بجانبي .. ذاك اللوطي الخسيس كيف محاً ما يزيد على الستين لم نفترق فيهما عن بعضنا هكذا؟! .. اللعنة عليه .. بل عليهم جميعاً ..

راودتني نفسي للوشاية بهم لدى الشرطة انتقاماً مما فعلوه معي، لكنني جنبت من فعل ذلك خوفاً من حبل المشنقة الذي كان سيعلق في رقبتني لا محالة، أو خشية على حياتي من أن يغتالوني إذا اقتربت من أي قسم شرطة .. فثعلب مثل رفعت لن يتركني أقدم على تلك الخطوة وبالتأكيد قد احتاط جيداً لها، فهو يحسب ألف ألف احتمال لكل شيء .. لذا لم أجد أمامي سوى الصبر على حالي والدعاء لله بتخليصي من الدنيا ..

طلبت من فؤاد القيام بعملتي من المنزل فوافقني مشكوراً على ذلك .. ومع الوقت بدأت أتكيف على وضعي الجديد .. المسخ المشوه الذي سيعيش باقي حياته في غرفة مظلمة يمارس فيها عمله ويطلع حوائطها ترفيهاً عن نفسه .. يشارك ظلمتها الطعام ذا الغصة ويخفي في سوادها من قبح شكله .. لكن عمر لم يتركني وحيداً، وداوم على زيارتي في كل يوم أكثر من مرة .. حتى إنه اصطحبني معه ذات مرة إلى شقته كي أرقص معه التانجو لكنني لم احتمل نظرات الحضور المتقززة مني فخرجت ولم أعد إليها مرة أخرى ..

• • •

في السابع من فبراير عام ١٩٩٤، انتقل للسكن بعمارتنا لواء الأمن المركزي محفوظ ناجي، وابنته الوحيدة خديجة، واستقرا بالشقة الفارغة في الدور الأعلى مني مباشرة ..

اللواء محفوظ ناجي هو أغرب ضابط شرطة رأيته في حياتي، ليس بسبب سمته المفرطة أو قصر قامته أو نظارته سميكة العدسات التي دلت على ضعف حاد في بصره .. إنها لتفردة عن الضباط بصفات عدة .. أهمها طيبته البالغة وبشاشته وجهه وزيبية الصلاة المفترشة لوجهته حيث كان من المداومين على الصلاة في المسجد إذا كان بالبيت .. تعجبت كثيراً من محافظته على الصلاة بالجامع ومن لسانه رطب الذكر الذي أسمعته أحياناً يلهث مسبحاً بصوت متحشرج عالٍ من وراء باب شقتي حينما ينزل إلى عمله .. فهو ضابط شرطة أي كافر مع سبق الإصرار كما علموني بالجماعة،

أو كما استنتجت من احتكاكاتي القليلة اللعينة معهم .. الشيء الوحيد الذي أقلقني في سكن اللواء محفوظ عندنا هي الحراسة المصاحبة له .. فسيارة الشرطة لا تفارق باب العمارة طالما اللواء موجود بالبيت، وهذا إذا ما رآه رفعت فقد يظن أنها موجودة لحراستي بعد أن وشيت بهم .. لكنني كنت أطمئن نفسي بأن رفعت أذكى من الارتكان إلى شك ساذج وبناء رأي عليه فبال تأكيد قام بتحرياته وعرف حقيقة الأمر برمته ..

أما خديجة ابنته فعندما رأيتها للوهلة الأولى من خلف ستائر شباكي لمحت في وجهها جنون كريستين، وعذوبة هيلين، وجمال إيزابيلا، وبراعة سارة .. كانت كتلة من الأنوثة الخلابة .. هدية ربانية إلى الكون كي تزيده بهاء .. لم تمنح قلبي وقتاً أو فرصة لتفادي الوقوع في حبها الذي قاومته لفترة طويلة بسبب ما آل إليه شكلي .. فقد أقنعت نفسي بعد الحادثة أنني سأقضي بقية عمري دون حب أو نساء .. لكن ما رأيته بوجه خديجة كان أقوى من سيطرة عقلي علي .. شيء استلب كل قدرتي على مقاومة الدنيا وزينتها وأشاع النور في صدري الكثيب ..

أحببتها .. وامتلكت كل تفكيري .. حلمت بلمسها والجلوس جوارها .. بل الزواج منها .. لكنني لم أعرف السبيل إلى ذلك .. فوجهي البشع لا يستطيع أحد احتمال النظر إليه بما فيهم أنا .. وحتى إذا احتملت هي رؤيتي فسيكون ذلك من باب الشفقة أو الخجل من إبداء أي ردة فعل متزعجة تجاهي .. وهكذا انتهى الحال بسليم باهر الشاذلي الذي لم تستطع أي امرأة مقاومة نظرة منه طوال حياته لا يتجرأ الآن على الحلم بالاقتراب من أقبح قبيحات العالم فما بالي بتلك الفاتنة الساحرة!

وفي يوم من الأيام تعمدت الخروج من باب منزلي في أثناء نزول خديجة إلى كليتها حيث كانت تدرس بكلية الهندسة جامعة عين شمس، فحدث ما مزق قلبي وأبكى عيني .. لن أنسى ذاك الوجع الذي رأيته في عينيها، والرعب الذي ملأ صدرها، وشهقة الفزع التي أطلقتها حينما رأته لأول مرة أفق بالقرب منها على الدرج ..

فأطرقت رأسي وعدت إلى منزلي في سرعة واضطراب كي أختفي من أمامها .. حاولت التماس العذر لها فقد تكون تفاجأت بظهوري أو أنها لم تر قبلاً من هو بتلك البشاعة .. لكنني شعرت بانكسار هائل وحزن كظيم وانهمر الدمع من عيني طوال اليوم .. فلا أقسى على الرجل من كراهية النساء لشكله ورؤيته لذلك بأم عينه ..

• • •

في الناحية الأخرى من شقتي كان يدور بخلد عمر ما دار بخلدي ويعصف بقلبه ما همَّ بي .. فقد أحب خديجة من كل قلبه وبواطنه .. لم يجبها كحب الرجل للمرأة بل امتد ولعه بها لآثار ظلها ومواضع أقدامها .. إلى مطاردة رائحة أنفاسها واستنشاق عيبرها .. إلى تجمد عينيه لدقائق عدة حينما يراها لثلا تتبدد صورتها من مقلتيه إذا أغمضهما وفتحهما مرة أخرى .. حتى إنه كان يخرج مباشرة من منزله بعد نزولها إلى الشارع كي يقبل مسند الدرج الذي لامسته بأناملها البيضاء!

أما خديجة فكانت تبادله تلك المشاعر لكن برزانة وعقلانية .. فلم تنجرف في حبها لعمر إلى مرحلة تبدي له فيها إعجابها الصارخ بوسامته والجو الرومانسي الذي يحيا به ولو حتى بابتسامة خافتة متوارية خلف جليد وجهها .. فهي تحسب دائماً نتائج خطواتها ولا تنقاد وراء أي رغبة داخلها ستؤثر سلباً عليها أو على والدها الذي هو كل ما تبقى لها من أهلها بعد وفاة والدتها منذ عشر سنوات ..

ظل التفكير بعمر يشغل كل جوانب عقل خديجة، تحاول عبثاً الإفلات من حبه ونسيانه .. فهو مدرب رقص لا أهل له .. أما هي فبعد أقل من عامين ستخرج وتصبح مهندسة معمارية كما أن والدها قد يترقى لمنصب مساعد وزير الداخلية في يوم ما .. وارتباطها بعمر سيجلب العار لها ولوالدها الرجل المصلي التقى .. لكنها لم تستطع مقاومة حبها له والذي كان يزيد في كل لحظة على الرغم من العقبات التي تعوق ارتباطها بشخص مثله!

• • •

في فجر أحد الأيام وقف عمر بشباك منزله يرقب إطلالة الشمس من كبد السماء الزرقاء الصافية لا يزعج تفكيره العميق أي ضوضاء وهو في حضرة ذاك الشروق الرائق .. استجمع رباطة جأشه من جل أوصاله وطرده صفة الخجل بحزم من أخلاقه ثم انطلق ناحية باب الشقة وجلس بقربه منصتاً لسماع وقع أقدام خديجة وهي نازلة على الدرج كي يصارحها بحبه وعشقه المجنون بها .. استمر قعوده على الكرسي بجانب الباب ساعتين لا يلتفت برأسه ولا يحرك جسده لئلا يحدث أي صوت يعكر صفو السكون المحيط به وهو منتظرٌ بشغف هبوط حبيبته .. وفجأة ترامى إلى أذنه ديبب أقدامها الخافت، فقفز من على كرسيه وفتح الباب بحركة مباغتة فزعت منها خديجة، وتوحد جسدها التحيل مع صلابة الأرض تحتها فأصبحت جزءاً منه لا يعمل بجسمها شيء سوى قلبها الخافق بنبضات متسارعة وهي ترى عيني عمر المتوهجتين بلمعان ساحر ووجهه الوسيم الخلاب .. فهرول الأخير ناحيتها ووقف أمامها متحدياً أي شيء قد يمنعه عنها ثم أمعن النظر في عينيها، فانهار عقلها وكاد قلبها العاشق ينخلع ولها وهو يقول لها بصوت رخيم هامس:

- أحبك ..

- وأنا أيضاً ..

هكذا ردت عليه بسرعة وتلقائية غريبة اضطربت منها اضطراباً شديداً مما أنهى توحدهما مع الأرض تحتها فدفعته دفعة رقيقة بكف يدها على كتفه كي تزججه للفرار من أمامه لكن ذهوله المفرط مما صرحت به أجبره على الإمساك بمعصمها .. جذبها نحوه بقوة ارتطمت بسببها في صدره المضطرب بنار العشق .. ثم أعاد النظر إلى عينيها بنفس النظرات السابقة لكن باتساع أكبر فكادت من روعتها تسلم له نفسها لو طلب ذلك دون أدنى اعتراض .. فسألها أن تعيد عليه ما قالت .. فأعادته بصوت مرتجف يتذبذب بين ضفتي نهر حب ممتد يجري بقلبيها .. حينها خارت قوى عمر فتركها

تروح لحال سبيلها، وذهب عقل خديجة فراحت تقفز نزولاً على الدرج مبتسمة
منتشية لا تدري من أمرها سوى تلك اللحظات التي خلت فيها بعيني عمر ..

• • •

لم يكتفِ عمر بتلك الدقيقة التي نالها من خديجة وشعر فيها بأنه ملك للكون قد
كُتب له الخلود في جنة تحوي ما يشاء .. بل تعددت اللقاءات بينها، فتارة يقابلها
بكافيريا قريبة من جامعتها، وتارة يلتقي بها عند آخر الشارع ليرافقها إلى كليتها وهما
يتحدثان عن كل شيء يخص حياتهما بعفوية المحبين .. تأثر عمر كثيراً بتدين خديجة
وبالأخص بعدما سألها عن سر احتجابها وإخفائها لشعرها عنه .. حينها وجدت
خديجة الفرصة الملائمة لتعلم عمر دينه وصارحته بكل ما يزعجها منه بالأخص
تدريبه لرقص التانجو ..

لم يجادل عمر خديجة في أي شيء تخبره إياه، حتى لو قالت له إن قتل النفس
مرضاة للرب لقتل نفسه .. وذلك يعود لسببين أولهما أن خديجة أيقظت فيه تلك
الرغبة القديمة في تعلم دينه وثانيهما أنه يحبها للدرجة الخضوع لها في كل ما تريد، لئلا
يغضبها عليه ويضيعها من بين يديه، وبالأخص أنه أقل منها في كل شيء .. سواء من
حيث الوجاهة الاجتماعية أو المستوى التعليمي .. لذا وعدّها بإغلاق صالة الرقص
في أقرب وقت وإنشاء أي مشروع صغير كما أشارت عليه .. وعلى الرغم من قسوة
ذاك التغيير عليه فهو يعشق رقص التانجو أكثر من أي شيء، فإن حبه لخديجة لا
يضاهيه حب آخر في الوجود بها في ذلك حبه لنفسه!

٢٦

التاسع من يونيو عام ١٩٩٤ .. إنه اليوم الذي أعلن فيه عمر عن سره الخفي أمامي .. فهو لم يحتمل كتمان شيء عني، فأخبرني بحبه لخديجة ومبادلتها إياه نفس المشاعر .. كان يتحدث ببراءة منيرة كأنه طفل يقر بالذنب أمام والده، وترقد على وجهه ابتسامة بلهاء .. نعم، فما أخبرني إياه ذنب لم أحتمل ابتلاع صدمتي به، وهو يصف لي ضحكاتها الساحرة ومشيتها الفاتنة .. نعومة يدها وتورد خديها .. بريق عينيها وعذوبة صوتها .. نصوع وجهها وطهر روحها ..

في ذاك اليوم أدركت بالفعل أنني قد مت إلى الأبد، وحُكم على روحي بالجحيم السرمدي الذي لا راحة فيه ولا نعمة .. بكيت .. نعم، بكيت كما لم أبك من قبل .. كان دمعي أشد حرقاً من الحمض الذي شوهني .. فحُفر من مائه المثلث بالشجون والأسى خيطان سميكان في وجهي كأنهما واديان من الجمر المبتل الذي لا يزيده مائه إلا اتقاداً .. وسرعان ما تحولت نار الحزن داخلي إلى حطب مشتعل، تكوم حول شظية حقد أينع لهيبها وناطح بشراره سقوف الأفق المتسعة .. فعاد إلى مسامعي بعد سنين من الفراق شيطاني اللعين مرتدياً عمامة الواعظ التقى وجاء رفيقه متسرلاً بالوهن كعادته ودار بينهما الصراع المحسوم مسبقاً لصالح شيطاني إذ قال لي: (كيف لفتاة مؤمنة مسلمة مثل خديجة أن تتزوج من ذاك الماجن الكافر عمر؟! .. إن ذلك لا يرضي الله ورسوله .. ألم يقل الله في محكم تنزيله (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) .. أترى؟ .. لا يجوز لكافر مثله الزواج من فتاة طاهرة مثل خديجة .. إنه يغويها كالشياطين مستغلاً وسامته التي خدع بها تلك المسكينة .. لا تدع ذاك الإثم يتم يا سليم .. فهو يغضب الله) .. حينها

بنغ صوت ناصحي الحسيس، يقول لي: (لا يا سليم .. إنك تحقد عليه لأنه نال ما لن تستطيع نيله .. إن عمر لا ذنب له فيما حدث لك فلا تصب عليه سخطك وكراهيتك .. فخديجة إن لم ترتبط بعمر فسوف تتزوج غيره، لكنها من المحال أن تكون لك .. أي أحد في هذا الوجود قد يستحق حنقك إلا عمر، فهو الوحيد الذي وقف إلى جانبك حينما تخلى عنك الآخرون، وهو الوحيد الذي تبقى لك في هذا العالم يُمكن لك الحب ويهتم لأمرك .. ثم إن عمر ليس بكافر .. إنه جاهل لم يجد اليد التي تتشله إلى شاطئ العلم وبدلاً من تفجيرك وقتلك لخلق الله كان أولى بك أن تعلمه كيف يؤدي فروضه على الأقل .. تعقل يا سليم .. إن ما يدفعك إليه شيطانك سيقضي عليك) ..

• • •

في الليل أعلن عمر لأعضاء حصة رقص التانجو لديه بأن تلك الحصة هي الأخيرة لهم عنده .. أخبرهم ذلك بأسف وتهذيب، ورد لهم المال الذي دفعوه مقابل الشهر كله ولم يقطع منه ثمن الحصص التي حضروها منذ بداية الشهر .. ثم دخل إلى غرفته بعد أن ودعهم يعد ماله الذي ادخره طوال سنوات عديدة مضت، والذي سيدفعه في الغد لشراء محل قرب شارع صلاح سالم سينشئ فيه مشروعه الذي اقترحه عليه خديجة، وهو سوبر ماركت يحتوي على كل البضائع التي سيقبل عليها سكان المنطقة الأثرياء .. مشروع ناجح بنسبة ألف في المائة بسبب مكانه ونوعية البضاعة التي ستباع فيه ..

• • •

في ذاك الليل البهيم، هاج حقدى كأنه ثور مطعون في رجلوته .. واجتاح غضبي كل المواضيع بجسدي .. وتكدست فوق قلبي انصهارات شموع الغيرة السوداء .. كانت عيناى مسعورتين وأنفاسى ملتهبة وتلكزني في بطني رجفات الحنق والغيط .. ظللت هكذا طوال الليل، أتحرّك بين أرجاء الشقة كالمجنون، وتسري في رعدة المخبول حتى جاء الصباح .. فجلست بقرب الباب أنصت لإنصات عمر وأنظر سماع ما يسمعه .. وفجأة فتح بابه على وقع أقدامها وهروا تجاهها ليخبرها بخنو:

- إن شاء الله سأدفع اليوم ثمن المحل ..

- موفق يا حبيبي .. اجتهد في عملك واحرص عليه حتى نتزوج بعد تخرجي مباشرة .. وإياك أن تباع لأحد على النوتة .. فهم لا يدفعون إلا بطلوع الروح ..
- ها ها ها .. أمرك يا خديجة .. اللهم قرب بيننا في أسرع وقت ..

عند استعاعي لحديثهما الرومانسي، ازداد شطط عقلي ومكثت أنفث لهيباً من صدري طيلة الصباح حتى سمعت أذان صلاة الظهر، فانتبهت إلى التكبير على غير العادة، وكأني قد سمعت إذناً إلهياً يسمح لي بالقيام بنا نويت ارتكابه .. لم أدخل إلى الحمام كي أتوضأ وأصلي وأستعيز بالله من شيطاني .. بل دخلت إلى المطبخ وسحبت سكيناً كبيرة من الدرج ثم انطلقت إلى باب الشقة يقودني شيطاني ويغفقي بسوطه .. فتحت الباب وشاهدت عمر يغلق باب شقته فوقفت مكاني وقفة المتحفز، حينما استدار الأخير تجاهي يضع مفتاحه بجيبه ليفاجأ بوجودي أمامه .. فابتسم قائلاً:

- ابن حلال .. كنت قادماً إليك كي نصلي الظهر معاً بالمسجد ..

حينها اندفعت ناحيته أزار غضباً، بينما هو واقف لا تتبدد ابتسامته العذبة، فطعته طعنة واسعة بقرت بها بطنه، وانثى منها دمه الطاهر مضمخاً يديّ ووجهي وصدري .. صدري الذي عانق رأسه وهي تنهاوى لاصقة بجسدي وتمسح عرقها الندي بجسمي ..

رفع وجهه ناحيتي ورمقني بنظرة العاتب المذهول الذي لم تمنحه آلامه نزرا من قوة ليسألني مستهتماً عن سبب ما فعلته .. فأوغرت سكيني داخله، ورفعته إلى صدره قاطعاً حتى وصلت إلى قلبه ومزقت نياطه .. حينها برقت عيناه ألماً للحظة، ثم أغمضتا عن الدنيا وعن وجهي القبيح .. وهكذا نزعت الحياة عن جسده حتى صار كالتمثال اللين لا يتحرك في جسمه شيء سوى ابتسامته البريئة التي زادت اتساعاً وطهرأ!

٢٧

في الجلسة التي عقدت لسليم بتاريخ الحادي عشر من أكتوبر عام ١٩٩٥، فاجأ سليم الجميع باعترافه بالتخطيط لقتل عمر، وأن ما فعله لم يكن نتيجة مشاجرة بل تخطيط مسبق .. فحكم عليه القاضي مباشرة بالإعدام .. ولو عرف القاضي ما حكي لي لحكم على سليم بمائة إعدام وليس إعداماً واحداً .. وهذا ما كان يعذب سليم الذي فضل القصاص من نفسه، لعل الله يغفر له ما ارتكب من جرائم .. وفي مارس من عام ١٩٩٦ نُفذ فيه الحكم الذي ارتضاه، وهو يتمنى من الله أن يكون ألمه على جبل المشنقة أشد وطأة عليه من العذاب الذي سببه لضحاياه حتى يرحمه ربه ..

• • •

في يناير عام ١٩٩٧، شهد الدكتور عطية البردوسي صديق الدكتور علي الرفاعي زوراً ضده في المحكمة .. حيث أبلغ القاضي أن الدكتور علي كان بالفعل مدمناً للمخدرات وصرح أمامه قبل يوم واحد من ارتكاب الجريمة بأنه سيقتل زوجته لو لم تعطه مصاغها .. وبذلك حُكم ظمناً على الدكتور علي بالإعدام شتقاً، بعد شهادة الدكتور عطية التي أدلى بها تحت وقع التهديد من قبل النائب رجب النجار والد القتيلة .. وبذلك نفذ رجب وعيده للدكتور علي بقتله مثلما قتل ابنته ..

• • •

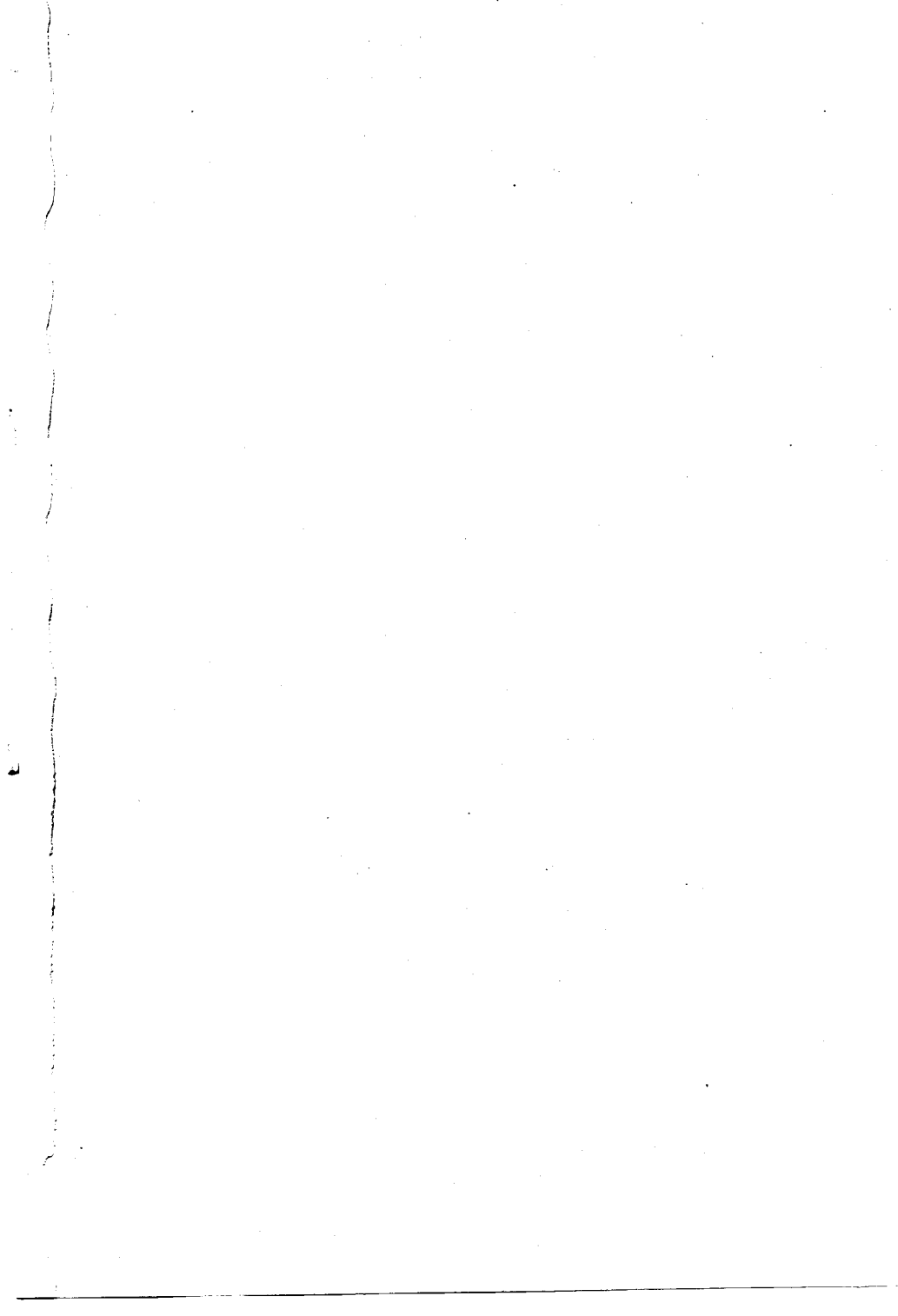
في عام ٢٠٠٠ أجبت الشرطة الفرنسية والألمانية محاولة لتفجير كاتدرائية
ستراسبورج عن طريق تنظيم القاعدة، ويُقال إن سليم باهر الشاذلي هو من وضع
خطط تلك العملية ..

• • •

تم الإفراج عن هذه القصة في عام ٢٠٠٩ على الرغم من كتابتها قبل ١٢ عاماً،
بعدما حُذفت منها بعض التفاصيل واستبدلت كل الأسماء الواردة بها لدواعٍ أمنية!

المقدم / سعيد رمضان

تمت بحمد الله







أيقظت رؤياي لأعين الناس كل ما
بداخلي من كبرياء وتكبر .. فشعرت
أخيراً في هلعهم بالرهبة التي
حلمت بها منذ زمن ، والهيبة التي
أستحق .. أغلب الأحيان كنت أذهب
إلى برج القاهرة وأصعده كي أقف
أعلاه، وأرقب ما اقتربت يداي
فأحتفل مع شياطيني وأتبادل
معهم أنخاب النصر وسط الصرخات
الملتاعة الصاعدة والدموع الحارقة
النازلة ..